نشر محاسن الأوصاف

في ذكر مناقب العارف بالله قطب زمانه سيدنا الإمام
سقاف بن محمد بن عمر السقاف

تأليف

نجله الإمام المحقق الخاشع المتواضع
حسن بن سقاف السقاف
رحمهم الله تعالى

دار الحاوي
للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة
[illegible]
[illegible]
لتجليد وتصنيع
الكتاب
بيروت لبنان

مؤسسة
عبد الحفيظ
البساط
لتجليد وتصنيع
الكتاب
بيروت لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م

دار الحاوي
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ لبنان

قال الإمام أحمد بن حسن العطاس في مجموع كلامه المسمّى (تنوير الأغلاس):

أحسن ما كان في مناقب سلفنا الجميع:

مناقب الحبيب سقّاف بن محمّد السقّاف

لأنها قوليّة وفعليّة وعمليّة

وكلّ كتاب وضع للجمع .. لا تعوّلوا عليه

وكلّ كتاب وضع للنفع .. فعليكم به

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

وبعدُ : فإن كتاب « محاسن الأوصاف في مناقب الإمام الحبيب سقَّافِ بن محمد السقاف » . . كتاب جامع ، حافل بعظيم المناقب التي يحق لها أن تكتب بماء العيون ، وليس بماء الذهب ، فهي مناقبُ جليلة تعرّف الأجيال بِسِيَرِ كمل الرجال ، وما لهم من عظيم الأعمال وبالغ المجاهدات في شتىٰ المجالات الخلقية والعلمية والعبادات وغيرها ، وقد قال الله في حقهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، ويكفي في التنويه بهـٰذا الكتاب القيم وتقريظه . . ما قاله الإمام الحبيب أحمد بن حسن العطَّاسُ في مجموع كلامه ، المسمىٰ : « تنويرَ الأغلاس » ونصه :

أحسن ما كان في مناقب سلفنا الجميع . . مناقب الحبيب سقَّافِ بن محمد السقاف ؛ لأنها قولية وفعلية ، وكل كتاب وُضع للجمع . . لا تعولوا عليه ، وكل كتاب وضع للنفع . . فعليكم به . اهـ .

فناهيك بما قاله الحبيب أحمد بن حسن في هـٰذه الكلمة الجامعة ـ علىٰ وجازتها ـ تقريظاً وإشادةً .

وقد جمع المؤلف في كتابه هـٰذا فأوعىٰ ، وحفظ للأجيال في هـٰذا السفر الجامع سيرةَ ، ومناقبَ هـٰذا الإمام العظيم وتاريخَ حياته الحافلَ

بجلائل الأعمال ، ونفيس الأقوال ، وحميد الأفعال هـٰذه السيرة الناصعة المعبرة عن كامل ٱلاتباع لجده الأعظم ، صلىٰ الله عليه ، وعلىٰ آله وسلم في الأقوال والأفعال وسائر الأحوال .

فجزىٰ الله المؤلف الكريم علىٰ ما قام به من الجهد المشكور والعمل الصالح المبرور بتأليفه هـٰذا السفر الجامع وتعريفِهِ بهـٰذا الإمام الجهبذ السائر علىٰ قدم الاتباع والاقتداء بجده الرسول الأعظم ، صلىٰ الله عليه وآله وسلَّمَ ، المرسل رحمةً للعالمين ، فكل ما ذكر في هـٰذا المؤلف من المناقب الجليلة التي يتحلىٰ بها صاحب المناقب الحبيب سقاف . . يعطِي صورةً واضحةً ومشرقةً تحكي سيرة المعلم الأكبر والمُشرِّع الأعظم ، صلىٰ الله عليه ، وعلىٰ آله وسلم ، الذي قال تعالىٰ في حقه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] ، وكفىٰ بذلك شرفاً وفخراً ، ولا شك أن صاحب المناقب ممن ينطبق عليهم قول القائل :

إن للهِ عبـاداً فُطَنـا ... طلّقوا ٱلدنيا وخافوا ٱلفِتَنا
نَظَروا فيها فلمّا عَلِموا ... أنها ليستْ لحيٍّ وَطَنا
جَعَلوها لُجّةً وٱتخذوا ... صالحَ ٱلأعمالِ فيها سُفُنا

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

أولئكَ ٱلقومُ إنْ عُدّوا وإن ذُكِروا ... ومَنْ سِواهم فَلَغْوٌ غيرُ معدودِ

وقد سلك المؤلف في تأليفه لهـٰذا الكتاب الجامع النافع . . طريقةً مبسطةً ؛ لينتفع به أكبر عدد ممكن من ٱلقراء والسامعين ، ممن يوفقهم ٱلله للعمل الصالح والتأسي ـ ولو بعض الشيء ـ بأولـٰئك الأئمة الأبرار ، الذين هداهم الله وحث علىٰ ٱلاقتداء بهم والاهتداء بهديهم .

وقد يستعمل المؤلف في هـٰذا الكتاب بعض الكلمات الدارجة في

اللهجة الحضرمية المُتَداوَلة في تلك الحقبة وما بعدها ، ولا يهتم في صياغة بعض العبائر للناحية البلاغية ، بل يؤثر التبسيط عن قصد وآختيار ، مع قدرته علىٰ تلك الأساليب البلاغية ، التي يعتني بها ويسلكها كثير من المؤلفين ، ولسان الحال يقول وينشد :

تركتُ نحتَ ٱلقوافي من معادِنها لأنَّ لـي مَقْصَـداً أنْ تَفهـمَ ٱلبقـرُ

قال هٰذا البيت قائله عندما بلغه قول الشاعر :

عَلَيَّ نحتُ ٱلقوافي من مَعادِنها ومـا عَلَـيَّ إذا لـم تَفهـمِ ٱلبقـرُ

فرد عليه بقوله : تركت . . إلخ .

وقد حرصنا علىٰ الإبقاء علىٰ النص الحرفي للكتاب حسبما هو في المخطوطة التي تتم الطباعة علىٰ أساسها ؛ ٱلتزاماً بأمانة النقل ، وعلماً بأن المؤلف حصل ذلك منه عن قصد وإخلاص ، وما حصل مع الإخلاص وصلاح النية . . جدير بالإبقاء والحفاظ عليه .

وقد ذكروا أن الإمام الحداد قال : قد نظمنا بعض قصائدنا قبل أن نقرأ في النحو ، ولم نُعرِبْها بعد قراءتنا فيه ، وقلنا : ما مضىٰ علىٰ الإخلاص لا نغيره ، وقد نقصده (أي ترك الإعراب) ، وقد طلب منا بعض الإخوان أن يُعرِبَ ما ليس بمُعرَبٍ فمنعناه من ذلك . اهـ . من مقدمة الديوان .

وقد ٱقترح عليَّ بعض الإخوان المحبين لهٰذا الكتاب القيم وأمثاله من كتب الأسلاف الأجلاء ، أن أشرح تلك الكلمات الدارجة التي وردت في بعض عبائر الكتاب وأفسرها في الحاشية ؛ إتماماً للفائدة ، وإعانةً للقراء الذين لا يألفونها ـ وقالوا إنهم قد يخفىٰ عليهم فهم معناها والمرادِ بها ؛ لأنهم نشؤوا وعاشوا خارج وطنهم ومجتمعهم ويجهلون

معنىٰ تلك الكلمات الدارجة الحضرمية ـ وتلبيةً لطلبهم شرحت تلك الكلمات في الحاشية ، راجياً من الله تعالىٰ التوفيق والإخلاص ، إنه سميع الدعاء .

وقد كَتبتُ ترجمةً للمؤلف عند العزم علىٰ طباعة كتابه هٰذا ، وصدرته بها ؛ لتكونَ لدىٰ القارىء الكريم لهٰذا الكتاب النافع فكرةٌ وإلمامةٌ عن المؤلف وسيرته ، وتاريخِ حياته السعيدة ، ومكانتِهِ العلمية ، وصلاحِه وتقواه ، وملازمتِه لوالده صاحب المناقب التي كان من نتائجها هٰذا المؤلف الحافل بهٰذه المناقب الجليلة .

فجزىٰ الله المؤلف الكريم علىٰ ما قام به من هٰذا العمل الجليل. . خير الجزاء ، وأحل روحه الطاهرة. . فسيح جنانه العُلىٰ مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولٰئك رفيقاً ، والحمد لله رب العالمين .

كتبه راجي عفو ربه

حسين بن محمد بن هادي السقاف

حفيد المؤلف

عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف الإمام العلامة
الحبيب حسن بن سقاف السقاف

الحمد لله ، وبه نستعين ، والصلاة والسلام علىٰ سيِّدِنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

وبعد : فهٰذه ترجمة وجيزة لسيدنا العلامة العامل السائر علىٰ منهج الاتباع الكامل لجده الرسول ، وسلفه القادة الفحول ، الجدِّ حسنِ بنِ سقَّاف بن محمد السقاف ، مؤلف كتاب « **نشر محاسن الأوصاف** » أصدر بها كتابه هٰذا الذي بين يدي ٱلقارىء الكريم ؛ ليكون عنده إلمامة بحياة المؤلف الجليل .

وٱعتمادي فيما أكتبه من ترجمته علىٰ ما أسمعه من سيدي الوالد مُحَمَّدِ بن هادي السقاف ، وهو يحدثنا ويقص علينا من سيرة ومناقب جدنا صاحب الترجمة ما يشنف الأسماع ، ويدعو إلىٰ سلوك طريقة أولـٰئك الأجداد ، وإلىٰ ٱقتفاء آثارهم وٱنتهاج منهجهم .

وعلىٰ ما يذكره صاحب الترجمة نفسه في كتابه « **محاسن الأوصاف في ذكر مناقب الحبيب سقاف** » .

وعلىٰ ما كتبه عنه تلميذه الشيخ العلامة عبد الله بن سَعْدِ بنُ سُمَيرٍ -

علىٰ وَجَازته ـ في كتابه « المنهل الصاف في مناقب الحبيب عمر بن سقاف » ، حيث ترجم بإيجاز لإخوان الحبيب عمر في آخر الكتاب المذكور .

والله الكريم نسأل أن يوفقنا للصواب ، وأن يسلك بنا مسلك أولـئك الأئمة الأبرار ، إنه سميع الدعاء .

نسبه الشريف :

هو العلامة حسن بن سقاف بن محمد بن عمر بن طـٰه ـ الفقيه ـ بن عمر بن طـٰه ـ صاحب المسجد ـ بن عمر الصافي بن عبد الرحمـٰن ـ المعلم ـ بنِ محمد بن علي بن عبدِ الرحمـٰن السقاف بن محمد ـ مولىٰ الدَّوِيلَة[1] ـ بن علي بن علوي ـ الغيور ـ بن الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي بن محمد ـ صاحب (مرباط) ـ بن علي ـ خالع (قسم)[2] ـ بن علوي بن محمد ـ مولىٰ الصومعة ـ بن علوي ـ صاحب (سُمَلٍ) ـ بن عبيد الله بن أحمد ـ المهاجر ـ بن عيسىٰ ـ النقيب ـ بن مُحَمَّدِ بن علي العريضي بن جعفرِ الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن الإمام علي بن أبي طالب ، وفاطمة الزهراء ، بنت الرسول الأعظم سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم .

---

(١) هي قرية تسمى : يَبْحَر الدُّويلة ، أي القديمة ، وعلى مقربة منها يبحر الجديدة ، وتقع الدَّوِيلَة شرق مدينة (تريم) وتبعد عنها بحوالي ٥٥ كيلو . كان الحبيب المذكور يقيم بها .

(٢) أي : غارس نخيلها ، و(قسم) بلدة تقع على بعد حوالي ٢٣ كيلو شرق مدينة (تريم) وهو الذي سماها (قسم) .

ميلاده ونشأته وطلبه للعلم :

ولد ـ رضي الله عنه ـ بمدينة (سيون) حضرموت ، ولم أقف علىٰ تاريخ ميلاده علىٰ وجه التحديد ، وهو علىٰ وجه التقريب في حدود سنة (١١٦٠هـ) .

ووالدته ـ هو وشقيقه محمد ـ : سلمىٰ بنت الشيخ سالم بَخْوَل ، وهي من الصالحات القانتات ، ومن بيت صلاح ومحبة لأهل البيت الطاهر .

ونشأ في كنف والده الإمام العلامة أحد أساطين العلم والصلاح والمعرفة بالله ، وفي ظل رعايته الفائقة وتربيته العالية ، وترعرع في ذلك المحيط الصالح التقي النقي ، فكان لذلك أَبلغُ الأثر في تكوين شخصيته . . ذلك التكوينَ العلميَّ الصالحَ ، فشب كما يَشِبُّ أمثاله من أولـٰئك الذين ينشؤون في ذلك المحيط الطيب .

فقرأ أولاً القرآن الكريم ، وأتقن قراءته ، وحفظه في سن مبكر عن ظهر قلب ، ثم ٱتجه إلىٰ طلب العلم الشريف من صغره ، وأخذ عن والده وشيوخ عصره ، وقرأ عليهم في كتب العلوم الشرعية والعربية والتصوف والسير وتراجم الأسلاف ، وأخذ من ذلك بنصيب طيب .

وكان جُلُّ أخذه عن والده ، فقد لازمه ملازمةً تامةً ، وأخذ عنه ، وقرأ عليه كثيراً ، وتعلق به تعلقاً شديداً ، وأجازه ، وٱرتبط بواسطته بأسانيد الرجال .

ثم أرسله والده ـ هو وشقيقَهُ محمَّداً ـ إلىٰ مدينة (تريم) ؛ لمواصلة طلب العلم فيها ، والأخذ عن الشيوخ الموجودين بها آن ذاك ، وكانت

تزخر بالأكابر من رجال العلم والصلاح ، فمكثا بها مدةً أخذا فيها عن كبار الشيوخ ، وحصل لهما ما قصده والدهما ، من الفتح في العلوم والبركة والمدد الإلـٰهي والاتصال بأسانيد أولئك الأئمة الهداة والارتباط بهم .

وهنا يقصّ سيدي الوالد محمد هـٰذه القصَّةَ التي حصلت أيام طلبهما العلم بـ (تريم) ، قال : وعندما كان الجد حسن وأخوه محمد . . يطلبان العلم بـ (تريم) ، كان أخوهما الحبيب علوي . . ما زال صغيراً ، وكانت والدته الصالحة . . تستحثه علىٰ التوجه لطلب العلم كإخوانه مع صغر سنه ، شأنها في ذلك شأن الأمهات اللواتي يربين أولادهن التربية الصالحة .

وفي يوم من الأيام شددت عليه القول في التوجيه والتحريض ، وكان مما خاطبته به قولها : هـٰكذا أنت يا علوي . . إخوانك حسن ومحمد يطلبون العلم في (تريم) ، وأنت جالس هنا عند أمك تأكل وتلعب ، ولسان حالك يقول ـ وأنشدت هـٰذا البيت ـ :

ألا يَمَّـهْ خـذينـا وارغبـي فِيَّـهْ   أنا للعيش لقَّامِ أنا للعلم ما فِيَّه[1]

وذلك علىٰ سبيل التوجيه والوعظ من تلك الأم الحنون المربية الصالحة ، ومن ذلك القلب المخلص ، فما كان من الحبيب علوي ـ علىٰ صغر سنه ـ إلا أن حل ذلك القول وتلك الموعظة . . في أعماق قلبه الطاهر ، فبكىٰ حتىٰ أنتحب ، فسمع صوته والده الجد سقاف ، وكان قد أسن ، فأخذته الرقة والشفقة الأبوية ، وسأل عن سبب بكائه ،

---

(١) يَمَّهْ : يا أمي ، وفيَّه : أصله فيَّ ، أتصلت به هاء السكت ، وكسرت الياء . ولقّام : ينطق بكسر الميم . والبيت من الشعر الحميني ، أي : الشعبي .

فأخبرته والدته بما حصل ، فأنطق الله الحبيب سقاف بالبشرىٰ لها بأنه سيجتهد في طلب العلم ، وسيكون من العلماء ، ثم نفث في فمه ودعا له ، وقال له : إنني قد كبر سني ، وأضعفتني الشيخوخة ، وسأذهب بك إلىٰ الشيخ محمد هليلٍ ليقوم بتدريسك في علم النحو ، والشيخ المذكور من تلاميذ الجد سقاف والآخذين عنه .

وقد ذهب الجد سقاف بآبنه علويٌّ إلىٰ الشيخ المذكور وقال له : أريد منك أن تعتني بتعليم آبني علويٌّ وتدريسه ، ففرح الشيخ محمد ، وقال : سأعتني بتعليمه وسيستقبل أخويه حسناً ومحمَّداً في ساقية البلاد[1] عند عودتهما من (تريم) ، وسيطرح عليهما أسئلةً ويباحثهما فيها ، ففرح الحبيب سقاف من الشيخ المذكور ودعا له .

وقد آستمر الحبيب علوي بن سقاف في الدراسة عند الشيخ محمد هليلٍ وغيره ، ويوم وصول أخويه حسنٍ ومحمَّدٍ عائدين من (تريم) ، بعد أن مكثا بها برهةً من الزمن لطلب العلم والأخذ عن الشيوخ الموجودين فيها ، خرج أخوهما الحبيب علوي إلىٰ ساقية البلاد لآستقبالهما ، وطرح عليهما أسئلةً علميةً وباحثهما فيها ، ومن ضمنها هٰذا البيت :

إن أبـــاهـــا وأبـــا أبـــاهـــا   قـد بلغـا فـي آلمجـد غـايتـاهـا

وما يتعلق به من الإعراب والأبحاث النحوية المذكورة في كتب النحو .

---

(١) هي المسيل المعروف ، الذي يجري فيه سيل وادي جثمة ، ويخترق مدينة (سيون) من الجنوب إلىٰ الشمال ، وكان ينتهي عنده عمران (سيون) من الجهة الشرقية في ذلك الزمن ، أما اليوم فقد آتسع العمران وآمتد شرقاً مسافة عدة كيلوات .

وهٰكذا تعطي هٰذه القصة أنطباعاً جلياً ، ومعبراً عن مدىٰ ما كان عليه أولئك الأسلاف والأجداد من الجد والاجتهاد في طلب العلم وتحصيله وتقديمهم له علىٰ غيره ، وأنه نقطة الانطلاق التي ينطلقون منها في السير إلىٰ الله ، وابتغاء مرضاته وهٰذه هي المناقب التي يجب أن تسجل وتسطر بماء العيون وليس بماء الذهب :

هٰذا ٱلجِمالُ لا جِمالُ خَيْبَرْ   هٰذا أبرُّ ربَّنا وَأَطْهَرْ

شيوخه الذين أخذ عنهم :

في مقدمة شيوخه والده الإمام العظيم الحبيب سقاف بن محمد ، فقد تقدم أن جُلَّ أخذه عنه ، وقد لازمه ملازمةً تامةً ، وقرأ عليه الكثير ، وقد تفانىٰ صاحب الترجمة في تعظيم والده وإجلاله وملازمته وخدمته بما يفوق الوصف .

ولنستمع إليه وهو يصفه ، فيقول : ولا شك أن الأخلاق التي خصه الله بها هي أخلاق الصوفية جميعها لم يكن خلق من أخلاقهم إلا وقد حازه ، ومن تتبع أحواله وأخلاقه ، وأمعن النظر بعين البصيرة النافذة . . عرف ذلك ، وكنت أتفكر في ذلك غاية التفكر عند ملازمتي له ، وأتأمل في من رأيته من مشايخه وأقرانه فلم أر من هو علىٰ شاكلته ومنواله في أموره وأحواله وأفعاله .

وكنت كتبت للأخ علوي . . جواب رسالة منه ، وذكرت فيها بعد تأملي لأخلاق سيدي الوالد . . هٰذه العبارة : ولو قيل إن للأولياء ختاماً كالأنبياء . . لكان سيدي الوالد .

وبعد ذلك وقع في قلبي أني تجاسرت علىٰ كلام لم أسبق إلىٰ مثله ،

وبقي ذلك يحز في قلبي ، وبعد وفاته بخمسة أو ثمانية أيام . . خرجنا ـ نحن وسيدي حامد بن عمر ـ إلىٰ (مَدودة) عند بعض المحبين ، فحين جلسنا نظر سيدي الحبيب حامد إليَّ وقال : يا حسن . . إنْ معك كتاب آقرأ ، ولم يكن معي كتاب ، فوجدت كتاباً في رف المنزل الذي نحن فيه ، فأخذته وفتحته ، فأول ما وقع نظري فيه علىٰ هـٰذه العبارة في أثناء كلام عن الفقيه المقدم ، وهي : (ولو قيل للأولياء ختام كالأنبياء . . لكان الفقيه المقدم) .

وكان الخاطر المذكور يجول ببالي قبل القراءة ، فعرفت صدق ما قلت، وآطمأن قلبي ، والأمر فيه أعظم مما قلت ، وشواهده معلومة .

قال المترجم له : ولما عزمت مع بعض الإخوان في الله علىٰ زيارة الشيخ محمد بن ياسين باقيس بـ (حَلَبون) ، من بلاد (دوعن) ، للأخذ عنه طلبت من سيدي الوالد سقاف الوصية ، فكتب لي هـٰذه الوصية النافعة الكافية ، وفيها جل أخلاقه ، ويلوح لك من خلالها عظيم حاله إذا تأملتها بعين البصيرة ، وأمعنت النظر فيها . . يظهر لك حاله وصفاته .

قال المترجم له : أرجو أن يرزقني الله الانتفاع بما فيها ، والعمل بها ، وأن تشملنا جميعاً بركة دعائه ، فهي من أعظم الوصايا وأنفعها في سلوك طريق أهل الله .

قال جامع الترجمة : وقد حرصت علىٰ إيراد هـٰذه الوصية النافعة ضمن هـٰذه العجالة ، لما في ذلك من عظيم الفائدة ، ولما في ذلك أيضاً من الدلالة علىٰ وثيق الارتباط ووفير الأخذ الحاصلين للمترجَمِ له من والده الإمام سقاف .

وهـٰذا نص الوصية المشار إليها :

وصية الحبيب سقاف لابنه الحبيب حسن

بسم ٱلله ٱلرحمـٰن ٱلرحيم ، وهو الفتاح العليم ، سبحانك . . لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، من يهد الله فهو المهتدي ، أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو علىٰ نور من ربه ـ والنور هو العلم ـ كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها وهو الجهل ، أفمن كان علىٰ بينة من ربه ، والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا .

والحمد لله حمداً يوجب المزيد ، وأشكره شكراً لأكون لبقاء نعمه مستفيد ، والصلاة والسلام علىٰ من ٱصطفاه ، وٱختصه من سائر العبيد ، وعلىٰ آله وصحبه ما تكرر جديد بعد جديد ، وعاد عيد بعد عيد .

أما بعد : أيها الأولاد السادة الأمجاد ، الطالبين للهدىٰ والرشاد ، الراغبين في مسلك أهل النور والسداد ، حقق الله لكم نجح المطالب ، وحماكم عن النقائص والمثالب ، وصرف عنكم الآفات والمعاطب ، وجعلكم من السادة القادة ، الحائزين لقصب الفوز والسعادة ، فإنكم ٱلتمستم مني مع تجرد الهمة المصحوبة بالقبول ، البالغة نهاية السؤل والمأمول ، لقصد زيارة الأولياء ، والالتماس لبركة الأموات والأحياء ، والاقتباس من أنوارهم ، والالتماس من أسرارهم . . أن أسعفكم بوصية تنتفعون بها وتبصرةٍ قد تستبصرون بها ، ولست بأهل لذلك ، وإنما أنا جدير بالالتماس والاستبصار من أهل النور والهدىٰ والجود والندىٰ ، وإنما مثلي في ذلك مثل من قيل فيه :

تصفُ الدَّواءَ لِذي السَّقام وذِي الضَّنىٰ كَيما يَصِحُّ بِهِ وأَنتَ سَقيمُ

وكما جاء في حديث الإسراء ، قوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم :

« **مررت بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقالوا : كنا نأمر بالخير ولا نأتيه ، وننهىٰ عن الشر ونأتيه** »(١) .

أو كما قال القائل :

يا أيها الرجلُ المعلمُ غَيرَه هلا لنفسِك كان ذا التعليمُ
إبدأ بنفسِك فانهَها عن غيها فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حكيمُ
لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلَه عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

.. إلى آخر الأبيات .

ولكن بحسب نيتكم الصالحة ، وحسنُ ظنكم بي ، وسترُ الله الجميل عليّ ، أوجب الإشفاق والمعاونة علىٰ البر والتقوىٰ بحسب الإمكان ، وإرشاد الطالبين ، والاستمداد للفتح من رب العالمين ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، ومنه أستمد ، وعليه أعتمد في نجح المطالب لي ولكم ولكل طالب .

أما بعدُ : فأولُ ما أوصيكم به في سفركم هٰذا ـ ونرجو أن يكون سفراً إلىٰ الله ـ أن تصححوا النية ، وتحرروها بالصدق والإخلاص ، وأن يكون منتهىٰ قصدِكم طلبُ الاستفادة والإفادة ، والتعرضُ للنسمات والنفحات ، والنظرُ والاعتبار ، وطلبُ المزيد من العلم والعمل ، وتركُ الفضول والتُرَّهات ، والبطالات والرسومِ والعادات ، والقيلِ والقال ، والمِراء والجدال .

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في « مسنده » (٣/ ١٢٠) .

وأوصيكم بأن تحافظوا علىٰ الصلاة أول وقتها مع الجماعات ، والأذان برفع الصوت إذا كنتم بغير بلد ، والمحافظة علىٰ الأوراد مع الحضور ، وصدق الرغبة ، وحسن الظن بالله ، والاعتماد عليه ، والثقة بما لديه ، والإياس مما في أيدي الناس ، ورفع الهمة والغنىٰ بالله ، وإن ساق الله إليكم رزقاً من غير إشراف نفس . . فٱقبلوه ، وٱشكروا الله عليه والواسطة ، ولا يكون همكم التفكر في الرد والقبول ، وأحسنوا الظن بالله وبعباد الله ، وٱجتنبوا مواضع الرِّيَبِ ، والتمسوا ما عند الله ، وٱبحثوا عن أهل الخير ، وٱلتمسوا منهم المصلحة وتذللوا ، وأحسنوا الأدب ، وجانبوا الهوىٰ والصخب ، وأشعروا قلوبكم خوف الله ، ولا تأمنوا مكر الله ، وتحلوا بمكارم الأخلاق ، وتخلَّقُوا بها ، وجانبوا سَفسافَها ، وطهروا قلوبكم من الرياء والنفاق ، وسوء الأخلاق ، والعجب المحبط ، والحسد المهلك ، وكونوا ـ كما وصف الله أهل الجنة ـ إخواناً ، وٱصبروا وصابروا وٱتقوا الله لعلكم تفلحون ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتق الله يجعل له من أمره يُسْراً . إن الله مع المتقين . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

والحذرَ الحذرَ كلَّ الحذر من الاختلاف فيما بينكم ، والمجادلة والخصام ، ٱجمعوا قلوبكم ، وٱهضموا نفوسكم ، وٱستعينوا بالله ، وٱنتصروا بالله عليها ، وبالعلم وبتوفيق الله .

بارك الله لكم في القرآن ، ورزقكم فهم معانيه ، والعمل بما فيه ، وجعلكم من العلماء العاملين ، وفتح لكم فتوح العارفين ، ونور قلوبكم ، وشرح صدوركم ، وما ذلك علىٰ الله بعزيز .

والله الله ثم الله الله في الدعاء لنا في الأماكن المأثورة ، وعند ضرائح الأولياء ، وبحضرة الشيخ سعيد ، فوالله ثم والله إني لأحوج الناس إلىٰ الدعاء ، وأفقرهم إلىٰ ذلك ؛ لأن ذنوبي تملأ البراري والبحار ، ولولا حسن ظني في الله . . لأيقنت أني من أهل النار ، ولٰكن رحمته وسعت كل شيء ، وعفوه شامل .

اَللهم . . مغفرتك أوسع من ذنوبنا ، ورحمتك أَرْجَىٰ لنا من أعمالنا ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، يا غافر الذنوب اْغفر ذنوبنا ، ويا ساتر العيوب . . استر عيوبنا ، يا أللهُ . . ما لنا غيرك ، ولا غير بابك باب ، وإذا لم تقبل إلا المخلصين . . فمن للمخلطين ، وإذا لم تغفر إلا للقائمين . . فمن للمقصرين .

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

رزقنا الله ـ وإياكم ـ التوبة الصادقة الخلصاء ، وأنقذنا ـ وإياكم ـ من بحار الذنوب المغرقة ، بجاه النبي المختار ، وآله وصحبه الأطهار ، والأولياء الأبرار ، وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمد نور الأنوار ، وسر الأسرار ، وبجاهه تمحىٰ الذنوب والأوزار ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولىٰ ونعم النصير وأستغفر الله لي ولكم ، ولوالدينا ، ولجميع المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

وأخذ المترجَمُ له عن مَن أدركهم من شيوخ والده ، وأقران والده ، ومعاصريه الذين ذكرهم وترجم لهم في المناقب .

فممن أخذ عنه من شيوخ والده الإمام العلامة الحبيب عليُّ بن عبد الله السقاف ، فقد ذكر المترجم له أنه أخذ عنه ، وذكر أنه كان يتردد

إليه منذ صغره ، ويهدي إليه البَيْضَ ، فيدعو له الحبيب علي بهذه الدعوة العظيمة ، وهي : (بيض الله وجهك يا حسن) ، وأدرك من حياته نحو عشرين سنة ، وجالسه كثيراً ، ورافقه في بعض زياراته لـ (تريم) ، وترجمه ترجمةً مُوَسَّعةً ، ذكر فيها كثيراً من مناقبه ضمن هذه المناقب .

ومما ذكره عنه ـ أثناء إيراده لجمل من كلامه النفيس ـ قولُهُ : وكان يقول ـ من شدة تعظيمه للقرآن والحديث الشريف ـ : لا يصلح أن يقرأ القرآن والحديث من لم يعرف علم العربية ، وكان إذا غلط القارىء وهو في الصلاة يضرب بيده ضربةً عنيفةً ، لكنها لا تبطل الصلاة ، وتنبه القارىء .

قال : ولا يَقرأُ بحضرته إلا الماهر في القراءة .

ورتب علىٰ نفسه في آخر عمره ورداً يومياً من تلاوة القرآن ، نحو ربعه أو يزيد ، يقرؤُه في الصلاة ، وأحد أولاده يقص في المصحف ، فلما كان دأبه القرآن والعلم مع الأدب الكثير . . جازاه ربه بأن لا يفارقه القرآن والعلم في برزخه ، فكان ضريحه بجوار مسجده الذي لا يفارقه القرآن آناء الليل والنهار ، وكانت قُبَّتُهُ مَقرّاً للدروس العلمية ، كما هو معلوم ومعروف .

ومن شيوخ صاحب الترجمة الإمام العلامة الحبيب حسن بن عبد الله الحداد ، أخذ عنه وكان يأتي إلى تريم لزيارته والأخذ عنهُ . وذكر أنه مرةً أتىٰ مع أخيه علوي لزيارته في وقت الضحىٰ ، قال : فطلب الأخ علوي ماءً ليوهم أننا قد أكلنا ، وهو ليس عطشانَ ، وقصده أن لا يكلف الحبيب ، فقال الحبيب حسن : تشرب أو لا تشرب ـ يا علوي ـ ما عندنا غداء اليوم ، مكاشفةً منه ليكون علىٰ حزم مع أولياء الله .

ومنهم الشيخ محمد بن ياسين ساكن (حَلَبون) من بلاد (دوعن) ، فكان يذهب من (سيون) إلىٰ (حَلَبون) لزيارته والأخذ عنه .

قال : ومرةً عزمت علىٰ الذهاب لزيارته ، فقال لي الأخ حسن بن علي : إذا وصلت إلىٰ حضرة الشيخ محمد.. أذكر مشائخَكَ . قال : فعجبت من هـٰذا الكلام ، وقلت في نفسي : ما عندي أحد أكبر مقاماً ولا حالاً من سيدنا الحبيب.. علي بن عبد الله ووالدي سقاف ، فلما وصلت إلىٰ حضرة الشيخ.. رأيت عليه من الهيبة والجلال أمراً عظيماً ، ففطنت لكلام سيدي الأخ حسن .

قال الجد حسن : وكان والدي سقاف هو الذي أشار علي بالذهاب إلىٰ الشيخ المذكور ، وزيارته والأخذ عنه .

قال : وكان الشيخ محمد المذكور.. كثير المجاهدة ، عظيم الحال ، وكان يذهب إلى (الشحر) ويقيم دروساً فيها ، وكان له جاذبية يجذب المريدين ، من رآه آمتلأ به ، وآنجذب إليه . اهـ .

وممن أخذ عنهم من أقران والده : الإمام العلامة الحبيب حامد بن عمر بن حامد ، أخذ عنه وقرأ عليه كثيراً .

وكان الحبيب حامد من أخص خواصّ الجد سقاف ، وللجد حسن تعلق بالحبيب حامد ، وأخذ عنه كثيراً ، ويعده من أكابر شيوخه .

ويذكر سيدي الوالد أنه لما توفي الجد سقاف.. جاء الحبيب حامد مع الوفاة ، وبقي بـ (سيون) مدةً يواسي أولاد الجد سقاف ، ويرتب أمورهم ، ويرتب الدروس التي كان الجد سقاف يقوم بها .

قال : ولما كان عائداً إلىٰ (تريم) بعد أن رتب الأمور واطمأن

عليها ، وكان يمشي قدام مركوبه بعض محبيه وخدمه وكان رجلاً صالحاً ، له تعلق شديد بأهل البيت .

فقال له الحبيب حامد : يا مُحِبُّ ، فلانٌ . . ما تقول في أولاد الحبيب سقاف ، والسر مع من منهم ؟ فقال ذلك المحب الموفق : يا حبيبْ حامدْ . . أولاد الحبيب سقاف ختمة ٱنقسمت أرباعاً ، تُفضِّلُ منها شيئاً علىٰ شيء ؟ فقال الحبيب حامد : صدقت ، وفرح منه .

ومنهم الإمام الحبيب جعفر بن أحمد بن زين الحبشيُّ ، أخذ عنه وتعلق به وترجمه ترجمةً وافيةً ، ذكر فيها الجانب الذي أغفله غيره من حياته ومناقبه ، وهو ٱعتناؤه بدروس العلم وإقامتها ، ومثابرته وتحقيقه فيها ، ونستمع إليه حيث يقول :

وكان يجلس للفقه بعد صلاة الصبح إلىٰ ٱستواء الشمس ، مع تحقيق كامل في علم المذهب يذاكر أصحاب درسه ، ويفسح لهم المجال ليبدي كل منهم ما عنده ، فإذا أكملهم ذكر لهم ما عنده وما فهمه ، وقد يخالفونه في بعض المسائل ، فيأتي بها من التحفة ، فيرجعون إلىٰ كلامه . اهـ .

وهٰذا هو الجانب الأهم من تاريخ حياة أولـٰئك الرجال ، وأمثالهم من الأعلام ، جانبُ المجاهدات والأعمال الصالحات الجدير بالتدوين ليقتدىٰ بهم في ذلك ، كما قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز لرسوله الكريم سيدنا محمد ، صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، بعد أن ذكر عدداً من الرسل والأنبياء ، وما لهم من أعمال ومجاهدات . . قال : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ .

قال : وكان له عناية خاصة بأولاد أَخِلاَّئِه وأصدقائه ، فهو لنا ـ

رضي الله عنه ـ كالأب الشفيق قياماً بحق الصحبة والأخوة ، يسأل عن أحوالنا وأمورنا ، الجميع ما تخفىٰ عليه أحوالنا من شدة اعتنائه ، ويقول : إنني لا أنساكم .

وإذا جئنا لزيارته.. يسألنا عن جميع أحوالنا ، حتىٰ عن الأشياء التي لا يؤبه لها ، كل ذلك وفاءً بحق الأخوة التي بينه وبين الوالد سقاف . اهـ .

ومنهم: الإمام العلامة الحبيب عمر بن زين بن سميط ، أخذ عنه ، وتعلق به ، وترجمه ترجمةً وافيةً ، جاء فيها : إمام علىٰ التحقيق ، ومحقق في العلوم أيَّ تحقيق ، اصطفاه الله بولايته ، وجعله من أهل خاصته.. إلخ .

ومنهم: أخوه الإمام العلامة الحبيب عمر بن سقاف ، أخذ عنه ، وقرأ عليه ، وتأدب معه ، وعظمه .

قال الشيخ عبد الله بن سعد بن سمير :

وقد أخذ الحبيب حسن عن أخيه الحبيب عمر ، ومن مقروءاته التي أدركته يقرؤُها عليه : تفسير الجلالين ، وله في سيدنا عمر الانطواء والاعتقاد الكلي ، كنت يوماً جالساً عنده وهو مريض ، فجاء الحبيب عمر يعوده ، فلما خرج سيدي عمر.. بقيت عنده ، فذاكر ، حتىٰ عد من أكبر النعم الانتماء إلىٰ أولياء الله.. ومعرفتهم وصحبتهم ورؤيتهم ، وقال : إن مما يجب الشكر عليه.. وصول سيدي عمر إلينا ورؤيته الآن .

وهٰكذا كان تعظيمه للشيوخ وأهل الفضل (وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه) .

وبعد أن أخذ بنصيب من العلم والمعرفة ، وتلقىٰ عن أولئك الشيوخ

الأكابر.. شرع في نشر العلم والدعوة إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فرتب دروساً منتظمةً في خلال الأسبوع.

قال الشيخ عبد الله بن سمير: وأخذ المترجم له العلوم عن أبيه وأكابر معاصريه ـ أي: معاصري والده ـ حتىٰ بلغ رتبة التصدر للتدريس، وقد أخذ حظاً وافياً من العلم النفيس، ورتب للدروس أوقاتاً موزعةً في أيام الأسبوع.

منها درس صباح يوم الثلاثاء، ومنها درس مساء السبت، بل كل أوقاته معمورة بالعلم ونشره، وقلما يجلس في مجلس إلا علىٰ قراءة ومذاكرة في العلم.

تلاميذه والآخذون عنه:

كثير هم تلامذته والآخذون عنه، فقد أخذ عنه الذين أخذوا عن أخيه عمر، وهم نخبة ذلك العصر من العلماء الأجلاء، مثل الشيخ عبد الله بن سعد بن سمير، وأقرانه ومعاصريه من العبادلة وغيرهم، الذين هم كوكبة تلك الحقبة المباركة، وفطاحلها الأفذاذ.

يقول الشيخ عبد الله بن سمير: ختمت علىٰ سيدي حسن كتاب «حلية الإمام بحرق»، وأنا صغير في منزله العامر، فدعا والدته الصالحة أن تحضر، وذاكر مع القراءة في أوصاف الجنة، وهي تسمعه وتذاكر معه، حتىٰ بكت وانتحبت انتحاباً شديداً، وانتحب هو كذلك، نفعنا الله بهما. آمين.

وهٰذا يعطي انطباعاً جلياً عن مدىٰ استغراق أوقات صاحب الترجمة في العلم وتحصيله ونشره، حتىٰ في منزله وأوقات راحته، فقد كان

العلم هو الشغل الشاغل لهؤلاء الرجال في جميع أوقاتهم وحالاتهم ، لا يفترون عنه .

وكان ـ رضي الله عنه ـ يرعىٰ تلاميذه والآخذين عنه رعايةً تامةً ، ويوجههم الوجهة الصحيحة . وهنا يذكر سيدي الوالد محمد هٰذه القصة ، وهي :

أن أحد تلاميذ صاحب الترجمة ـ وهو من السادة آل خيلة ـ حصلت عنده ضائقة مالية ، فٱستأذن شيخه الجَدَّ حَسَناً في السفر إلىٰ الهند ، وكانت ـ في ذلك الوقت ـ مهجرَ الحضارمة ، وقال السيد المذكور للجد حسن : إن هناك صديقاً محباً لوالدي وجدي ، وكانوا يعتادون إذا جاؤوا إليه . . يكرمهم ، ويقضي حاجتهم فكان الجد حسن ، لا يرخص له ، وتكرر ذلك منه مرات ، وفي كل مرة يقول له الحبيب حسن : لا أرخص لك ، وبعد ذلك ألهم الله ذلك السيد أن يقول لشيخه الجَدِّ حسنٍ : أستأذنكم في السفر لأسترزق الله ، فقال له : الآن أرخص لك ؛ لأنك توكلت علىٰ الله وقصدته ، وفي المرات السابقة ٱعتمدت علىٰ مخلوق مثلك ، وهٰذا غير صحيح ولذلك لم نرخص لك .

وهٰكذا كانت رعايته وتربيته لتلاميذه والمنتمين إليه رعايةً تامةً وتربيةً صالحةً ، ترسخ فيهم قوة الإيمان ، والثقة بالله ، وإخلاص الوجهة إليه .

قال : فسافر ذلك السيد ، ولما وصل إلىٰ الهند . . وجد ذلك الرجل الذي يعرف آباءه قد توفي ، وخلف أولاداً كالأعاجم ، وليسوا مثل والدهم فلم يستقبلوه ، ولم يلتفتوا إليه ، فأوىٰ إلىٰ المسجد ، وأثناء وجوده في المسجد . . أتوا بجنازة إلىٰ المسجد وصلوا عليها ، وكبر

الإمام في صلاة الجنازة خمس تكبيرات ، فأحدث ذلك ضجةً في الحاضرين ، فبعضهم يقول : إن الصلاة صحيحة ، وبعضهم يقول : أعيدوا الصلاة ، وكان ذلك السيد ، وهو الرجل الغريب بينهم ، في مؤخرة المسجد لا يؤبه له ، فسأل : ما هـٰذه الضجة ؟ فأخبروه بما حصل ، فقال لمن حوله : قولوا لهم إن الصلاة صحيحة ولا تعيدوها ، فأبلغوهم بأن هنا رجلاً غريباً يقول : الصلاة صحيحة ولا تعيدوها ، فأحضروه وٱستوضحوه ، فأوضح لهم المسألة وقال : نعم الصلاة صحيحة ، قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ في « المنهاج » ولو خمس لم تبطل .

فأقبلوا عليه يعظمونه ويدعونه إلىٰ بيوتهم ويكرمونه ، وأقاموا له المآدب ، وأكرموه بالعطايا الكبيرة ، فعاد إلىٰ وطنه في مدة قريبة ، وأخبر شيخه صاحب الترجمة بما حصل له ، وشكره علىٰ رعايته وتوجيهه له الوجهة الصحيحة .

ولا شك أن هـٰذه القصة تعد من أعظم مناقب صاحب الترجمة ، وكراماته التي ينبغي أن لا يفوت كُلَّ من أراد أن يكتب عنه ذِكْرُها ، وتسجيلُها في سجل مناقبه الحافل .

ومن أجل من أخذ عن صاحب الترجمة أبناه الفاضلان عبد الله وعبد الرحمـٰن فقد أخذا عنه ، وقَرَآ عليه ، وقرت عيناه بهما .

مؤلفاته :

من أعظم مؤلفاته ، بل هو أعظمها : كتاب « **نشر محاسن الأوصاف في مناقب الحبيب سقاف بن محمد السقاف** » .

هـٰذا الكتاب الجامع النافع ، الذي جمع فيه فأوعىٰ ، وحفظ فيه

للأجيال مناقب هٰذا الإمام والده العلامة ، العارف بالله نسيج وحده ، وفريد عصره .

ويكفي في التعريف بهٰذا الكتاب العظيم . . ما قاله الإمام الداعية الكبير الحبيب أحمد بن حسن العطاسُ ، في مجموع كلامه ، وهي كلمة إشادة عظيمة من هٰذا الإمام العظيم ، وتعد بمثابة التقريظ والحجة البالغة ، وهٰذا نص تلك الكلمة :

أحسن ما كان في مناقب سلفنا الجميعِ ، مناقب الحبيب سقاف ؛ لأنها قولية وفعلية ، وكل كتاب وضع للجمع . . لا تعولوا عليه ، وكل كتاب وضع للنفع . . فعليكم به . اهـ .

وعند قراءتي علىٰ الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف في كتاب « **نشر محاسن الأوصاف** » المذكور ، يذكر الحبيب عبد القادر كلمة الحبيب أحمد بن حسن العطَّاسِ ، الآنفة الذكر ، ويعظم شأنها كثيراً ، ويقول إنها بمثابة تقريظ عظيم لهٰذا الكتاب القيم ، ويقول الحبيب عبد القادر : نوصي كل من عنده نسخة من هٰذا الكتاب ـ أي مناقب الحبيب سقاف ـ أن يكتب كلمة الحبيب أحمد بن حسن العطاس عليها ، وقد كتبت هٰذه الكلمة علىٰ نسختي ، بعدما سمعت وصية الحبيب عبد القادر بذلك ، وبلغت كثيراً من الإخوان بما قاله الحبيب عبد القادر ، فكتبوا تلك العبارة علىٰ نسخهم .

ومن مؤلفات المترجم له : كتاب « شرح حديث جبريل » ، وقد أطال فيه في متعلقات الصلاة الباطنة ، كماذكره الشيخ عبد الله بن سعد بن سمير ، ولم أقف علىٰ هٰذا الكتاب القيم ، وعسىٰ أن نوفق للحصول عليه ، وأن لا يكون مما أضاعته يد الزمن من كتب أسلافنا

وشيوخنا الأجلاء ، وتراثهم العلمي .

ومن مؤلفاته : رسالة قيمة في التهذيب والترغيب ، وهي وصية جامعة نافعة ألحَّ عليه بعض مريديه وتلاميذه في طلبها ، فألفها موصياً إياهم بما حَوَتْهُ ، وهي نافعة لكل من وفقه الله لقراءتها أو سماعها ، مع العمل بها ، ولكل من ألقىٰ السمع وهو شهيد ، وهي موجودة ومرفقة بكتاب المناقب المسمىٰ : « نشر محاسن الأوصاف » الذي هو بين يدي القارىء الكريم .

وله منظومة مديحة في والده الحبيب سقاف ، تعبر عن عظيم انطوائه في والده الإمام العارف بالله ، وتدل ـ هي وكتاب المناقب هٰذا ـ علىٰ شدة تعلقه وارتباطه به ، وملازمته له وكثرة أخذه عنه وانتفاعه به ، ونقتطف من تلك المنظومة بعض الأبيات ، نوردها هنا :

مقتطفات من مديحته في والده

لك ٱلحمدُ يا مستوجبَ ٱلحمدِ دَائِماً ... علىٰ كل حال ليس يُحْصَرُ بٱلعدِ
وسبحانَ رَبِّي مِنْ إلٰهٍ وخالقٍ ... تنزَّهَ عن قول وشِبْهٍ وعن نِدّ
وقصدي وسولي منك يا سيدي ٱلرضىٰ ... فأنت ٱلذي بٱلخير يا أملي تُسدي
وإني إليك سيدي متوسِلٌ ... بجاه رسول ٱلله ٱلمصطفىٰ جدي
كذا سيِّدُ السادات شَيْخٌ مُعَظَّمٌ ... إمَامٌ فَرِيْدُ ٱلوقت يا لك من فَرْدِ
إمَامٌ هُمَامٌ حاز كل فضيلة ... وأيده مولاه بٱلنصر وٱلسعد
هو ٱلعامل ٱلأوّابُ فردُ زمانِه ... فضائلُه ليستْ تُعدُّ لذي ٱلعد
وأوصافه حلمٌ وعفوٌ ورحمةٌ ... صبورٌ شكور في ٱلرخاء وفي ٱلشِدّ

لقد جاءه ٱلإيذا بضرب مُذَفِّفٍ[1] فبادر بٱلغفران فضلاً علىٰ ٱلمعدي
ولا زال يدعو للإلٰه وقربه ويمنحُنا طرقَ ٱلهداية وٱلرُشْد
فإنْ قلتَ من هٰذا فسقافُنا ٱلذي رَقىٰ فٱرتقىٰ حتىٰ أتىٰ حضرةَ ٱلعِنْد
فيا سادتي جُودوا ومُنّوا بنفحة فإني علىٰ عهد ٱلمحبة وٱلود
رجائي بأن أُدْعَىٰ سَعِيْداً بحبِكم وأَني سعيدُ ٱلحظ في سابقِ ٱلعهدِ

بناؤه للمسجد المبارك :

ومن مآثر صاحب الترجمة الخالدة : مسجده المبارك الذي أسسه وبناه بإشارات ربانية سلفية ، وتحقيقاً وتنفيذاً لنية والده الإمام العارف بالله ، الذي كان ينوي بناء هٰذا المسجد في نفس الموقع ، ولم يقدر الله تنفيذ ذلك . . إلا علىٰ يد ٱبنه البار صاحب الترجمة ، وعمل الابن في صحائف والده ، وهو ثمرة نيته الصالحة .

ذكر المترجم له أن والده الحبيب سقاف نوىٰ أن يبني مسجداً في تلك البقعة التي بنىٰ ٱبنه الجد حسن مسجده هٰذا فيها ، وكان بعض المجاورين لتلك البقعة أراد أن يبنيها ويلحقها بداره ، فٱستأذن الحبيب سقاف في ذلك ، فقال له : مرادنا أن يكون فيها مسجد ، فعدل ذلك الرجل عن رأيه ، وبقيت هٰذه النية مع الحبيب سقاف إلىٰ أن توفي .

ثم حصلت مَراءٍ صالحةٌ ، كلُّها تبشر ببناء المسجد في تلك البقعة ، فقد ذكر بعض الصالحين للجد حسن أنه رأىٰ مسجداً بني فيها ، وكذلك رأىٰ المعلم عبد الله بن عبدِ الرحمـٰن بارجاءٍ نفس الرؤيا ، كما رأىٰ

---

(١) قاتل مزهق .

السيد سالم بن عبد الله مولىٰ خيلة تلميذ الجد حسن أنه رأىٰ المسجد مبنياً في تلك البقعة لبنةً بيضاء ولبنةً خضراء ، كما رأىٰ بعض الصالحين المنورين عيناً نبعت وفاضت من كل الجوانب في البقعة المذكورة .

قال الجد حسن : فوقع في خاطري أن هٰذه المرائي كلَّها تدل علىٰ القبول في بناء ذلك المسجد ، قال : فتجدد عندي العزم ، ومضت فترة لم أبدأ فيها ، فرأيت سيدي الوالد ـ رضي الله عنه ـ في المنام يسير قدامي ، يدي في يده ، حتىٰ وصل بي إلىٰ البقعة المذكورة ، يريد بذلك أن أجدد الهمة في بناء المسجد ، وأن أبرزها ببنائه ، فأيقظني من هٰذه الرؤيا نداء يقول لي : اعزم ، أو نحو ذلك ، فوقعت العزمة ، وحصلت الهمة ، فبني ذلك المسجد ، وحصلت المعونة من الله مع خلو اليد ـ في ذلك الوقت ـ من المال ، إلا نحو أثني عشر ريالاً فقط .

وقد أخذنا طين البناء كُلَّهُ من (باطبلة)[1] مِنْ مكان سيدي الوالد ، فلا شك أن ما حصل هو نيته وكرامته ، وبئر المسجد المذكور كان قد حفرها سيدي الوالد سقاف ، وبه تعرف ، وإليه تنسب ، يقال لها : سقافة ، فهٰذه نيات الأكابر تجدي وتثمر حتىٰ بعد موتهم .

وقد بلغ الحبيبَ حامدَ بنَ عمر عزمي علىٰ بناء المسجد ، وعندما ٱلتقيت به ذاكرني في ذلك ، فذكرت له ما حصل ، فقال : أعزم علىٰ ما نويته .

وذكرت ذلك أيضاً للحبيب عمر بن سميط ، فسكت في حال الساعة ، وفي اليوم الثاني ٱبتدأني من تلقاء نفسه ، وقال : أعزم ، ولٰكن بشرط أن تنويَهُ للتعبد مثل مسجد الشيخ عبد الرحمٰن السقاف ،

---

(١) كان يعد سابقاً من مصايف مدينة (سيون) ومن ضواحيها، أما اليوم فهو حي من أحيائها .

والشيخ عمر المحضار ، وغالب بقية السلف ، ينوون مساجدهم لخلواتهم لا للمخالطة ، وبشرط آخر وهو : أن يكون علىٰ ساريتين فقط .

وعند البناء أردنا أن نجعله علىٰ ثلاث سواري ، فمنع من ذلك بعض الجيران ، قائلاً : إن ذلك يضيق عليه ، وكان من أهل الصدق ، فأمتثلت ذلك وأنا غير راض به ، ثم تذكرت كلام سيدي الحبيب عمر بن سميط ، فأنشرح لذلك صدري .

وسمعت سيدي الوالد محمَّدَ بنَ هادي السقَّافَ يذكر أن بعض جيران مسجد الجد حسن أساء الأدب علىٰ الجد حسن ، فعاجلته العقوبة ، وذلك أن الرجل المذكور ، وكان من قبيلة يقال لهم : آل الشهابي ، وكانوا أصحاب ثروة وتجارة كبيرة في ذلك الوقت ، حتىٰ إن دفاترهم ينقلونها في زنابيلَ كبيرة من كثرتها ، وكان لذاك الرجل دجاج ، وكانت الدجاج تطير من مأواها ـ أي قفصها ـ الكائن في بيته إلىٰ المسجد فتقذره ، فكلمه الجد حسن ، وطلب منه أن يحول قفص الدجاج إلىٰ جهة أخرىٰ من البيت ، لئلا تطير إلىٰ المسجد وتقذِّرَهُ ، وذكره بحرمة المساجد ، وأنها بيوت الله ، وتجب المحافظة عليها ، وصيانتها مما لا يليق بها ، فقال ذلك الرجل الشقي : لن أحولها ولن أمنعها ، وأنت تعديت ببنائك لهـٰذا المسجد في هـٰذه البقعة ، لأننا نريدها مطرحاً لماء رُشَبِنا[1] ، هـٰكذا قالها بكل وقاحة ، فقال له الجد حسن : إن الله سينتقم منك ، وهـٰذا البيت الذي تسكنه سيملكه أحد أولادي .

فكان الأمر كذلك : أنتقم الله منه عاجلاً بسبب جرأته ، وأنتهاكه لحرمة بيت الله ، وسوء أدبه مع أولياء الله ، فلم تمض إلا مدة قصيرة

---

(١) جمع رُشْبة : وهي الآلة التي يدخن بها التنباك .

حتىٰ مات هو وجميع من في البيت من أسرته ، واحداً بعد واحد ، ولم تبق منهم عين تطرف ، وأغلق ذلك البيت ، وملكه فيما بعد الجد حسنِ بن عبد الرحمـٰن حفيد الجد حسنِ بن سقاف صاحب المسجد ، نسأل الله العافية والسلامة من الطغيان وسوء الأدب مع أولياء الله ، والصالحين من عباده ، ونسأله ـ تعالىٰ ـ الهداية إلىٰ سواء السبيل .

ومن تواضع المترجم له وإيثاره للخمول : أنه لا يعمل ختماً لمسجده في إحدىٰ ليالي رمضان ، كما يعملون في المساجد الأخرىٰ ؛ لأنه لا يريد الظهور ، ويؤثر الخمول الذي هو خلقه ودأبه ، وٱستمر الحال علىٰ ذلك مدة حياته ، وفترةً بعد وفاته .

ثم رأىٰ بعض الصالحين في المنام ٱحتفالاً يقام ليلة عيد الفطر ، فوق فضاء مسجد الحبيب حسنِ بن سقاف ، وسمع الطبول والدفوف تضرب في ذلك الاحتفال ، فسأل عن ذلك ؟ فقيل له : إن ٱحتفالاً يقام للمسجد ، لأنهم لم يعملوا له ختماً كبقية المساجد ، فبعد ذلك أقيم الاجتماع لقراءة قصة المولد النبوي بالدفوف ، في المسجد المذكور ، ليلة عيد الفطر بسبب تلك الرؤيا ليكون عوضاً عن الختم الذي يقام في المساجد الأخرىٰ في شهر رمضان .

توسعة المسجد المذكور وتجديده على نفقة السيد علي بن عبد الله بن حسن حفيد المؤسس :

ٱستمر هـٰذا المسجد المبارك يؤدي رسالته ، عامراً بالعبادة والتعليم ، والدعوة إلىٰ الله ، والدروس النافعة بحجمه الصغير ، الذي بناه عليه المؤسس صاحب الترجمة .

ثم عزم علىٰ توسعته وتجديده علىٰ نفقته أحد أحفاد المؤسس ، وهو

السيد الفاضل عليُّ بن عبد الله بن حسن السقاف ، وهو من المغتربين في بلاد (أندونيسيا) الموسرين نسبياً .

ولكون الجد هادي آنذاك هو عميد أسرة آل حسن بن سقاف ، وعالمها وشخصيتها البارزة ، وهو القائم بعمارة المسجد المذكور بالدروس صباح مساء ، بالإضافة إلىٰ المثابرة علىٰ الصلوات ، وإقامة الجماعة فيه ، وعمارته بالتلاوة والعبادة . . ٱستشاره السيد عليُّ بن عبد الله المذكور في عزمه علىٰ توسعة وتجديد مسجد جدهم حسن هٰذا ، فوافقه الجد هادي علىٰ ذلك ، وبارك هٰذه الهمة ، وأيد تلك العزمة ، وشرط علىٰ المذكور أن يرصد أولاً جميع المبلغ الذي سيصرف في مشروع التوسعة والتجديد ، قبل الشروع في العمل ؛ لئلا يشرعوا في الهدم والتعمير ، ثم تقصر بهم النفقة ، فٱستجاب السيد علي المذكور لإشارة الجد هادي ورأيه الحصيف ، وحضر كامل المبلغ الذي يحتاجه المشروع ورصده بٱسم المسجد ، وبدأ العمل في عمارة المسجد علىٰ بركة الله ، وإخلاص القائمين علىٰ ذلك .

وفي أثناء مدة التعمير في المسجد . . توفي السيد عليُّ بن عبد الله الممول للمشروع ، وٱتضح سر ٱحتياط الجد هادي ، وبُعْدُ نظره ، والحكمةُ في ٱشتراطه علىٰ السيد عليٍّ أن يحضر كامل المبلغ ، ويرصده بٱسم المسجد قبل الشروع في العمل ، رضي الله عن ٱلجميع .

وقد سار العمل في المشروع علىٰ النحو التالي : هدم البناء القديم ، وتمت توسعة مساحة المسجد توسعةً كبيرةً ، أضعاف ما كان عليه من قبل ، وبني بناءً حديثاً محكماً بالنسبة لذلك العصر ، وكان الممول المذكور قد ٱشترىٰ بعض البيوت المجاورة للمسجد ، وأدخلها في التوسعة .

ومن التوسعة : الحائط الذي يقع الآن شرقي المسجد ، وينصرف

إليه ماء جوابي المسجد المستعملُ في الوضوء ، فقد ٱشترىٰ المذكور الديار التي كانت في ذلك الموقع ، وهدمها وغرس أرضها نخلاً يسقىٰ بذلك الماء ـ أي : ماء الوضوء والجوابي ـ وجعل ذلك تابعاً للمسجد ، وكانت مساحة المسجد سابقاً صغيرةً جداً .

وقد تم إكمال عمارة المسجد حسب الخطة المرسومة لذلك ، والحمد لله ، وجزىٰ الله أولـٰئك المحسنين خير الجزاء ، وتلك العمارة هي الموجودة الآن ، والقائمة إلىٰ حال تاريخ (١٤١٨هـ) .

وقد رأىٰ الحبيب عبيد الله بن محسن السقاف رؤيا مبشرةً للسيد عليِّ بن عبد الله المذكور ، قال الحبيب عبيد الله : إنها عظيمة ، لا تتناسب مع ما يظهر من حاله ، ثم قال الحبيب عبيد الله : ولما حصل تجديد وعمارة مسجد جده حسن علىٰ نفقته . . كان هـٰذا هو تأويل الرؤيا المذكورة وتفسيرها ، والحمد لله . اهـ .

تردده إلى (تريم) وإمامته في صلاة الخسوف بمسجد باعلوي :

كان المترجم له يكثر الذهاب إلىٰ (تريم) للأخذ عن الشيوخ الموجودين فيها ، وزيارة الأسلاف هناك ، وفي إحدىٰ زياراته لـ (تريم) حصل خسوف للقمر ، وكان موجوداً تلك الساعة في مسجد باعلوي الشهير بالفضل ، فقدموه ليؤمهم في صلاة الخسوف ، لما يرون له من الفضل ، ولما له من المكانة والاعتقاد في نفوس الجميع ، فأمهم وأتىٰ بالكيفية المطولة ، وكان حافظاً لكتاب الله ، فقرأ السور الطوال : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ، وأتىٰ بالتسبيح المطول في الركوع والسجود ، حسَبما هو مقرر في هـٰذه الكيفية ، فخرج رجل من العامة من الصلاة ، وهو يقول : كل المساجد قد صَلَّوا وخرجوا من

زمان ، وبقينا نحن فقط ، وكأن القمر ما خُسِفَ إلا علىٰ الموجودين في مسجد باعلوي ، وخرج من المسجد وهو يردد هٰذه الكلمة .

أخلاقه الكريمة :

كان ـ رضوان الله عليه ـ عظيم الأخلاق ، كثير التواضع ، مؤثراً للخمول والابتعاد عن الشهرة والظهور ، مع جلالة قدره ومكانته في نفوس الناس ، عظيم الخشية لله ، عزوفاً عن الدنيا وجاهها وزينتها ، متقللاً منها ، شديد الحيطة والورع ، موطأ الأكناف ، من الذين يمشون علىٰ الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً .

وقد سبق في هٰذه العجالة ذكر بعض سيرته وأخلاقه وشمائله ، وما كان عليه من الأخلاق العالية ، والشمائل الحسنة ، وسبق ذكر بعض الوقائع الشاهدة بذلك ، مع كمال الأدب ، وكمال الاتباع للرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم وللسلف الصالح ، وهضم النفس وترويضها ، وحملها علىٰ ما يرضي الله .

وبالجملة : فقد كانت أخلاقه أخلاق جده الأعظم صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، وأخلاق أسلافه الكرام ، الذين ساروا علىٰ قدم الاتباع للرسول في جميع الأحوال حتىٰ نالوا رضىٰ الكبير المتعال . والقرب من مولىٰ بلال صلىٰ الله عليه وآله وسلم .

انتقاله إلىٰ الدار الآخرة :

وقد استمر صاحب الترجمة سائراً علىٰ هٰذا المنهج القويم ، والصراط المستقيم ، مشمراً في طاعة مولاه ، متبعاً لسنة جده الرسول ، ومقتفياً آثار سلفه الفحول ، ناشراً للعلم والدعوة إلىٰ الله . .

حتىٰ وافته المنية ، وأنتقل إلىٰ الدار الآخرة ، وهو علىٰ تلك الحالة المرضية ، فلبت روحه الطاهرة داعي ربها راضيةً مرضيةً ، وهو في مدينة (سيون) بـ (حضرموت) مسقط رأسه وموطن أجداده .

وكانت وفاته في سلخ شعبان سنة (١٢١٠هـ) ، عن عمر يناهز الخمسين عاماً تقريباً ، ودفن بجوار والده وأجداده في المقبرة المعروفة .

ولكونه يؤثر الخمول والابتعاد عن ٱلظهور والشهرة . . فقد بلغ به الحال في هٰذا المقام لدرجة أنه في يوم وفاته يقول الناس لبعضهم البعض : توفي اليوم أخو الحبيب عمر بن سقاف حتىٰ إن الحبيب أحمد بن عمر بن سميط لما سمع بذلك . . تواجد لهٰذا الحال ، وهٰذا المقام الذي تحلىٰ به صاحب الترجمة ، وقال : لا إلٰه إلا الله ، يا حسن بن سقاف . . حتىٰ يوم موتك تؤثر الخمول ، ولا يظهر ٱسمك ، ولا تعرف إلا بإضافتك إلىٰ أخيك عمر ، وٱغتبط بهٰذا الحال والمقام العظيم ، وهو إيثار الخمول وترك الظهور ، حتىٰ في حال الوفاة .

فهٰكذا كان الرجال الذين أخلصوا أعمالهم لله ، ورضي الله عن هٰذا الإمام ، وسلام علىٰ عباده الذين ٱصطفىٰ ، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

جمعها وكتبها حفيده راجي عفو ربه

حسين بن محمد بن هادي السقاف

عفا الله عنه

نشر محاسن الأوصاف

في ذكر مناقب العارف بالله قطب زمانه سيدنا الإمام

سقاف بن محمد بن عمر السقاف

تأليف

نجله الإمام المحقق الخاشع المتواضع

حسن بن سقاف السقاف

رحمهم الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٠] .

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس : ٦٢-٦٤] .

الحمد لله الذي خص عباده العارفين ، إذ جعلهم من أصفيائه وأحبابه ، وسقاهم من وداد المحبة لذيذ شرابه ، ومنحهم بما منحهم من حلاوة خطابه ، فقد حصلوا على المنىٰ بقوله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] ، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد صفوة أحبابه ، وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه .

أما بعد : فإنه لما كان حب الصالحين من أفضل القرب إلىٰ الله تعالىٰ ، وحبهم عين السعادة وبغضهم رأس الشقاوة ، وقد فسد الزمان ، وعم الجهل والطغيان ، واختلط الخبيث بالطيب ، وصار كل يدعي لنفسه الولاية ويطنب ، وهو لم يعرف بعض شروط الولاية ، ولم تلحظه بعيونها الرعاية ، وربما يزعم أنه من أهل أعلىٰ مقام ، وهو لا يعرف الحلال من الحرام ، وظن الجهال أنهم في عين الاستقامة ، ومَحْبُوُّونَ بأنواع الكرامة ، وهم خارجون عن نمط أهل الصلاح

والفضل ، وهاوون في مهاوي الاغترار لمزيد الجهلِ ، قَصَدْنا أن نذكر مناقب سيدنا ومولانا الإمام سقاف بن محمدِ بن عمر بن طٰه ؛ لنعرف أحوال الصالحين ، وما هم عليه من السلوك علىٰ المنهج المبين ، في أفعالهم وأحوالهم وأقوالهم ونياتهم ، في مأكَلِهِم ومشربهم ونكاحهم ومخالطتهم مع الخلق ، وتجملهم في ثيابهم ، وتطييبهم ، وجميع أفعالهم وأقوالهم ، وخطراتهم ولحظاتهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، وأنهم لا يعاملون إلا الله في جميع ذلك ، ولهم فيه نيات حسنة ، ومقاصد مستحسنة ، لا يطلع عليها إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، أو من أطلعه عليها ، وكيف لا يكون لهم ذلك وهم قد جاوزوا العقبات الصعبة ، التي لم يجاوزها غيرهم ، ولم يشمها ، وهي تطهير القلب من الخبائث ، كالهوىٰ والحسد ، والكذب والرياء والنفاق ، والغدر والخيانة ، والعُجُبِ والكبر ، ونقض العهود ، ومحبة الدنيا ، التي هي أعظم العقبات وأصعبها ، والبخل ، وغير ذلك من الخبائث المحبطة للأعمال ، الموجبة للبعد عن الله ، والطرد عن باب الله ، وتخلقوا بعد إخراج ذلك من قلوبهم بعمارة الباطن بالأخلاق المحمودة ، التي هي أصل السعادة ، كالمحبة لله تعالىٰ ، والرحمة للخلق ، والشفقة عليهم ، والنصيحة لهم ، والتودد إلىٰ الفقراء ، والرقة علىٰ الضعفاء والمساكين ، وبذل الجاه في حوائجهم ، والسعي في أغراضهم ، والحلم والصفح عن عثراتهم ، وبذل المعروف لجميعهم ، لاسيما للأقارب والإخوان والجيران ، ومعرفة الفضل لهم ، والتوقير لكبيرهم والرحمة لصغيرهم ، والسخاء والتواضع والصبر ، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة ، أخلاق رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، إذ مدحه الحق سبحانه وتعالىٰ بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وإذا أردت أن تعرف الفرق بين علماء الآخرة وعلماء السوء . . فتدبر في آخر مُقْرَأ[١] من سورة الفرقانِ ، وأنظر في آخر كتاب العلم من الإحياء . . يظهرْ لك الفرق بين الفريقين ، ويتَّضِحْ لك حالك ، وكل من لم يعرف الفرق فهو في غرور ، وقد رأينا أهل زماننا ـ ونحن منهم ـ آدعىٰ ناس منهم مقامات الصالحين وأحوالهم ، ولم يعرفوا خدع النفس وغوائلها ، وباشروا ملاذ الدنيا وشهواتها الفانية ، وهم في غاية الضلال من آتباع الهوىٰ ، ومنهم من آنقضىٰ وقته وهو لا في تحصيل دنيا ، ولا فوز أخرىٰ ، ومنهم من ظفر بظواهر العلوم الرسمية ، ولم يلتفت إلىٰ حقائقها ، نعوذ بالله من ذلك ، وهـٰذا التبيان لتعرف قدر نفسك لئلا تدَّعيَ أنك من الصالحين ، وأنت من المُستَدرَجينَ ، ولتعرف أعمال الصالحين ومجاهداتهم ، ولا يلبِّسَ عليك الشيطان ، ويكفيك في هـٰذا كله كتاب الله سبحانه وتعالىٰ ، وهو الميزان الذي يطيش عليه الذر ، ولا يُخرجُكَ هـٰذا عن حسن الظن بعباد الله ، الذين لم يخرجوا عن الصراط المستقيم بآرتكاب المحارم ، وحسن الظن لا يكون إلا لمن قلل في مخالطتهم[٢] ولم يظهر له إلا خصائصهم .

وقد كان يجول بخاطري قديماً أن أذكر بعضاً من فضائل سيدنا ومولانا ووسيلتنا إلىٰ الله ، الإمامِ الأعظمِ سقَّافِ بنِ سيدنا محمَّدٍ ، ومع ذلك حصل معي التوقف لأني في غاية من القصور ، وبالذنوب معروف ومشهور ، والباطن عندي غير معمور ، وإنما يصلح ذلك لمن قال فيه سبحانه وتعالىٰ : ﴿ لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٩] .

---

(١) تطلق كلمة مقرأ على نصف ثمن الجزء من القرآن ، فيقسمون الجزء إلى ستة عشر قسماً يسمى كل منها : مقرأ ، وهو اصطلاح لهم خاص .

(٢) لعل ذلك لئلا يرىٰ البشريات فيقع في خطر الإنكار .

وكان ٱبتدائي في جمع هٰذه المناقب لثمان وعشرين خلت من شهر رمضان ، سنة خمس وتسعين ومئة وألف ، قبل وفاته بنحو نصف شهر ، وبقي معي ما ذكرته حتىٰ توفي رضي الله عنه ، فبعد وفاته ٱستنهض لذلك عزمي ، وزال ما كان بقلبي ، خوف ٱندراس مناقبه وفضائله وعلومه ومعاملاته ، ومصيرِ النهار ليلاً ، فصار ذلك كالمتوجب علىٰ كل من يختبر ذلك المقام ، مع أن فضائله وشمائله ليست تخفىٰ على الخاص والعام ، وقصدت بذلك نفسي ، ومن نحا نحوي ، لعلي أن أتخلق ببعض أفعاله ، أو أقتدي بشيء من شمائله وأقواله ، فقد فاتني شخصه وجماله ، ولم يبق معي إلا سره وخياله ، وقد مضىٰ وقتي في اللهو والبطالات والرسوم والعادات ، والمسكين مثلي من يقنع بالدون ، ولا يقنع بالدون إلا مغبُون ، كما قال الشيخ عمر بن عبد الرحمٰن السقاف :

ألا يا ناسْ هُوْ حَدْ جرىٰ له ما جرىٰ لِيْ ... سَيَبْتُ مثقالْ خَذْتِه[1] دانقاً في شمالي

ولا شك أن من ضيع الصالحين ، وقد ظفر بهم.. فقد وقع في الغبينة ، ويا لها من حسرة وغبينة ، ويقول من ضيع نفسه وغَبَنَها ، وقد ظفر ببغيتها : ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [الزمر : ٥٦] ، وأنا أقول لفراقي لسيدي وتضييعي لوقتي ما قال يعقوب : ﴿ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٨٤] .

ثم إن فضائله ومناقبه بحر لا ساحل له ، لٰكن علىٰ قدرنا نأخذُ ما يدلنا علىٰ هديه وطريقه ، لعل الله يوفقنا لنزر يسير مما أعطاه ، ولا يخيب كل متبتل إلىٰ الله عما نواه ، فحاشا كرمه أن يَقطع من قصده

---

(١) أي : أَخَذْتُ ، والبيت من الشعر الحميني ، والدانق : عملة صغيرة القيمة كالفلس .

عن الطريق ، أو يكون له عن ربه تعويق ، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : ٢٠] ، وهو كشمس أشرقت على الخلق ، وانتفعوا بها ، ولم يعلموا بقدرها إلا بعد غروبها ، كما قال الشيخ أبو بكر العدني :

فــأيُّ شمـــسٍ أنـــا ولـٰكـــنْ حتمـاً علىٰ العُمْـيِ لا تَـرانـي

وسميت هـٰذا التأليف بـ (**نشر محاسن الأوصاف في ذكر مناقب العارف بالله سيدنا سقاف ، ومن قارنه من السادة الأشراف**) ، ورتبته علىٰ سبعة أبواب وخاتمة .

الباب الأول : في ابتداء أمره ، ونشأته ، وأخذه العلوم ، وذكر مشائخه الذين أخذ عنهم ، وفيه ذكر من ساعده من إخوانه في الله .

الباب الثاني : في ذكر أخلاقه الزكية ، وشمائله المرضية ، وزهده وورعه ، وتوكله وصدقه مع ربه ، وأخذه بالأحوط في جميع أموره ، وميله عن الرخص ، وأخذه بالعزائم ، ومحبته للضعفاء والمساكين ، والرحمة بهم .

الباب الثالث : في ذكر معاملته مع ربه ، التي لا يقدر عليها إلا الخواص من خواص عباده ، إذ الشأن كل الشأن لمن منح شيئاً منها ، فإنها زبدة الأعمال ، وإن الله لا يقبل إلا حَسَن الأعمال ، كما قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] ، فقد خص الله بعض عباده بها ، ويقللون من الأعمال الظاهرة ويخفونها ، ليسلموا من المنزلة عند الناس ، ولا ينقصَ حظهم في الآخرة ، ويقال في مثل من هـٰذا حاله : ﴿ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴾ [الصافات : ٦١] .

الباب الرابع : في ذكر كراماته التي خصه الله بها .

الباب الخامس : في نقل شيء يسير من كلامه ، تبركاً به .

الباب السادس : في ذكر أوراده .

الباب السابع : في ذكر وفاته ، وما منحه الله فيها من العطايا الباهرة للعقول .

(ثم نختم) ذلك : بما يشوق إلىٰ قرب الرب ، ونعيم الآخرة ، بعد ذكر مجاهداتهم ، وبآيات قرآنية وشيء من كلام الصالحين ، ومن الأدعية القرآنية ، رجاء القبول ورجاء الفوز بالوصولِ ، وبالله التوفيق .

* * *

الباب الأول

في ابتداء أمره

رضي الله عنه ونفعنا به

الباب الأول

في ابتداء أمره رضي الله عنه ونفعنا به

كان ممن سبقت له السعادة من مولاه ، ولاحظته العناية في سره ونجواه ، تربىٰ في حجر والده العارف بالله الجد محمَّدِ بن عمر بن طٰه ، وحفظ القرآن حفظاً أكيداً ، حتىٰ بلغ سبع مرات ، كلما حفظه أعاده ، ويقول : إن والدتي إذا رأت كثرة اجتهادي شق عليها ، فربما أخذت ٱلمصحف من يدي شفقةً علي .

ثم لم يزل في الاجتهاد والترقي في الأعمال ، حتىٰ نادته مواهب القدرة الرحمانية ، بعد ملاحظة الرعاية الربانية ، فأخذ في طلب العلم والعمل علىٰ والده ، وقرأ منهاج النووي ، وبلغ من ٱجتهاده في طلب العلم أنه طالع « العباب »[1] كله في مجلس واحد علىٰ دكة دار ، وكان يروض نفسه في صغره ، فيخرج عن ٱلبلد فيأخذ من النساء الضعاف حُزَم الحطب يحملها لهنَّ إلىٰ داخل البلد ، ٱمتحاناً لنفسه وهضماً لها ، ورحمةً بضعفاء الخلق ، وكان بالليل يملأُ حيضانَ البلد التي تشرب منها المواشي ، وتفقه علىٰ والده ، ولازم مطالعة « تحفة » الشيخ ٱبن

---

(١) (كتاب العباب) : للإمام المزجد . وهو كتاب ضخم من كتب المذهب الشافعي الهامة ، وهو لا يزال مخطوطاً .

حجر ، حتىٰ كاد يحفظها وأكثر ما فُتِحَ له في منهاج الإمام النووي .

وكانت رعاية الله ـ سبحانه ـ تلاحظه من صغره ، وله من ربه تنبيهات إذا فعل ما لا يليق بشريف مقامه ، فتأخذه يد التوفيق ، وتجذبه إلىٰ أحسن الطريق ، كما قال ـ الله تعالىٰ ـ في نبيه يوسف : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] ، فرعاية الله وتوفيقه إذا لاحظا العبد.. صار في حفظ الله وحراسته ، وليس عليه بعد ذلك بأس ، وصارت راية الملك بيده كما قال الشيخ عمر بامخرمه :

ومَن رَعَتْه العِناية في المَجِيْ والذَهابْ فلا يُبالي ومن خانته لاقْدار[١] خابْ

فمن التنبيه لسيدي : أنه في بعض الأيام لبس أحسن ثيابه ، وبقي يمشي في الطريق ، فأعترضه صبي أو صبية صغيرة السن جداً بحيث لا يلتفت إليها ، وهي تقول له :

مَلْحَفه مَلحفه يا أهلَ المناديلْ والشاشْ مَلحفه مَلحفه ما عاد في القبر فِشْفاشْ[٢]

فقام سيدي في مقامه ، وعرف أن الخطاب من ربه ، ساقه إليه علىٰ لسان هـٰذه الصبية ، وأن الله يريده لنفسه ، أي : لقربه ، فخلع ما عليه من اللباس بقلبه وقالبه ، وهـٰذا التنبيه يشبه خطاب موسىٰ ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ إذ خاطبه ـ تعالىٰ ـ بخطاب : ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه : ١٢ـ١٤] ، والأولياء ورثة

---

(١) أي : لم يقدر الله له التوفيق .

(٢) الملحفة: نوع من الملابس كانوا يستعملونها. وفشفاش: أي سعة ورفاهية، أي: ليس في القبر ذلك .

الأنبياء رضوان الله عليهم أجمعين ، فخطاب الأنبياء خطاب وحي وإعلام ـ وموسىٰ آختص بسماع كلام ربه تعالىٰ من بين الأنبياء ـ وخطاب الأولياء خطاب تنبيه وإلهام .

وقد وقعت لسيدنا ـ رضي الله عنه ـ أيضاً نحوُ هـٰذه الواقعة ، أنه كان راكباً في زيارة النبي هود ـ صلىٰ الله عليه وعلىٰ نبينا وسلم ـ وقد لبس أحسن ثيابه ، وعليه عمامة طويلة العذبة ، فقام رجل لا يعرفه قدام دابته ، وآلتفت إليه ، وقال : (ولو تَهَذْبَلِتْ[1] يا الدخن والله إنْ كَلْتَكْ) ، فعلم سيدي أن ذلك تنبيه من ربه ليرده إليه ، وفي هاتين المقالتين إشارات كثيرة .

أما المقالة الأولىٰ : ففيها تنبيه إلىٰ أنه لا يلتفت إلىٰ شيء من الدنيا أصلاً ، وإن أباحه الشرع ، بل آلتفاته إلىٰ الله وقربهِ في دار كرامته ، وإلىٰ ما ينجيه من عذاب القبر وما بعده ، إذا ذكرت أن القبر هو المقر بعد الدنيا ونعيمها المنغص الفاني ، وأن الأعمال تنقطع بالموت ، وأن الأموات يتمنون الرجعة إلىٰ الدنيا ليعملوا صالحاً ، وإذا مر الأحياء بهم يغبطونهم علىٰ ذلك ، فنبهه الخطاب علىٰ العمل الصالح ، وهو الذي يكون أنيسه في القبر ، والموصل إلىٰ نعيم الأبد ولقاء الله تعالىٰ ، ونهاه عن الالتفات إلىٰ الدنيا وزهرتها ، كما قال ـ الله تعالىٰ ـ لنبيه عليه السلام : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٢٨] ، فآنظر إلىٰ الزهر في الأشجار حال كماله ، كيف تكون نضارته ؟ وكيف يرجع إذا تساقط عن شجره ؟ فمعاني أمور الدنيا ما لها حصر .

---

(١) تهذبلت : أي ظهرتَ بمظهر زائد في الحسن على المعتاد ، والله إنْ كلتك: أي ما أكلتك، فـ (إنْ) نافية .

والفهم الثاني في المقالة : أرشده إلىٰ القناعة التي من لم يظفر بها . . فقد ضيع أصل الوصول إلىٰ الله تعالىٰ ، لأن أصل السلوك إلىٰ الله الزهد في هٰذه الدنيا ، ومن لم يزهد . . أكل الحرام المحض ، والتفت إلىٰ أهل الدنيا ، وعَدِمَ الورعَ ، الذي هو عين التقوىٰ ، والقناعة هي رأس الزهد في الدنيا ، كما قال الشيخ عمر بامخرمه :

غَسِّل أيدَيك منها وَاجْلِ قلبك وقل شَاباش[1] لَكْ إذا كنتْ هذا لا تخافِ التِشُوَّاشْ

إشارة منه إلىٰ الزهد في الدنيا .

وإن قَلَّتْ بقية الأعمال . . فالقناعة هي رأس الزهد في الدنيا ، فمن لم يقنع . . لم يحصل له الزهد ، كما ألهم وأرشد في التنبيه بقوله : (ملحفه ملحفه) ، إلىٰ التقلل في جميع أحوال الدنيا ، وأَفْهَمَ تكرير ملحفه ملحفه : الحذر الحذر التعدي إلىٰ غير ما يسد فاقتك في الدنيا ، من ملبس أو غيره كائناً ما كان ، حتىٰ تذكر القبر لينجع الدواء ، إذ ذكر القبر يوحش عليك أحوالك ، ولا يهناك العيش ، فٱستَعِدَّ لما ينجيك من هوله ، وهو الأعمال الخالصة لوجهه الكريم .

وأما المقالة الثانية : التي فيها ذكر الدخن : ففيها إشارات إلىٰ أن الدخن هو الدنيا ونعيمها وما فيها ، وأنه بالنسبة إلىٰ ما أعد للمتقين في الآخرة من الطيبات لا يؤكل فَافْهَمَ أن من ٱلتفت إلىٰ الدنيا ، واطمأن بها ، وترك الأعمال الموصلة إلىٰ قرب الله ولقائه . . فإنها لا تنفعهم أحوالهم التي كانوا عليها في دار الدنيا ، ولسان مقالهم ينطق بما أخبر به الرب الكريم : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ

---

(١) أي : زَيْن أو ممتاز ، وهي كلمة هندية استعملت في الدارجة الحضرمية ، والتشواش : التشويش .

﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾ [الكهف: ٤٢-٤٤]، وتأمل هٰذه الآية بقلب منور.. تظهر لك أحوال الدنيا، وما أنت عليه فيها.

والفهم الثاني في المقالة الثانية: أن الأعمال تتفاوت في الآخرة في القبول والوصول إليه، وأن منها الموصل إلىٰ قربه، ومنها الموصل إلىٰ جنته، وأن الجنان متفاوتة ومتفاضلة علىٰ حسب تفاضل الأعمال، ومنها المقبول والمردود، وكل منها معروف، فكما أن الدخن في الدنيا لا يُفرَحُ به، ولا ينفع نفع غيره من الأقوات، ولا يأكله المترفهون في الدنيا، فالأعمال المدخولة بالرياء ومباحات الدنيا وغير ذلك.. لا تنفع في الآخرة، ولا يلتفت إليها، وإشارة الأكل ترجع إلىٰ النفع، وإذا بان لك فهم هٰذه التنبيهات والتيقظات.. فاعمل لنفسك ما هو أنفع لك في العاقبة، كما قال بعض الشعراء:

ألباقيَ اللهُ والفعلِ الجميلْ والمرءُ يَحصُدُ لما هُوَ ذارِيَه(١)

وهٰذا مني سبق قلم، وقصور عقل وفهم، إذ مثلي لا يتكلم علىٰ إشارات الصوفية، فهو لا يُقِيمُ كلام نفسه فكيف يفسر كلام الأولياء العارفين، ولا يفسر كلامهم إلا هم، ولو شَرَحَ ما يقع لهم أهلُ الفهم والذوق.. لم تحتملها المجلدات، وأنا أستغفر الله فيما تجاسرت عليه من قل الأدب معهم، وفي كلامهم، ولعل محبتهم تدفع ما وقع منا في جانبهم، فالمحب يُدِلُّ على محبوبه.

رجعنا إلىٰ ذكر سيدي الوالد رضي الله عنه:

---

(١) ذاريه: أي باذره وزارعه.

كان ملازماً والده لا يكاد يفارقه ، وعليه من والده نظر ، زيادةً علىٰ إخوانه ، وقد أخبرني أنه خرج هو وإياه إلىٰ (القرن)[1] ، مكان سلفهم المعروف ، وهو يسير خلف والده إذ ألتفت إليه ، وقال : ما أنا مستأمن إلا عليك في عمارة المساجد (مسجد الجد طٰه ومسجد والده الذي هو في القرن) إشارة من والده إلىٰ أنه الخليفة من بعده ، فكان كما قال والده ، عمرها عمارةً أكيدةً ، عمارةَ الظاهر والباطن ، أما عمارة الظاهر . . فإنه جددها الجميع ، وأما عمارة الباطن . . فإنه أسس لهما أموراً لا تكاد توجد في غيرهما من المساجد ، من القراءة والصلاة ، حتىٰ إن مدرس الإثنين والخميس بعد الظهر قراءة فقه وتصوف جعله في مسجد الجد طٰه .

وكان من صغره زاهداً في الدنيا ، لا يلتفت إلىٰ شيء من أحوالها ، وكان زهده وهو في الصغر زهد العارفين ؛ لعلمه أنها أعظم حجاب في سلوك طريق الله ، فكان يبيع ما حصله منها بقيمة تافهة ، أنفةً منه ، وكان يقوم آخر الليل في مسجد الجد طٰه ، ويقول : من فضل الله ما تركت قيام آخر الليل في عمري مرةً واحدةً ، مع أني ـ من فضل الله ـ أقوم وأنا ٱبن سبع سنين ، فٱنظر إلىٰ هٰذه الرعاية ، أنه لا في مرض ولا في صحة فرّط في قيام الليل ، الذي هو أشق علىٰ النفس في الأعمال كلها ، ويعلمك أنه في جميع أعماله علىٰ هٰذا المنوال ، وهٰذه المحافظة الشديدة علىٰ النفس ، لا يظفر بها إلا من له من الله مدد رباني ، لا يفتر عنه في أحواله كلها .

---

(١) القرن : كان يُعد سابقاً من ضواحي مدينة (سيون) ومصائفها ، واليوم مع ٱتساع العمران والتحام الضواحي بالمدينة . . صار (القرن) حياً من أحياء (سيون) .

وقد ارتحل لطلب العلم هو وسيدنا الحسن بن عليٍّ الجفري إلىٰ (تريم) ، فلما وصلا إلىٰ (تريم) . . قال سيدنا الحسن لسيدنا الوالد : مَنِ الأمير منا يكون الرأي له ؟ فقال له الوالد : أنت ، فكان الحبيب حسن يقضي الحوائج كلها بنفسه ، وكلما كلمه سيدي ليعاونه في الخدمة . . أبىٰ ، وقال قد أعطيتني الرأي ، حتى شق ذلك علىٰ الوالد ، وقال قَمَرَنا[1] الحبيب حسن ، وبينهما أُخُوَّةٌ في الله ومحبة أكيدة ، وقد أخبرني السيد أبو بكر بن عبد الله الجفري ، أحد تلامذة الحبيب حسن ، أن الحبيب حسن يقول : إن روحي وروحَ الحبيب سقاف والحبيب جعفرِ بن أحمد . . واحدة ، وقد ذكر لي الوالد أنه خرج لزيارة الشيخة العارفة بالله سلطانة الزبيدية ، فلما وصل إلىٰ مَرْيَمَه رجع إلى (سيون) بلا سبب للرجوع فلما وصل بيته . . إذا الحبيب حسن مقبل إليه ، فتعجب سيدي من هٰذا فأرواحهم واحدة ، فكما أن الرجل يشبه والده وخاله في الخَلْقِ الظاهر ، فكذا الأمور الباطنة ، فإن الإنسان يكون طيب البال ، كريم السجايا ، عطوفاً بالخلق ، رحيماً بهم ، وافر العقل ، ويكون الشخص الآخر مثله في جميع ذلك ، فإذا توافقا وتحابا في الله مع كمال المعرفة بربهم . . صارا كشخص واحد ، وصارت أرواحهم واحدةً ، كما قال الشاعر :

تَـأبَـىٰ قلـوبٌ قلـوبَ قـومٍ ... ومـا لهـا عنـدهـا ذُنـوبُ
وتَصطفِـي أنفـسٌ نفـوسـاً ... ومـا لهـا عنـدهـا نَصيـبُ
مـا ذاك إلا لمُحكَمـاتٍ ... أَحْكَمَهَـا مَـنْ لـه ٱلغيـوبُ

---

(١) قَمَرَنا : أي غلبنا وتغفّلنا .

ويفسر هٰذا حديث : « **الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف** »[1] .

وقد أخذ العلم الظاهر والباطن عن إمام العلماء ، وشيخ الحكماء ، من أقر له علماء دهره بأنه فريد عصره ، سيدنا عبد الرحمٰن بن عبد الله بلفقيه ، وكان ممن خصه الله بالعلم الظاهر والباطن ، وكان يقول : سبعة عشر علماً ما سُئلت عنها مدة حياتي ، مع أنه تضلع في كل العلوم ، وأخبرني والدي أن بعض أكابر العلماء يقول : إن السيد عبدَ الرحمٰن عالم الدنيا ، والمخبِر من أهل الاطلاع والكشف ، وأُخبِرتُ أنه لما حج زار (زبيداً) ، ومكث أياما يذاكر علماءها في تفسير ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ، فأقروا له بالفضل ، وعلموا أنه عالم زمانه ، وذكر لي الوالد ، أنه إذا أراد أخذ كتاب فَبَعُدَ عليه .. رادفَ[2] كتباً وصعد عليها حتىٰ يتناوله ، وقال : أنا واحد من الكتب ، هٰذا مع أنه يعظم الكتب غاية التعظيم ، ولا شك أن هٰذا لا يكون إلا له ، لأنه من العارفين بالله ، والعارف يزن الأمور بميزان الشريعة ، ولو رأينا إنساناً وطىء كتاباً من الكتب بقصد الاستهانة له .. حكمنا بردته .

وَسَلِّمْ لأهلِ ٱللهِ في كل مُشكلٍ ... لـديـكَ لـديهـمْ واضـحٌ بـٱلأدلةِ

وكان سيدنا عبد الرحمٰن هٰذا من أجل مشايخ سيدي الوالد ، وكان يجل سيدي ويعظمه ويعارضه[3] إلىٰ عتبة داره ، وقد يشق عليه لضعفه ، ولـٰكنه يحتمله إجلالاً وتعظيماً لمقام سيدي ، فكل من عظمه

---

(١) أخرجه البخاري في (الأنبياء) (٣٣٣٦) .
(٢) أي : وضع بعضها فوق بعض .
(٣) أي : يستقبله .

المشايخ العارفون.. فإنه من أهل الكمال ، وكان سيدي الوالد والحبيب حسنُ بن عليٍّ مدة إقامتهم في (تريم).. يخرجون بكرة كل يوم إلىٰ حضرة الحبيب عبد الرحمـٰن وهو مريض ، ويقول : كُلَّ يوم آخرجوا إلىٰ عندي خذوا مني هـٰذه العلوم ، فإني أخاف أن أموت وهي معي ، ولا ينتفع بها غيري ، فلازماه ، وآمتثلا ما أمرهما به من الخروج والتلقي عنه وآجتهدوا في ذلك غاية الاجتهاد ، حتىٰ سقاهما من شراب وداده ، وأمدهما من مواهب إمداده ، وحكمهما تحكيم أهل الولاية ، حتىٰ صارا أهلاً للإمامة والخلافة ، وقد أشار إليه سيدنا الإمام عبد الله بن علويِ الحدادُ ، بقصيدة أولها : (يا وجيه إنها هبت رياح السعود) ، وهو سائر إلىٰ زيارة نبي الله هود ، عدىٰ[1] علىٰ سيدنا عبد الله فوجده نائماً فلم يعلموه ، فلما آنتبه سيدنا عبد الله أعلموه بوصول الحبيب عبد الرحمـٰن إلىٰ بيته ، فحزن لذلك ، إذ لم يعلموه ، فأنشأ الخمسة الأبيات الأُوَل من هـٰذه القصيدة ، وتبعه بها ، كالاعتذار إليه ، لئلا يقع في قلبه شيء ، وإلا فالعارفون بُرَآءُ من ذلك ، ويرونه من الله ، ويشهدون في ذلك الكمال ، ولا وصلوا إلىٰ الله إلا بذبح النفوس وإهانتها ، أما ترىٰ الماشية إذا أرادوها للحرث.. كيف يفعل بها من الضرب العنيف ، حتىٰ تصلح لذلك ، هـٰكذا المريد ، لا بد له من ذبح نفسه وهوانها ، حتىٰ تنقاد له ، فإذا آنقادت له صارت عوناً له إلىٰ سعادة الأبد ، هـٰكذا الإنسان ينظر بعين البصيرة فيزداد بفكره قوةً ويقيناً .

وله من المكاشفات أمور عجيبة :

---

(١) أي : مَرَّ .

من ذلك : أن سيدي الوالد ذاكر بعض تلامذة الحبيب عبد الرحمٰن في شق القاف في الفاتحة ، فقال : القول قول ٱبن حجر ، إن الصلاة لا تصح إلا بشق القاف علىٰ القادر بلا مشقة ، وسيدي الوالد لم يقل بشق القاف ، وقد ذاكره شيخه العارف بالله عليُّ بن عبد الله السقاف ، وقال له لا تشق القاف ، فلما حصلت المذاكرة.. حزن سيدي ، وقال : كيف وأنا أصلي بالناس ؟ وكانت هٰذه المذاكرة بالليل ، فلما أصبح ٱتفق بالسيد المذكور بحضرة الحبيب عبد الرحمٰن ، فبقي الحبيب يذاكر في العلوم حتىٰ وصل إلىٰ شق القاف ، فقال : الأصح خلاف ما قاله ٱبن حجر فيه ، فعلم سيدي أن هٰذا لما وقع في قلبه من الحزن والضيق ؛ خوفاً من ربه ، هٰذه الأمور تقع للصالحين ؛ لأنهم أسسوا أمورهم علىٰ التقوىٰ ، كما تقدم أنه ٱستشار شيخه[١] في شقه ، فقال : لا تشقه ، فقد رجح صحة الصلاة بدونه ـ وإن كان قادراً ـ جماعة كالشيخ زكريا في كتبه ، والرملي في (النهاية) ، وغيرهما من جهابذة العلماء ، رضوان الله عليهم أجمعين . ولا نطول بذكر فضائله وعلومه ، وأعماله وأحواله ، إذ لا تعد ولا تحصىٰ ، ولا تحصر ولا تستقصىٰ ، فالشمس ظاهرة منيرة ، ولا تخفىٰ إلا علىٰ أعمىٰ البصيرة .

وقد ذكرنا أخذه عن والده إمام العارفين وقدوة المحققين ، وملازمته له ، لا يكاد يفارقه ، وعنايته به زيادةً علىٰ إخوانه ، وكان سيدي الجد محمد ممن خصه الله بالمعارف والعوارف ، والمعاملات الباطنة ، التي لا يَطَّلع عليها إلا الله ، بل كان وقته كله في معاملة ربه ،

---

(١) الحبيب علي بن عبد الله السقاف .

كان يعطي أولاده كلَ واحد إلىٰ يده للمعلم ، وهم في حالة التعليم شَبْط[1] دراهم ، فإذا قالت له زوجته : هٰذا إفراط . . زجرها ، وقال : هٰذا ما يساوي مخاط أولادك الذي يطرح في العُلْمَةِ[2] ، تعظيماً وإجلالاً للقرآن ، وكان من صغره له عناية من ربه ، وبركة في سعيه وسيره ، تربىٰ في حجر والده ، وتولاه بعد والده الجد عمر بن محمَّدِ بن عمر بن طٰه ، وهو من أكابر الأولياء العارفين ، حتىٰ أَنَّ الجد عمر بن محمد خاف من ٱنقراض السادة آل طٰه ، حيث في ذلك الوقت لم يبق منهم إلا الجد محمد صغيراً ، ومن شفقته عليه أنه إذا أراد أن يسير إلى العُلمة . . قال له : لا تسير إلىٰ العلمة ، فيقول : أروح تحيلاً عليه ، حتىٰ تضلع من العلوم حظاً وافياً ، وبلغ مقاماً عالياً ، ثم بعد تضلعه في العلوم وارتقائه في الأحوال . . نوىٰ حج بيت الله الحرام ، فٱستأذن الجد عمر بن محمد ، فلم يأذن له ، فكتب إليه سبع عشرة ورقةً ليأذن له ، فلم يُجِبْ عليه ، فعزم علىٰ الحج ، فحزن لذلك الجد عمر خوفاً عليه ، رجاء أن يبلغ المقام الذي قصده ونواه فيه ، لأن جلوسه في أرضه كالمتعين عليه ، لأنه في أعمالٍ ، العملُ فيها خير من ألف عمل ، فلذا ٱختار له الجد عمر عدم النفوذ ، ولٰكن أراد الله أن تقع له مواهبُ وإمدادات في حجه ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة : ٤] ، فسار في جماعة من أصحابه نحو سبعة عشر نفراً ، فماتوا في ذلك الحج كلهم إلا هو ، فعاد مريضاً ، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن ذلك من قبل الجد عمر ، فإنه مجاب الدعوة ، شديد

(١) أي : مغلف يحتوي علىٰ دراهم .
(٢) هي محل تعليم الأطفال ، وهو الكُتّاب .

الشفقة علىٰ الخلق ، عليه من سلامة القلب ما لا يُقدَرُ علىٰ وصفه ، فلا شك فيما يقع للصالحين الذين أيدهم الله بنصره ، كيف لا يكون لهم ذلك ؟ والحديث يشهد لهم بقوله : « **لا يزال عبدي يتقرب إلي بٱلنوافل حتىٰ أحبه ، فإذا أحببته . . كنت سمعه . . إلىٰ آخره** »[1] ، وقوله : « **رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له . . لو أقسم علىٰ ٱلله لأبر قسمه** »[2] ، ولم يقيد ذلك بشيء دون شيء ، وكان الجد محمد ـ رضي الله عنه ـ ممن تولىٰ منصب القضاء ، لا بٱختيار ، بل لتعينه عليه إذ ذاك ، وكان مجاب الدعوة ، إذا دعا بأمر حصل حالاً ، لما رزقه الله من المعاملات الباطنة ، زار (تريم) سنةً ، ومعه سيدي الوالد ، وزار الأحياء والأموات علىٰ نية أن يخرجه الله من عهدة القضاء ، لشدة خوفه وكمال ورعه ، الذي قل أن يكون له نظير في زمانه ، فلما خرجا من (تريم) ووصلا مسجد مشيخ ، وهو راكب والوالد خلفه . . نظر إلىٰ الوالد بوجهه ، وقال : عرفت زيارتي هٰذه لأي شيء ؟ فقال سيدي الوالد : الله أعلم ، فقال : توسلت بالأحياء والأموات الجميع إلىٰ الله أن يخرجني من عهدة القضاء ، وأنا حي ، فلما وصل سيؤون وقع عليه الستر بالذهول وميل العقل ؛ لغلبة الخوف عليه ، فربما خرج من إمامة الصلاة وهو إمام ، وخرج من عهدة القضاء وهو حي ، وذلك لتوسله بالصالحين في ذلك ، وتولىٰ عهدة القضاء في ذلك الوقت العم علويُّ بن محمد ، وكان الجد محمد أيام ذهوله . . محفوظاً ، وإذا تكلم بشيء أو أخبر بأمر . . وقع حالاً .

---

(١) أخرجه البخاري في (الرقاق) (٦٥٠٢) .
(٢) أخرجه ابن حبان في « صحيحه » (١٤/٤٠٣) .

وله معاملات باطنة تبهر العقول ، ولا تحصيها النقول .

فمنها : أنه كان إذا ميز الطعام الذي صار بآسم الزكاة في المنزل الذي فيه الطعام . . نظر يميناً وشمالاً ، فإذا لم ير أحداً . . غرف غرفات عديدة وأضافها إلىٰ صبرة الزكاة ، وكان سيدي الوالد يراه في بعض أحواله من غير أن يعلم به ، فكلما ذكر هـٰذه الواقعة سيدي في معرض الرحمة لخلق الله ـ وقد يكون ذكره لذلك في مدرسه يوم الخميس مع كثرة الخلق ـ فاضت دموعه ، ولم يتحمل من كثرة البكاء ، وكان لا يحتمل النظر إلىٰ الجائع ، ويعطي الفقير عطاءً يسره ، وقد وصل يوماً إلىٰ بيت سيدنا عليٍّ بن عبد الله السقاف في قحط ، فوجده يِحِسّكْ[1] دابته طعاماً ، فقال له الجد محمد : غلطت يا سيدي علي ، تعطي دابةَ والمسكين في الجوع ، ففرح سيدنا علي بكلامه ، وعرف رحمته ، وعظم مقامه ، وكان حال سيدنا علي الإحسان في جميع أحواله ، والاحتياط في كل أفعاله ، عملاً بحديث : « إن ٱلله كتب ٱلإحسان علىٰ كل شيء »[2] . وهو مقام عظيم لا يطيقه إلا الأبطال من رجال الحق ، ومقام الجد محمد الرحمة ، تخلقاً بخلق رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وكل يسير إلىٰ ـ الله تعالىٰ ـ علىٰ منهج قويم ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٠] ، وكان ورعه لا يوصف لواصف ، ولا يقدر عليه إلا من كان مثله عارف .

قال سيدي الوالد: كنت أسير خلف والدي، فمضينا بجنب زرع،

---

(١) أي : يعلف .
(٢) أخرجه مسلم في (الصيد والذبائح) (١٩٥٥) .

فأخرجت منه ورقةً، فٱلتفت إلي، وقال: من أين تدركها في الآخرة إذا سألك الرب عنها؟ قال سيدي : فبقيت كلمة والدي في قلبي ، ووقع لها محل عظيم عندي .

قال : وكنت أسير خلفه يوماً فمضينا في زرع بر صغير ، فخطر ببالي أن والدي مع شدة ورعه كيف يدحق[1] في البر هٰذا ، فما تم الخاطر. . إلا وٱلتفت إلي ، وقال : لو علمنا أنه يضره ما مضينا فيه .

وكان صاحب تفويض ، ما له ٱلتفات إلىٰ الوسائل ، قال لأولاده : من بايصلح يصلح ما معي إلا النية مع الله ، وقال لأولاده : أكره أن أقول للواحد ٱسقني شربة ماء ، خوف أن يقوم وهو غير فرحان ، فيقع في المحظور ، هٰذه الشفقة العظيمة من كمال عقله ، وهٰذا الكلام منه أثر في قلوب أولاده تأثيراً عظيماً ، ونيته العظيمة بلغت في أولاده قرة عينه ـ رضي الله عنه ـ في حياته ، فكل أولادِهِ تضلعوا في علم الظاهر والباطن ، حتىٰ بلغوا ما بلغوا ، فكل من أراد نجح أموره فليردها إلىٰ الله ، دقيقها وجليلها ، وليحذر من الرجوع إلىٰ الخلق فمن لا يقدر علىٰ نفع نفسه . . فكيف يقدر علىٰ نفع غيره ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٨٦] ؛ أي : لا ألتفت إلىٰ غيره طرفة عين ، وأعلم من الله ؛ أي ثقتي بربي وحسن ظني به أن يرده علي ، كما قال يوسف : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] ، هٰذه أحوال الصالحين ونياتهم ، فٱجتهد أن ينالك منها نصيب ، وعامل ربك يسبغ عليك أياديه ، فإنه ولي التوفيق .

---

(١) يدوس ويطأ برجليه .

ومن مشايخه ـ رضي الله عنه[1] ـ : إمام أهل الله ، ومن هو علىٰ منهج رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، وحيد عصره ، وفريد دهره ، سيدنا الإمام الأعظم علي بن عبد الله السقَّافُ ، كان صاحب مجاهدات عظيمة في أول عمره ، وهو من أجل مشايخ سيدي ، بل هو شيخ الفتح ، فني فيه غاية الفنا ، حتىٰ كاد أن يمتزج به لحماً ودماً ، والظن والعلم عند الله أنه بلغ مقام القطبية .

ومن أخلاقه : أنه ما ترك سنةً من سنن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم حتىٰ في مرض موته ، وكان في أول عمره في ضَنْكٍ وامتحان ، وكان كثير التنقل في البلدان ، أخذ في حوطة الشيخة العارفة بالله سلطانة الزُبيديةِ . . برهةً من الزمان ، وقد يمر عليه اليوم والليلة هو وزوجته بلا قوت ، فيقومان الليل كله يعبدان الله إلىٰ الفجر شكراً لله ، وفرحاً بما منحهم الله من هٰذا المقام ، الذي هو شِعارُ الصالحين ، وبغية العارفين ، وقد اتفق لهم من الشيخة سلطانة أنهم ليلةً دخل عليهم الليل ولا شيء لهم ، فقال لزوجته : نخرج إلىٰ مسجد الشيخة ونعبد ربنا لما منحنا ، فخرجا إلىٰ المسجد فلما رجعا إلىٰ المنزل . . وجدا العشاء مطروحاً في رف المنزل ، ومفتاحه بيدهم ، فأكلا ، وقاما يشكران الله علىٰ ما رزقهم ، فانظر إلىٰ هٰذين الشكرين ، شكرِ الرخاء وشكرِ الشدة ، وقد يَطلعُ إلىٰ واديها[2] يعبد الله ، وقد كانت في حياتها تعبد الله

---

(1) في هامش المخطوط ما نصه : فائدة : قال سيدنا عمر بن سقاف في مناقب جده سيدنا علي بن عبد الله : وبالجملة فقد انعقد الإجماع على أنه ـ يعني: جده سيدنا علي بن عبد الله ـ إمام أئمة ذلك الأوان وصاحب وقت ذلك الزمان وسلطان إنسها والجان اهـ .

(2) أي : وادي الشيخة سلطانة ، نسب إليها ؛ لأنها تتعبد فيه .

في ذلك الوادي ، ويقال إنها تتفق فيه بالأولياء ، وقد أخبر سيدي الحبيب عليٌّ سيدي الوالد : أنه يخرج إلىٰ مسجد الشيخة سلطانة الزُبيدية يصلي فيه ، فإذا الشيخة تصلي خلفه ، حتىٰ قال : إني ٱلتفت فإذا خلفي نور إلىٰ السماء ، فعلمت أنها الشيخة ، وهـٰذه ثمرة الصبر والرضىٰ ، والمجاهدات العظيمة والصدق مع الله : (علىٰ قدر أهل ٱلعزم تأتي ٱلعزائم) ، انظر إلىٰ حِرَف الخلق ، فمنها الداني ، ومنها الرفيع ، ومنها المتوسط ، فعلىٰ قدر الهمم تأتي المواهب ، ومعول العارفين علىٰ أعمال القلوب لا علىٰ الأعمال الظاهرة ، وإذا أردت أن تعرف حالك مع الله . . فٱنظر إلىٰ نفسك ، فإن كانت مستقيمةً علىٰ المنهج القويم ، وغصص الزمان تأتيك وأنت راضي بها ، وأمور دنياك منعكسة عليك ، لا تكاد تصلح إلا بعد عناء وتعب . . فٱفرح بذلك ، فإن ربك يُحبُّكَ ، ويُقر عينَك في الدنيا قبل الآخرة ، وأبشر فإن مراده أن يصطفيك ويجتبيك ، فإن كانت الدنيا منقادةً لك ومواتيةً ، وقلبك بها مسرور فهـٰذا حال صعب ، ما أظن ـ والله أعلم ـ أن صاحبه يسلم له دينُهُ ، وأمره مخطر ، وقد رأينا ذلك في جملة من خلق الله ، فعلىٰ من ٱبتلي بشيء من هـٰذه الأحوال أن يرجع إلىٰ الله ، ويتفقد أحوال المساكين أهل العفة والدِّيانةِ ، ويخافَ من ربه ، ويعرفَ قدر نفسه ، ويعظمَ كل من رآه مبخوصاً[1] في هـٰذه الدنيا ، ويجعل له أيادي عندهم ، ولو بإدخال السرور علىٰ قلوبهم ، إن لم يقدر علىٰ شيء من الدنيا ، فبهـٰذه الأحوال يدخل معهم وينال بركتهم ، وهـٰذا ميزان لا يكاد يخطىء ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟

---

(١) أي : مبخوساً ، والسين والصاد قد يتعاقبان .

﴿ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] ، فمن أمعن النظر في هـٰذه الآية . . بان له الحق وٱتضح ، وفي ضد هـؤلاء ، وهم أهل الراحة في الدنيا ، الذين أعطَوا نفوسهم في الدنيا ما تشتهيه ، وظنوا أن مراد الله بقوله : ﴿ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون : ٥١] ، ما هم عليه ، وهـٰذا خطاب للعارفين والمؤمنين الذين جعلوا الدنيا للآخرة ، فالخوف من ربهم لا يفارقهم ، وقد كابدوا محن الدنيا أول أمرهم ، فأثمر لهم الرضىٰ في الآخرة ، كما قال سيدنا علي بن عبد الله :

وصارَ ٱلعيشُ بعدَ ٱلمرِّ حلواً وطابتْ راحتي وصَفا زماني

ومن أجل مشايخ سيدنا علي : سيدنا عبد الله الحداد ، كان يحبه ويميل إليه ، حتىٰ إن سيدنا عبد الله عاتب يوماً الطلبة في المجيء إلىٰ مدرسه راكبين ، وٱتفق لسيدنا علي أن جاء علىٰ فرس ، فقال بعض أولاد سيدنا عبد الله : ٱنظر إلىٰ هـٰذا نهيته عن ركوب دابة فجاء راكباً فرساً ، فقال سيدنا عبد الله : ما مرادنا علي بن عبد الله ، إنما مرادنا غيره ، أما هو فقد ريضه[١] شيخه علي بن عبد الله العيدروس اهـ ، وقد تضلع في العلوم ، وقرأ علىٰ مشايخَ لا نطيل بذكرهم ، وحج بيت الله الحرام ، ولم تحصل له إذ ذاك زيارة جده عليه الصلاة والسلام ؛ لعدم ذات اليد ، فلما وصل إلىٰ (تريم) . . قال له شيخه القطب الحداد : زرتَ المدينة ؟ فقال : لا ، فقال : ٱرجِعْ ، إيشْ[٢] تقول لجدك ، وقد

---

(١) أي: رَوَّضه .
(٢) كلمة دارجة للاستفهام، أصلها: أيُّ شيء .

قال : « من حج ولم يزرني . . فقد جفاني »[1] ، فرجع آمتثالاً لشيخه ، ولم يكن معه شيء ، فزار ولم ينقص عليه شيء ، ورجع إلىٰ (حضرموت) وليس معه هدية ، ثم أشار له شيخه الحداد بالسفر إلىٰ الهند عند سيدنا علي بن عبد الله العيدروس ، وقال : هو شيخك ، وأشار عليه فتوجه ، فسار آمتثالاً ، ولازم الحبيب علي بن عبد الله ملازمةً أكيدةً ، وأحسن الأدب بين يديه ، واختبره شيخه المذكور ، حتىٰ أنه يوماً بقي تحت باب شيخه المذكور منتظراً الإذن ، فأمرهم بصب غسل أهل الدار عليه . فصبُّوْهُ فوقع علىٰ رأسه وثيابه وكتبه ، فأحسن الأدب ، فلما علم شيخُهُ صدقه خصه بنظره ، وبجله وعظمه وقدمه وعلمه ، حتىٰ شرب من كأسهم ، وكرع من ودادهم ، وألبسه الخرقة .

وله معه مكاشفات ، منها : أنه طالع يوماً في كتاب فوجد فيه : (علامة الشريف ثلاث خصال : الكرم والشجاعة والفتوة) ، قال : فوقع في خاطري من ذلك وسواس عظيم في نفسي ، وتألم في قلبي ، ووقع في قلبي شيء من ذلك ، حتىٰ خطر لي أن الشيطان ربما تصور بصورة أبي ، ثم قلت : كيف ووالدتي بنت عليٍّ بن عمر بن طٰه ؟ وآستمر ذلك حتىٰ جلست مع شيخي المذكور ، فقال : آشهدوا علي أن علي بن عبد الله . . شريف حسيني سني ، حتىٰ إن أحداً من الحاضرين قال لسيدي الحبيب علي : كيف كلام الحبيب هٰذا ؟ فقال له : هٰذا

---

(١) في «كشف الخفاء» (٢٤٦٠) : قال الحافظ ابن حجر في تخريج «مسند الفردوس» : أسنده عن ابن عمر وهو عند ابن عدي وابن حبان في «الضعفاء» ، وفي غرائب مالك للدارقطني ، وفي الرواة عن مالك للخطيب اهـ . قال العجلوني : لا ينبغي الحكم عليه بالوضع ، فتدبر .

خاطر وقع لي ، وأعلمه به ، فقال له الرجل : مجالسة هٰذا خطرة ، وأشار[1] إليه بالخروج ، فخرج إلىٰ (حضرموت) ، وأخذ في القراءة علىٰ سيدنا القطب الحداد ، حتىٰ أن الحبيب عبد الله ألبس الحبيب علياً لباس المشيخة ، فبعد لبسه وقع في خاطره ، كيف وأنا قد لبست من شيخي علي بن عبد الله العيدروس ، ووقع في خاطره من ذلك شيء عظيم ، وكاشفه سيدنا الحداد ، وقال له : نحن وعلي بن عبد الله شخص واحد ، وقال له يوماً : أريد أن أرجع إلىٰ الهند ، إلىٰ عند سيدي الحبيب عليٍّ بن عبد الله ، فقال له : لا ترجع ، فمكث مدةً ، وأعاد عليه القول ، وقال : إن معي قلق ، وأنه حصل لي فتوح ومدد ، لعل أن تأذن لي في العودة ، فقال له : من دلك علىٰ عليٍّ بن عبد الله ، فقال : أنتم ، فقال له : شيخك إلا أنا ، وإنما حولتك علىٰ علي بن عبد الله ؛ لأجل رياضتك .

فٱنظر ـ أيها الطالب ـ لطريق الصوفية أنها ليست بالتمني والترجي ، إنما هي بذبح النفوس ، فإذا نظرت إلىٰ الصالحين ومجاهداتهم ومكابداتهم وٱبتلاءاتهم . . وجدتَ مقاماتهم علىٰ قدر مجاهداتهم ، ٱنظر إلىٰ مجاهدات الشيخ عبد القادر الجيلاني ، والفقيه المقدم ، وأهل الرسالة ، فمن بذل نفيساً . . حصل علىٰ كل نفيس ، وأمعن ٱلنظر في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٢] ، ومقام الصالحين في الآخرة علىٰ قدر أعمالهم ، كما قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : ١٦٤] .

اللهم إلا أن يكون محبوباً ، مثل سيدي الوالد فإن مكابداته الظاهرة

---

(١) أي : شيخه الحبيب علي بن عبد الله العيدروس .

قليلة ، ولكن خصه الله بالمعاملات الباطنة ، التي قل أن يظهر منها شيء ، وهي الإكسير الأعظم ، وقد أوصىٰ الشيخ عبد الرحمٰن السقاف ولده المحضار ، حين قال له : يا ولدي ؛ أوصيك بأعمال الباطن ، فإن الأوقية منها خير من بهار من أعمال الظاهر ، فإذا علمت ذلك . . تحققت مقام سيدي ، وأنه بلغ أعلىٰ مقام الصوفية رضي الله عنهم ، ونفعنا بهم آمين .

فلما تضلع سيدنا علي بن عبد الله السقاف في العلوم . . ٱرتحل إلىٰ (سيون) ، وأخذ في الدعوة إلىٰ الله والإقبال عليه ، أخذ في ٱزدياد وٱرتقاء من مقام إلىٰ مقام ، حتىٰ بلغ ما هو له مقسوم ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : ١٦٤] ، فأخذ في بلد (سيون) في الدعوة إلىٰ الله ، وجلس في بيوت كثيرة ، وقد جلس تحت البلد جالساً في ضَيْقَة[١] وعرشةٍ ، حتىٰ جلس في داره المعروف بالخير والنور في وادي جَثمه[٢] ، والظاهر أن ذلك بإشارة من شيخه الحداد ، وكان شكا إليه أنه يعتليه هم وضيق ، وذلك من شدة خوفه من الله فقال له : إذا جاءك الضيق . . فقابلْ وادي جَثمه ، فكان إذا جاءه الضيق قابل الوادي ، فيزول عنه ، ثم أحدث رَوْحَةً لأجل مقابلة ذلك الوادي في مكان معروف[٣] ، وبقيت تلك الروحة إلىٰ أن توفي .

وله مع شيخه الحبيب عبد الله تسليك وإرشاد إلىٰ الطريق الموصل

---

(١) هي الدهليز ، والعرشة : العريش وهو البيت يتخذ من الجريد ونحوه .

(٢) كانوا سابقاً يطلقون ذلك علىٰ الجانب الجنوبي من مدينة (سيؤون) وكان خلاءً لا أبنية فيه ، أما اليوم فهو من الأحياء القديمة .

(٣) هو المسمىٰ بالغيلة ، ويقع في عمق الوادي جنوباً ، ويبعد عن داره ومسجده بنحو ميل ، وكان الحبيب علي يذهب إليه ويتعبد فيه ، ويأنس بالجلوس فيه .

إلىٰ الله ، كان سيدي الحبيب علي يريد مقاماً من مقامات الصوفية ؛ أي : طريقةً من طرقهم العالية ، ثم ناداه شيخه الحبيب عبد الله ، وقال : يا علي بن عبد الله ما عرفت الطريق ؟ حتىٰ قال له : عرفوني الطريق ، فقال له : إبق علىٰ طريقة أهل اليمين ، وما قسم لك هو يأتيك ، فأمتثل ما أمره به شيخه ، ولا شك أن ما قصده ناله لوقته ، وحاز كل المقامات .

ثم إِنَّهُ أخذ في الدعوة وكانت أوقاته كلها معمورةً ، وهو في زيادة وظهور ، ورتب قراءةً من بعد الظهر إلىٰ وقت العصر ، ومن بعد العصر الروحةَ ، والصبح يجلس لمن أراد أن يزوره ، وكان يجلس لإحياء ما بين العشائين للحزب القرآني ويجلس معه جماعة ، وكان شديد الإصغاء إلىٰ قراءة القرآن وآستماعه ، وكان أولاً لا يجلس لإحياء ما بين العشائين ، حتىٰ قال له بعض محبيه : كيف لا تجلس لإحياء ما بين الوقتين ؟ إذا لم تكن أنت محتاج.. فلا تحرم الناس ، والناس محتاجون لاستماع قراءتك ، فلازم حضور الحزب المذكور من وقته ذلك ، وعرف أنه تنبيه من الله تعالىٰ ، وكان من زاره يظن أنه أقرب الناس إليه لحسن أخلاقه ، وكانوا يأتونه للزيارة من كل مكان ، وإذا وصل إليه أحد من آل العيدروس.. يبجله غاية التبجيل ، ويكرمه نهاية الإكرام ، حتىٰ أنه يقدمه للصلاة ؛ ليصلي به ، وإن كان صغيراً ، وذلك لفنائه في شيخه ، نفع الله به .

ومن فضل الله علي أني قرأت عليه ، ونظرت إليه ، وكنت في صغري أهدي إليه البَيْضَ ، ويقول لي : بيضك الله في الجنة ، وكان هٰذا دأبه ، كلٌ من أهدىٰ إليه.. يدعو له ، وذلك لسعادة أهل وقته ، فمنهم من تناله الرحمة بالنظر ، ومنهم بالصحبة والمحبة ، بل من ذلك

المقام تكفي النظرة ، اللهم اجعلنا ممن نظروه فأحبوه ، والظاهر أن توطنه في (سيون) إنما كان بعد أخذه عن شيخه عليِّ بن عبد الله العيدروس ، وكان في آخر عمره مستغرقاً بربه ، بل كان في الحضرة ، خلع عليه مولاه خِلَعَ الجمال والهيبة ، وكان في آخر وقته لا يتكلم في مجلسه ، بل تراه مطرقاً ، وفي محبة مولاه مستغرقاً .

ولننقل شيئاً من كلامه الذي يتكلم به في مدرسه من العلوم والفهوم ، التي تنبي عن علو مقامه ، وعظم حاله .

فمن كلامه رضي الله عنه : إن الولي لا يبلغ المقام العالي.. إلا بالنية لا بأعماله .

ومن كلامه : إذا علمتَ أنك ضعيف حقير ، لا تقدر أن تحرك ذرةً . . فاعلم أن ألطاف الله عليك دائرة .

ومن كلامه : معنىٰ جمع الجمع هو : الاصطلام والغيبة عما سوىٰ الله ، فالشخص منهم تراه جالساً وهو غائب عنك ، وأعلىٰ منه الفرق ، وهو مقام النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم .

وقال رضي الله عنه : العارف في نفع الناس دائماً ، لأن مقاصد أهل الله حسنة ، والذي يدعيها كذاب ، لأنها إلهام من الله فقط ، فقد يلهمها بعض العوام .

وقال : أهل الله فَرُّوا عن الدنيا لنتن ريحها ، كما قال الشاعر :

وما هي إلا جيفةٌ مستحيلةٌ عليها كلابٌ هَمُّهُنَّ اجتذابُها
فإن تَجْتَنِبْها كنتَ سِلماً لأهلِها وإن تَجْتَذِبْها نازعتكَ كِلابُها

وقال رضي الله عنه : الحرفة خير من الأكل بالدِّينِ ، فالآكل بالدِّينِ . . يأكل الحرام .

ومن كلامه : قد يشارك الإنسان في العمل ولم يعمله ، كاستماعه الغِيبةَ ، وكقوله : إذا قيل له قتل فلان.. قال : يستحق ، أو رضي بقتله .

ومن كلامه : العلم في الإنسان موجود بالقوة ، فإن تسبب له من طريقه ظفر ، وإن لم يتسبب لم ينفعه .

ومن كلامه : المشاراة بمعنىٰ المماراة .

وقال رضي الله عنه : في بني آدم خصوصيات : معرفة الولي قبل معرفة الله حجاب ، ومعرفة الولي أعسر من معرفة الله ، لأنه بشر مثلك ، يأكل كما تأكل ، ويشرب كما تشرب ، ومعرفة الله أسهل .

وقال رضي الله عنه : في بني آدم خصوصيات . قال الله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

فالعارف نظر إلىٰ خصوصياتهم فأحبهم ، والعابد نظر إلىٰ الظواهر ففر منهم .

وقال رضي الله عنه : عالم بالقوة وعالم بالفعل ، فالعالم بالقوة : هو المتأَهِّلُ لذلك ، وليس عنده علم بالفعل ، وهو العلم الموجود في الإنسان ، وهٰذا لا يعرفه إلا من علم المنطق .

وقال رضي الله عنه : معنىٰ سمع الله لمن حمده ؛ أي قبله .

ومن كلامه رضي الله عنه : إذا مات الإنسان ظهرت له جميع الأعمال سيئُها وحسنُها .

ومن كلامه رضي الله عنه : ما يعرف العارفَ إلا مثلُه .

ومن كلامه نفعنا الله به : التوجه توجه القلب لا توجه الظاهر ،

والعوام عندهم شيء من ذلك ، لا يحسب الإنسان أنهم ما عندهم شيء من ذلك ، فاعتقادهم أتم وأحسن من اعتقاد كثير من أهل المعرفة ، إذ يقال : عليك بدِينِ العجائز ، أي : فإنهن إذا قبضن على شيء لا يفلتنه .

ومنه[1] : في ذكر السيد العلامة الصفي الصوفي الفقيه عمر بن محمد بن عمر بن طه الصافي : إذا رأيتَه يضحك ويتعجب من كل شيء . تظن أنه ليس عنده علم ، وهو عالم نحرير ، وفي هذا الكلام إشارة إلى أن أهل الله شأنهم إخفاء ما معهم إيثاراً للخمول . ومن كلامه : إذا فاتك ورد بالليل . . فاقضه بالنهار ، وإذا فاتك ورد بالنهار . . فاقضه بالليل ، والليل أولى ؛ لأنه موضع خشوع وخضوع .

ومن كلامه لبعض محبيه حين رأى عليه الضعف : إنك تتعب نفسك ، أَحْسِنْ ظنَّكَ بِربِّكَ ، وآخرُ عمركَ يقع خيراً من أوله .

وقد وقع على بعض محبيه أذى وأراد بعض الظلمة قبضه ، فلم يقدروا إلا على كسر الباب ، فقال ما أتممت حزبي البارحة ، وإلا فلو باتوا الليل كله . . ما انكسر لهم الباب .

وكانت تأتيه المواهب في كل وقت وحين ، وهذه أحوال الصالحين ، فإن الله إذا أراد أحداً من عبيده للخلافة . . صرفه أيام غفلته للعلم الظاهر ، فإذا تضلع أخذ في الأحوال والمقامات .

وقد كان سيدنا علي[2] ـ رضي الله عنه ـ بعد تضلعه في علم الظاهر ، أخذ في الأحوال والمكاشفات ، وقد أُخبرت عن بعض

---

(١) أي : من كلامه .

(٢) بن عبد الله السقاف المترجم له .

أحواله ، أنه حين سار إلىٰ (شِبامِ) لعمارة مسجد عقيل ، الذي في (السحيل) ، أخذ في عمارته وإصلاحه ، وكان في المسجد المذكور إذا أخذه النوم يُسمَعُ غطيطه وقلبه يقرأ القرآن ، وسمعت من بعض الخواص : أنه كان إذ ذاك نائماً وهو يقرأ يٰس ، وبعض محبيه يقص عليه في المصحف .

وقد قال لي والدي : إن سيدي الحبيب علياً قال له : تريد أن تسمع تهليل قلبي ، فقال له سيدي الوالد : نعم ، فأخذ يسمعه ذلك فسمع تهليلاً كتهليل اللسان ، له صوت يسمعه من كان بقربه ، وقال هٰذا أخذته عن طائفة من الصوفية ، ولٰكن سيدي الوالد لم يحتمل ذلك لما ناله من الأمور التي كاد أن يفوت معها ، وقد أخبرني بعض المحبين : أن الأخ حسين بن علوي لما سار إلىٰ الحج . . أمره بعض أصحابه أن يأخذ هٰذا التسبيح المذكور ، فأبىٰ ، وقال : قال لي عمي : لا تأخذه ، فإنا ـ يا آل طٰه ـ لا نقدر عليه ، نخاف من الغيار ، وذلك لكثرة ما منحه الله من الأنوار ، فإنك إذا تأملت سيدي . . لا تقدر علىٰ النظر إليه من كثرة نوره ، بل كنتُ إذا جلستُ معه وحدي يشق عليّ ، لما أراه من النور ، بل كنت لا أقدر أن أنام أنا وهو في مكان واحد ، وقد يأمرني بذلك فلا أقدر ، أتفق لي هٰذا مراراً عديدةً .

وكان سيدي الحبيب علي رضي الله عنه ، ونفعنا به في الدنيا والآخرة . . يُسْمَعُ تسبيحُه وهو مستغرق في النوم كثيراً ، وذلك دأبه إذا دخل عليه إنسان وهو في النوم ، يرىٰ لسانه يذكر الله تعالىٰ .

وكان ـ رضي الله عنه ـ لا يرىٰ أحداً غير الله تعالىٰ .

لما خرج المكرمي إلىٰ (حضرموت) . . تزلزل أهلها ومناصبها ، ولم يحركه شيء هو وسيدي الوالد ولم يباليا به ، بل كان سيدي الحبيب

عليٍ . . يقنت عليهم وهم يسمعون ، وكان سريعَ الغارة ، من أساء إليه . . أنتقم الله منه .

أخبرتُ أن الأمير مباركاً شغله يوماً في بعض محبيه المنسوبين إلىٰ العلم ، في مَطلَبَةٍ وضعه فيها ، فناصحه سيدي الحبيب علي ، أن لا يطرح ذلك الشخص ، وأرسل إليه أحداً يناصحه من الخلق . فأبىٰ ، فلما كان بعد صلاة الجمعة وقف في قبلة المسجد الجامع ، ونادىٰ بالصلاة علىٰ الأمير المذكور ، وصلىٰ عليه هو وجمع من أصحابه ، والأمير في المسجد فآشتغل ذلك الأمير من هٰذا الأمر ، فخرج إلىٰ الجد محمَّدِ بن عمر وآشتكىٰ من الحبيب عليٍّ ، وقال : أريد الشريعة من السيد ، تجوز الصلاة علىٰ حي ؟ فقال له سيدي الجد محمد : السيد من أهل الكشف ، ولعله قد رآك في اللوح المحفوظ قد مت ، فلم يلبث إلا ثمانية أيام ، وتصرف الله في ذلك الأمير وأهله ، فماتوا الجميعُ في ذلك الأسبوع .

وله من المكاشفات ما لا يمكن حصره :

أخبرني سيدي الوالد ـ رضي الله عنه ـ: أن رجلاً توفي في الهند أو في أرض بعيدة غيرها ، فأخذ سيدي الحبيب علي خمسة قروش[1] من تركة ذلك الرجل، قال سيدي الوالد: فتعجبت من سيدي علي في أخذه الخمسة المذكورة مع شدة ورعه، فبعد مدة وصل الخبر بموته، وأنَّهُ أوصىٰ لسيدي الحبيب علي بخمسة قروش ، فلم يأخذ إلا ما هو ملكُه وحقُّه ، كأنه آطلع علىٰ ذلك أو نظر إلىٰ اللوح المحفوظ فوجدها له ؛

---

(١) جمع قرش، وهو: الريال المتعامل به في ذلك الوقت، وكانوا يطلقون كلمة قرش على الريال .

لأن بعض الصالحين من أهل التمكين يكون صاحب أطلاع ونظر إلىٰ ما هو في اللوح المحفوظ ، وما هو فيه لا يبدل ولا يمحىٰ ، وبعض الصالحين لهم أطلاع علىٰ ما في لوح المحو والإثبات ، وقد يمحىٰ ما فيه ويُثبَتُ غيره ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٣٩] .

وقد أخبرني بعض أصحابه : أنه كان معهم فسحة هم والحبيب في (الغيلة)[١] ، ففرغ الماء عليهم وشق عليهم الخروج إليه ، والحبيب يريد أن يتوضأ ، فقال لهم : تأملوا لعل شي ماءً ، فقالوا : هٰذا لا يمكن وللأرض سنين عديدةً من المطر ، فبقي الحبيب يحك[٢] عليهم حتىٰ قاموا فوجدوا الماء في حَجْمة[٣] فأخذوا منها ما يكفيهم فعجبوا من ذلك ، فهٰذه الكرامات تقع للصالحين عند أحتياجهم لذلك الشيء رضي الله عنهم ونفعنا بهم .

وكان رضي الله عنه يحب السماع ويذوق به ، وتعتليه عند السماع أحوال ، وكان في آخر عمره يأمر المسمعين عند أنتهاء السماع أن يختموا بقصيدة الشيخ عمر ، وهي :

بَنِي مِغْراه[٤] جَدَّ السَّفَرْ بعد التِعُوَّاقْ[٥]

---

(١) هي الموضع الكائن بوادي جَثمة كما سبق .

(٢) أي : يُلح ويكرر .

(٣) لعلها شبهُ الحفرة ، تكون في الصخرة الكبيرة يبقى فيها الماء .

(٤) كلمة (بني مغراه) : شاع استعمالها عند الحضارمة في الشعر الشعبي ، وخصوصاً ما يتعلق بالقنص ، فكانوا يفتتحون بها قصائد القنص وغيرها ، ومِغْراه : عندهم اسم لكلب الصيد ، الذي يُغرىٰ علىٰ الصيد ليصطادَه . اهـ . « أدوار التاريخ » .

(٥) شطر بيت وتمامه :

=

فكان آخر ما يختمون بها ؛ لما فيها من الإشارة إلىٰ أنتقاله إلىٰ الدار الآخرة ، ولما قرب أنتقاله عزم علىٰ زيارة (تريم) مستودعاً من الفقيه المقدم وأهل التربة الجميع ، ومن شيخه الإمام القطب عبد الله الحداد ، ومن أحيائها ، فنفذ إلىٰ (تريم) ، وتبعه غالب أهل (سيون) إلا سيدي الوالد ، وقال : لعل أكون أنا مثل الذي خلفه النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم حين نفذ من مكة ، فلما وصلوا. . زار الجميعُ التربة علىٰ عادته في تخفيف الزيارة ، وخرج إلىٰ عند سيدنا الحبيب الحسن بن عبد الله الحداد (بالحاوي) ، وحصل الاتفاق والأنس التام حتىٰ قال سيدنا الحبيب الحسن للحبيب علي : من سَبَقَ يسلم علىٰ أهل البرزخ ، فهـٰذا دليل على قرب وفاة سيدي الحبيب عليٍّ ، وأنا أسمع ذلك فقد كنت حاضراً تلك الزيارة ، وجميع السادة ، وٱلتمسوا من أسراره وأنواره ، وٱتفق بسيدنا الحامد بن عمر ، وحصلت المذاكرة بينهم ، وخرج إلىٰ مكان شرقي (الحاوي) ، وٱتفق له في تلك الزيارة من العجائب والغرائب والكرامات ما لم يقع علىٰ الخاطر ، وٱتفق أن زار الأحياء والأمواتِ والمآثر كلها في يوم واحد ، مع أنه في آخر عمره يشغله البول لضعفه وكِبَرِ سنه ، إذ عمره شيء وثمانون سنةً ، وكان السبب في قرب أنتقاله البطن ، وأخذ أياماً بذلك ، حتىٰ جاء النذير ، فبكىٰ الأخ عمر حفظه الله ، فقال له : تكره لي لقاء ربي ؟ وقال لهم : إذا وضعتموني في اللحد. . فسلموا علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وعلىٰ الصحابة ، وعلىٰ الفقيه المقدم ، وعلى السادة آل طـٰه .

وكان آخر كلامه : لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله ، ثم فارقت

= وحادي العيس حينَ أنتبهْ مِن نومتُهْ ساق .

روحه الشريفة ، وكان بعد أن سالت نفسه سمعوه يقول : الله الله الله ، حتىٰ ظُنَّ أنه ما مات ، وكنت ـ من فضل ربي ـ حضرت تلك الوفاة ، وقد قال سيدي الوالد ـ حين قرب أنتقاله ـ : النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم والصحابة حاضرون ، فأخذوا في الدعاء لبلوغ المنىٰ ، وكنت ذاكراً كلام سيدي بحضور النبي والصحابة ، فأعظم بها من عطية ، إذ منَّ الله علينا بحضور رسول الله وصحابته ، ووفاة سيدنا الإمام عليٍّ بن عبد الله ، والكلام الذي وقع من سيدي الوالد لا شك فيه أنه من قبيل المشاهدة ، فالحمد لله الذي جعلنا ممن حضر ذينك الإمامين ونظر إليهما ، وكان من جلسائهما وخدمهما ، وكان أنتقاله يوم الأربعاء ، بعد أنبساط الشمس ، فأول من علم بموته سيدي الوالد ، فلم يحتمل حتىٰ نادىٰ بصوته وأعلم أهل بيته ، فلم يتحامل الحاضرون الجميع ، فأخذوا في البكاء والعويل ، فبقي سيدي الوالد يكرر : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولم أر أحداً تثبَّتَ إلا سيدي الوالد ، والأخ حسين بن علوي كانا علىٰ غاية من الثبات ، لم أر حاله تغير إلا عند حمل نعشه الشريف ، بل سمعته يقول عند حمل نعشه : من أراد يبكي فليبك ، وأجتمع عليه من كل ناحية من (حضرموت) الكثير ، بل رأيت سيدي الحبيب جعفر بن أحمد حين دخل عليه قبل أن يغسل قبل قدمه وبكىٰ ، وأجتمع للصلاة عليه الجم الغفير ، وصُلِّيَ عليه بحري بيته ، مِقبِلٌ[1] قليلاً ، وأجتمع علماء (حضرموت) ومناصبها ، وصلىٰ عليه سيدي الوالد بأمر سيدي الحبيب جعفر بن أحمد بن زين ، ولا شك أنه أولىٰ بها ، وكان قبره الشريف متصلاً بمسجده من غير أختيار منه ، بل قيل له

(١) أي : جنوب غرب بيته .

في مرضه : في أي محل تريد قبرك ؟ فقال : حيث يريده الله ، فوقع ما أراده الله ، ووقع مشهداً عظيماً يزار ويتبرك به ، ويجيء إليه الزائرون من كل مكان .

ومن الخصائص العظيمة التي ما وقعت لأحد من أولياء (حضرموت) . أن قبره متصل بمسجده ، وأن قراءة القرآن والصلاة عنده ، حتىٰ مَدْرَسَ يوم الخميس جعله سيدي الوالد في قبته حتىٰ يسمع ذلك ، وتفيض عليه بركة سر القرآن والعلم ، فناهيك بهٰذه المنزلة ، والكرامة الجسيمة ، وذلك جزاء له من مولاه إذ كان قوته القرآن والعلم ، لا يفتر عنه في غالب الأوقات ، مع أدب وإجلال وتعظيم وكمال .

وكان يقول من شدة تعظيمه : لا يصلح أن يقرأ القرآن والحديث من لم يعرف علم العربية ، وكان إذا غلط القارىء وهو في الصلاة يضرب يده علىٰ الأرض ضربةً عنيفةً ، لٰكنها لا تبطل الصلاة ، ويخجف[1] القارىء ، ولا أحد يقرأ بحضرته إلا إن كان ماهراً في القراءة ، وقد رتب له في آخر عمره شيئاً من القرآن نحو ربعه أو زائداً في الصلاة ، وأحد أولاده يقص عليه في المصحف ، فلما كان دأبه محبة القرآن والعلم مع الأدب الكثير . جازاه الله أن لا يفارقه القرآن والعلم في برزخه .

وقد أخبرني الشيخ الأنور محمَّدُ بن الشيخ محمَّدِ بن عبد الولي : أنه رأىٰ شخصاً في مقبرة آل باحويرث ، قبلي[2] قبة الشيخ عُمَرَ بامخرمة

---

(١) أي : يربكه لينبهه .

(٢) أي : غربيها ، وقوله : مبحر : أي مائلاً إلىٰ جهة الجنوب .

مبخّز جالساً ، وبقي الشيخ محمد ينظر إليه حتىٰ غاص في الأرض ، فأخبر والده الشيخ محمداً بذلك ، وهو من الصوفية العارفين ، فقال له : هـٰذه تربة آل باحويرث ، وهم يحبون الصلاة في حياتهم ، فأعطاهم الله الصلاة في قبورهم ، فتفطن ـ أيها السالك ـ سبيلهم لهـٰذه المنحة العظيمة ، وٱلزم الصدق في سيرك إلىٰ مولاك ، وتفكر في أهل الله ، وما منحهم مولاهم ، لعل أن يجدي فيك ، فتنال من رياح سعادتهم ما يصقل مرآة قلبك ، فتكون في جملة عباد الله الصالحين ، الذين فازوا بنعيم الدنيا والآخرة ، اللهم أكرمنا بمحبتهم ، وٱحشرنا في سلكهم ، وٱجعلنا منهم ، ومن محبيهم وخدمهم .

وقد بَنَىٰ علىٰ قبره الشريف سيدي الوالد قبةً تشرق بالنور ، بناها سيدي الوالد بعد عمارته مسجد الجد طٰه بسنة ، أو في السنة المذكورة .

وقد أتينا بشيء يسير من أحوال سيدنا الإمام عليٍّ بن عبد الله السقاف رضي الله عنه ونفعنا به ، وذلك توطئةً لما سنذكره لك من مقام سيدي الوالد ، وأنه الخليفة والوارث لمقام أستاذه الحبيب عليٍّ بن عبد الله السقاف ، وقد تكلم الحبيب علي في ذلك بما سنذكره : وهو أن سيدي الوالد مرض مرضاً شديداً ، حتىٰ خشي موتُه ، فذكر ذلك بعض محبيه لسيدنا الحبيب علي ، فقال : إن الحبيب سقافاً مدنف ، فقال : لا تخف علىٰ سقاف ، إن شيء بايكون . . أفديته بنفسي ، فإن نفعه عام ونفعنا خاص ، ومرةً قال : ادعوا لسقاف ، فإن النفع إلا منه ، وما أنا إلا ٱبن نفسي ، أو كما قال .

ووقع لسيدي الوالد أنه رأىٰ ليلةً أنه يسير خلف سيدي الحبيب علي ، ومع الحبيب ضوء بيده ، حتىٰ وصلا بيتاً ، فأعطاه الحبيب علي

الضوء ، ودخل هو ، فلما أصبح قص الرؤيا علىٰ الحبيب علي ، فقال : أموت قبلك وتكون خليفتي ، فكان كذلك وكم غيرِ هٰذه مما شوهد بالعِيانِ ، ولم يَحتَجْ إلىٰ برهان ، وذلك شمس ظاهرة لكل إنسان .

وتخرج علىٰ الحبيب علي أيضاً جمع كثير منهم الشيخ العارف بالله محمَّدُ بن عبدِ الولي بارجاء ، والأخ عمر حفظه الله والأخ حسين بن علوي وأما سيدي الوالد فهو أجل مَن تَخَرَّجَ عليه ـ كما تقدم ـ وفني فيه غاية الفنا ، حتىٰ آمتزجا لحماً ودماً ، وقام بشروط المَشيخة حقاً وصدقاً ، قرأ عليه كُتُباً جمةً آخرها البخاري ومسلم ، وليس كثرة الكتب تنفع إلا مع القيام بشروط المشيخة ، وإلا فسطر واحد مع القيام بشروط المشيخة . . يكفي ، كما قال الفقيه عمر بامخرمة :

شُفُتْ ما بين تَسطيرِ الكُتُبْ والحَواشيْ   سَطِرْ رَوَّانِيَ[1] الراكبْ ومَنْ كان ماشيْ

إشارةً إلىٰ قول القشيري في رسالته ، وسُئِل بنان الحمال عن أجل أحوال الصوفية ، فقال أربعة : الثقة بالمضمون ، والقيام بالأوامر ، ومراعاة السر ، والتخلي عن آلكونين .

وكان سيدي الوالد إذا جلس بين يدي شيخه المذكور . . قَصَرَ نظره عليه ، ولا يتكلم ما لم يَسأله ، ويرىٰ ذلك المجلس أكمل من عباداته ومجاهداته ، حتىٰ أنه مرةً أجتهد في رمضان أتم الاجتهاد ، ثم اتفق له مجلس مع شيخه المذكور ، فرأىٰ ذلك المجلس أكمل من جميع عباداته ، وذلك لأن نظرةً من الولي الكامل ، مع أدب وحسن ظن . . توصل الإنسان إلىٰ ربه في طرفة عين ، وقد قال لي الوالد : لو قال لي

---

(١) عرفني وعلّمني وشفت أي نظرت .

الحبيب علي : أخرج عن مالك . . لخرجت عنه ، وهـٰذا ميزان عادل ، فقد يدعي شخص غاية الامتثال ، فإذا أمتحن بذلك . . لم يمكنه ، وفي المثل : عند الامتحان يكرم المرء أو يهان ، ولشدة محبته وعقيدته لشيخه علي : المذكور ، خرجت يوماً نُخامةٌ منه فتلقاها سيدي الوالد وسرطها[1] ، مع أنه لو تنخم أحد في مجلسه يتغير ، ولم يحتمل ذلك المجلس ، فتأمل وتأدب ولا يكن حظك النقلَ من كتاب إلىٰ كتاب بلا أدب ، فيكون حظك العَنا والتعبَ ، كما قال الأخ حسينُ بن علوي : ما حصلنا شيْء من قل الأدب مع المشايخ ، وهـٰذا لي لا له ؛ لأنه قام بغاية الأدب مع شيخه علي المذكور ، وفاز مع الفائزين .

وأخبرني الوالد ، قال : أراد سيدنا الحبيب علي عمارةً في بيته المعروف ، فألتمست منه أن يأخذ ما أراد من الأقبال[2] من مكاني المسمىٰ علي بن بَدْرٍ ، ثم إني أخذت شيئاً من نحات العود ، فلم يَدْر ، الحبيب علي من أخذ ذلك ، فلما أقبل سيدي الوالد ، وكان الحبيب علي في جمع عظيم . بادر بعض الحاضرين وأسر إلىٰ سيدي الوالد ، لا تقل إني أخذته ، فلما وصل إليه . . قال له : أنت أخذته ؟ فقال : نعم . فعاتبه ، وقال : من خرج منه شيء لا يرجع في شيء منه ، فأنظر كيف عامله بالصدق ، ولم يكتمه ، وأحتمل العتاب مع الجم الغفير ، وأخبرني الوالد قال : إن الحبيب لم يردني بذلك الكلام ، وإنما أراد الحاضرين ، أما أنا فهو عالم بي أو كما قال ، وأخبرني أيضاً أن مدينياً[3] في نخل عليٍّ بن بدر . . أتىٰ بخريف في غير وقته ، فكان

---

(١) سرطها : أي بلعها .

(٢) جمع قُبْلٍ ، وهي الأخشاب التي تستعمل في سقف المباني .

(٣) هو نوع من النخل. قالوا: إن أصله من المدينة، وأنه المسمى بالعجوة. وقيل: إن=

بجمعه للحبيب علي كل ليلة حتىٰ فرغ ، ولم يأخذ منه شيئاً لنفسه ولا لأحد من أهله ، ولا من أولاده ، بل كان كله مع شيخه ، إلا إن كان من قِبَل الطَعْم .

وأخبرني الوالد : أنه حصل علىٰ بعض أقارب شيخه أذىً من يافعي ، فزال الحبيب علي بسبب ذلك من (سيون) إلىٰ بلد (الغرفة) ، فاستدان سيدي خمسةً وعشرين قرشاً[1] وأعطاها الظالم بلا علم من سيدي علي ، ورجع الحبيبِ علي إلىٰ (سيون) ، وهٰكذا كان لا يترك شيئاً يكدر خاطر شيخه الحبيبِ علي ، بل يسعىٰ علىٰ الدوام فيما يجلب له الصفا والأنس ، بحاله وماله ، حتىٰ كان وقت سيدنا الحبيب علي كله صفا ونوراً ، وفاءً بحق شيخه رضي الله عنهم أجمعين ، وأُخبرت : أنها خرجت من الحبيب علي قملة مرةً فسرطها سيدي الوالد ، وهٰذا غاية تعظيم المشايخ ، أن لا يستقذر منهم ما يستقذره الناس .

وأخبرت : أن الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ ـ أو غيره ـ من كبار الصوفية . . طلب من شيخه خدمةً ، فقال له : قد كُفِينا جميع الخدم غير تنظيف أحجار الاستنجاء ، هي وظيفتك ، فكان كل يوم يأخذها من الحش ويغسلها ويردها لشيخه ، حتىٰ وصل بسبب ذلك إلىٰ الله .

ورأيت سيدي الوالد لما وصل كتاب من الأخ عبد الرحمٰن بن علي إعلاماً بوصوله من (جاوه) . . لم يتمالك عند قراءته من العبرة ، وقد

= العجوة مما غرسه النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم بيده الشريفة .

(١) هو الريال النمساوي الذي يُتعامل به آن ذاك ، واستمر التعامل به إلى ما قبل نصف قرن تقريباً ، ويسميه العامة بالفرانصة .

قال قبل ذلك . . إن وصل فلان يعني المذكور من (جاوه) وعاد[1] أحد من بناتي زوجته بها ، وذلك وفاءً بحق شيخه وقياماً بتعظيمه لأولاده .

وأخبرني بعض محبيه قال : سَمَرْنا ليلةً عند الحبيب علي ، فلما خرجنا . . اتفقنا بالحبيب سقاف ، فقال: هل أخبركم الحبيب علي بشيء ؟ قلنا : لا ، فبقي يحك[2] ، ثم قال: سيحدث هٰذه الليلة شيء في الأرض ، فكان كما قال ، ولما أُخبر شيخُه الحبيب علي بذلك ، قال : سقاف يطالع في اللوح المحفوظ ، فأعظم بهٰذه الشهادة من هٰذا الإمام .

ومن مشايخه رضي الله عنه سيدنا الإمام عبد الله الحداد ، وكان السببَ في ذلك النصيبَ الأوفرَ المُشارَ إليه بقول الفقيه عمر بامخرمة :

نادمُوني سُقاتُهْ بِهْ وَنَا فِيْ الصِّبا أَلْعَبْ قُلتْ مَانَا هنا قالوا بَلَى لا تَغَيَّبْ

إلىٰ أن قال :

خُذْ عَطانا بِلا مِنَّهْ فذا طبعْ مَن حَبْ

كان سيدي الجَدُّ محمَّد ـ رضي الله عنه ـ يزور (تريم) كل سنة أو دون ، وكل زيارة يسير بواحد من أولاده ، ففي زيارة كانت النوبة للعم عمر ، فليلة النفوذ . . وقعت شوكة في رجله فحبسته ، فنفذ سيدي الوالد ، فلما وصلوا (تريم) وزاروا الحبيب عبدَ اللهِ الحداد . . قال الحبيب عبد الله للجد محمد : ولدك هٰذا فيه زائد ، وقرأ عليه الفاتحة وتبرك به ، ويقال : إنه قال له : ولدك هٰذا حاله حالُ الشيخ عبد الرحمٰن السقاف ، وفي ولدك علامة من علامات الشيخ

---

(١) أي : وقد بقيت إحدى بناتي لم تتزوج ، زوَّجتُه بها .

(٢) يبحث ويتتبع .

عبد الرحمٰن السقاف ، أن أحد منخريه أقصر من الآخر ، فهٰذه الواقعة العظيمة حصل فيها الفتوح والمنوح ، (قَرْعة واحدة ، وافقت حَروقاً[١] صافياً) ، وهٰذه الجلسة المرادة بقول القائل : (جلوسك بين يدي وليٍّ لله كشج بيضة . . خير لك من أن تتقطع في العبادة إِرْباً إِرْباً .

ومن مشايخه رضي الله عنه : سيدي الحبيب أحمد بن زين الحبشي ، كان يختلف إليه ويلازمه من صغره ، وكان الحبيب أحمد يقول للجد محمد : سقاف إلا ولدنا ، وأعظم بهٰذه الإشارة ، وقرأ عليه كتباً عديدةً ، وحصل له منه السر الوافي ، وكان سيدي الوالد يخبر أن الحبيب أحمد إذا أخذ في الدعاء . . يُطوِّلْ ويغيب عن نفسه وعيناه تُهمِلانِ[٢] ، وسيدي الوالد ينظره ويتلقىٰ منه مما يفيض عليه من العطايا الجليلة ، وغيرُهُ مستغرق بالدعاء معه .

فافهم الفرق بين من يشتغل بنفسه ، وبين من يتلقىٰ من الولي الكامل ، الذي هو في حضرة ربه ، وكان سيدي الوالد كثير التردد إلىٰ (خلع راشد)[٣] ، والحبيب أحمد أخذ عن القطب الحداد ، وتخرج به ، وفني فيه ، وإذا وصل (الحاوي) . . يطوف ببيت شيخه الحداد ، ويستحضر قول القائل :

أَمُرُّ علىٰ ٱلديارِ ديارِ لَيلَىٰ ... أُقبِّلُ ذا ٱلجدارَ وذا ٱلجدارا
وما حُبُّ ٱلديار سكنَّ قلبي ... ولٰكن حبُّ مَن سكنَ ٱلديارا

---

(١) الحَروق : ما تشعَل فيه النار عند قدح الزَّنْد ، والقرعة : القدحة ؛ أي : الحكة لإشعال النار ، والمراد هنا : حصول الفتح والسر والارتباط بالشيخ من أول لقاء .

(٢) أي : تدمعان .

(٣) هي حوطة الحبيب أحمد بنِ زينِ المعروفة، كانت تسمى بذلك ثم غلبت تسميتها بالحوطة .

وكان إذا صلىٰ معه . . يقف خلفه ليحاذي قلبه قلبه ، ويقول : إن لله نظرات إلىٰ قلوب أوليائه ، فلعله إذا نظر إلىٰ وليه . . أدركتني تلك النظرة ، وحسن الظن في المشايخ مغناطيس القلوب ، وناهيك به تعظيماً آمتداح شيخه الحداد له ، إذ قال :

أمّا ٱلحبيبُ ٱلسيدُ ٱلبَرُّ ٱلذي … أعلىٰ له ٱلربُّ ٱلعظيمُ منارا
وأَقَامَهُ داعٍ[1] إليه بقولِهِ … وبفعله من غير ما إنكارا
فٱللهُ يُبقيه ويرفعُ قدرَه … ويُنيلُه من بِرِّه أوطارا
ويَزيدُه علماً ومَعرفةً بِه … وسعادةً لا تنتهي لِقُصارا

قال فيه شيخه الحداد : أحمد أبو المساجد ، وكان كما قال عمر مساجد جملة ، وكان إذا قيل له : فعلت كذا من أمور الخير . . يقول : هٰذا من صاحب (الحاوي) ؛ وإنما أنا حسنة من حسناته ، وكان كثير الأدب جدّاً مع شيخه الحداد ، وغالب تصانيفه في حياته وسمعها وآغتبط بها ، ولما توفي شيخه المذكور . . قال : ما عاد بقي لأحد عندنا حق ، ويقول : ما لي وللحجر والمدر .

وأخبرني شيخنا الإمام جعفر بن أحمد : أن والده كان إذا جلس تحت ظل نخلة من نخلِ مساجده ، أو ربط بها دابةً . . قال كم يساوي جلوسنا في ظلها أو رَبْطُ دابتنا بها ؟ فإذا قيل : كذا . . زاد عليها وبذل تلك القيمةَ للمسجد ، فأنظر شدة ورعه وكمالَهُ ، ولا يمكن آستقصاء مناقبه رضي الله عنه . اللهم . . آجعلنا من محبي أوليائك .

---

(١) داعٍ : أي داعياً ، فهو كقول الشاعر :

ولو أن واشٍ باليمامة دارُه … وداري بأعلا حضرموتَ اهتدى ليا

فتقدر الفتحة كما تقدر الضمة والكسرة .

قال صاحب « الحِكَم » : (إلـٰهي إنك تعلم ، وإن لم تدم الطاعة بنا فعلاً وجزماً . فقد دامت محبةً وعزماً) ، اللهم . . إنك تعلم أنا نحبهم لك ، فأكرمنا ـ يا مولانا ـ بما منحتهم ، وآحشرنا في زمرتهم ، يا أرحم الراحمين .

ومن مشايخه رضي الله عنه : سيدنا محمد بن زين بن سميط كان سيدنا الوالد يكثر التردد إليه ، وكان أي : الحبيب محمد . . يعظم الوالد جداً ويحترمه ، ولشدة محبته له . . أزال من قلبه صورة الاحتشام والمحاذرة له[1] ، حتىٰ قال : سقاف . . أعظم من عيالي في عدم المحاذرة ، فكان الوالد إذا وصل إلىٰ (شبام) . . يأخذ ثمانية أيام في بيت الحبيب محمد ملازماً للقراءة والأدب الكامل ظاهراً وباطناً ، وكان الحبيب محمد يقول له : إيش قال فيك الحبيب عبد الله ؟ فبقي الوالد يتلجلج بالكلام أدباً وتستراً ، فقال له الحبيب محمد : تركك الحِكا رياء ، حتىٰ أعلمه بما قال ، وكان سيدي الوالد إذا وصل (شبام) يوم الجمعة . . لم ينفذ إلىٰ الجمعة الأخرىٰ ، فكان الحبيب محمد يقول له : نكره الجمعة لأجل نفوذك ـ يا سقاف ـ يوم الجمعة ، وكان يقول : وصولك إلينا ـ يا سقاف ـ نفرح به أعظم من أن يحولون[2] بسيل ، ومرةً وصل إليه الوالد ، ومعه الأخ محمد ، فقبل الحبيب محمد الأخ محمداً ، وقال أهلاً بالسلطان ابن السلطان ، فأنظر هـٰذا الإجلال لسيدي الوالد ، وآفهم الإشارة ، وقد كان سيدي الوالد لا يرىٰ لنفسه مقاماً ولا حالاً مع أهل وقته ، ومشايخه وأقرانه ، بل حتىٰ عوام وقته

---

(١) أي : الكلفة . ويقولون : لا ألفة مع كلفة .

(٢) يصوتون بكلمات تعبيراً عن فرحهم بالسيل ، وهي قولهم عندما يشاهدون السيل : يا حول حولاه . . إلخ .

يرىٰ لهم الفضل ، فبذلك حاز جميع الفضل ، وكان جميع مشائخه يحبونه ، ويعظمونه ، ويأخذون عنه ، قال سيدنا محمد بن سميط : نتعلم الصدق من سقاف .

وأخذ سيدنا محمد المذكور علوم الطريقة والحقيقة عن سيدنا أحمد بن زين ، كان له تردد عظيم إليه ، وٱعتناء كلي ، وله معه مكاشفات ، أخبرني سيدنا عمر بن سميط : بأنه خرج هو والحبيب محمد لزيارته في رمضان ، فقبل ٱجتماعهما به . . قال الحبيب محمد : يا عمر ؛ إن شيء صِدِقْ معنا[1] مرادنا الحبيب أحمد ينادي نحن ، ويقول : ٱحْضُروا ختمنا القابلة وأَحضُرُ ختمكم في مسجد معروف ، فلما ٱجتمعا به . . قال لهما : ذلك نفع الله بهم أجمعين .

ومن مشايخ سيدنا الوالد : الحبيب عمر حامد ، قرأ عليه كتباً جمةً ، منها « التنوير » في مجلس أو مجلسين ، وٱمتلأ به ٱمتلاءً عظيماً ، وكان مغتبطاً بأخذه عنه ، ويقول : جزىٰ الله حامداً خيراً ، هو الواسطة في أخذي عن أبيه ، والظاهر أنه لبس منه الخرقة الصوفية ، وحصل له منه المدد الباطني ، وكان كثيراً ما يقول به ، واللبس المذكور ـ أي : لبس التحكيم ـ منتهىٰ الغاية في حق المشايخ الكبار ، لأن اللبس حقيقةً : ٱنتقال صفات ومقامات الشيخ وأخلاقه إلىٰ المريد المتأهل ، ويصير هو وشيخه كالشخص الواحد ، فكان سيدي الوالد شبيه سيدنا عمر شيخه ـ رضي الله عنه ـ في كمال عقله ، وكان سيدنا عمر رضي الله عنه ممن خصه الله بعلم الظاهر والباطن وكان كثير الصمت لا يتكلم في شيء من العلوم ، الغالب عليه الحزم والأدب مع الله ، وكان كثير الفكر

(١) أي : إن كنا صادقين.

مع الله ، بل التفكر أغلب أحواله ، ويقال : إنه أعقل تلامذة سيدنا الحداد وإنه عين تريم ويقال : إنه لم يكن منه كلام إلا عند موته في شيخه الحداد ، حتىٰ قال لسيدنا حسنِ بن عبد الله : عرفت ـ يا حسن ـ حال أبيك ؟ بات المحب مع الحبيب ، وكلام كبير ، وكان الحبيب عمر في مرض موته كثير الغسل كل يوم مرات ، وذلك من كثرة العطايا من الله ، والمواهب والأحوال والمقامات ؛ لأنه لم يكن له تَنَشُّم وتروح ، بل هو كاتم لما معه ، ولولا كونه جبلاً راسخاً . لاندكت قواه من أعباء المعرفة .

وبالجملة : فسيدنا عمر قليل المِثْلِ ، وسيدنا الوالد ممن خُصَّ بشيء من أحواله ، فكان دأبه كِتْمانَ أسراره وأفعاله وأحواله إلىٰ أن مات ، وكان الوالد مغتبطاً بأخذه عنه ، مع أنه أخذ عن جملة أهل وقته ، فكان يقولُ : ما أحد من إخواني أخذ عن المشائخ مثلي ، منهم من اقتصر علىٰ أبيه ، ومنهم من اقتصر علىٰ البعض ، وأنا سعيت لجميع مشايخ عصري ، وأخذت عنهم الجميع ، وذلك ببركة والدي ، حيث لم يمنعني من أحد ، ويقول : ما أحد وقع له مثلي من أمثالي ، ولا شك أن الأخلاق التي خصه الله بها هي أخلاق الصوفية جميعُها ، لم يكن خُلُقٌ من أخلاقهم إلا وقد حازه ، مع أن كل من تتبع أحواله وأخلاقه جميعها ، وأمعن النظر بعين البصيرة النافذة . . عرف ذلك ، وكنت متفكراً في ذلك غاية التفكر مع اختلاطي به ، وأتأمل في من رأيته من مشايخه وأقرانه ، لم أر من علىٰ شكله ومنواله في أموره وأحواله وأفعاله ، حتىٰ وقع لي في ورقة كتبتها جواباً للأخ علوي ، وذكرت فيها ـ بعد تأملي لتكميل أخلاقه . . : لو قيل للأولياء كالأنبياء ختام . . لكان سيدي الوالد ، وبعد ذلك وقع في قلبي أني تجاسرت علىٰ كلام لم أُسْبَقْ

بمثله ، وبقي ذلك في قلبي ، ثم بعد وفاته بخمسة أيام أو ثمانية . . خرجنا نحن وسيدنا الإمام حامد إلىٰ (مَدُودة)[1] ، إلىٰ دار بعض المحبين ، فحين جلسنا نظر سيدي الحبيب حامد إلي ، وقال : إن شيء كتابٌ[2] أقرأ . ولم يكن معيْ كتاب ، فوجدت كتاباً في رَف المنزل الذي نحن فيه فأخذته ، فأول نكشة[3] في الكتاب كانت في سيدنا الفقيه ، وهي : ولو قيل للأولياء ختام كالأنبياء . . لكان سيدنا الفقيه ، والخاطر المذكور قبل القراءة يجول في قلبي ، فعرفت صدق ما قلت ليطمئن قلبي ، والأمر فيه أعظم مما قلت فيه ، وشواهد ذلك معلومة بالعيان .

ومن مشايخه رضي الله عنه : سيدُنا الإمام حسنُ بن عبد الله بن علوي الحداد ، أخذ عنه العلم الباطن ، وهي طريق الصوفية ، التي منتهاها الوصول إلىٰ ما هو مذكور في كتب الصوفية ، أخذ عنه وتأدب بين يديه ، وقام بحق المشيخة في الأدب الباطن والظاهر ، وكان إذا جلس لم يكن له ألتفات إلا إليه ، كما هو عادته في مشائخه ، حتىٰ أني لم أره يجلس معه متربعاً ، بل جلوس المنكسرين المتذللين ، وقرأ عليه كتباً ، وكان سيدي في آخر وقته . . يميل إلىٰ النظر إليهم والجلوس معهم أكثر من القراءة ، كأنه ـ والله أعلم ـ تأخذ القراءة من قلبه شيئاً ، والجلوس والنظر يجتمع معه أكثر ، والمدد الكامل لم يكن إلا للمتلقي الكامل ، فالمدد علىٰ قدر المشهد ، والمشهد الكامل الذي لم يكن

(١) قرية تقع شمال مدينة (سيون) تبعد عنها بنحو ثلاثة كيلو .
(٢) أي : إن حصل كتاب .
(٣) أي : فتح للكتاب والنظر فيه .

لقلبك ٱلتفات إلىٰ غيره . وكان يذكر كلاماً خرج من سيدنا حسن في زيارة نبي الله هود ، وكان مغتبطاً به ، وهو أن زيارتك ـ يا سقاف ـ أثلاث ، ثلث للشيخ أحمد بن علي بن الشيخ أبي بكرِ بن سالم جبراً لقلبه ، وثلث جبراً لأهل (سيون) وثلث خالص لله ، فكان يقول : إذا صح لي ثلث خالص لله . . فما أعظم ذلك عندي ، فما كان بخاطري أن شيئاً من زيارتي لله حتىٰ عشر قيراط ، فإذا كان لي ثلث . . فهو نصيب عظيم ، وهـٰذا الكلام يقتضي أن زيارته كلها لله ، غير أن الثلثين فيها بٱسم الجبر ، وهـٰذا الجبر من أهل الله هو عين الفضيلة ، وقد يقع الحظ الوافر فيه ، ولـٰكن هـٰذا الكلام قد يقع فيه تنبيه للغير وحث علىٰ العمل الخالص ، ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر : ٣] .

وكان سيدنا الإمام حسن طوداً شامخاً في جميع العلوم ، صاحب مجاهدات ومكابدات من صغره ، وكان صاحب عزم وٱستقامة ، ما أحد بلغ مقامه فيها ، فعز أن يكون له في وقته نظير ، وكان له من أبيه عناية ونظر ، زيادةً علىٰ إخوانه ، فكان يقول له : حسن الله عاقبتك يا حسن ، فكان الأمر كما قال له ، قيل إنه توفي عليه عشرة أولاد غسلهم بيده كُلَّهُم ، حتىٰ وُجِدَ سيدنا الحبيب أحمد ، وتربىٰ علىٰ يديه ، وصار إمام وقته ، فسار إلىٰ بيت الله الحرام ، فلما كان في البحر . . حصلت ضربة شديدة ، وٱنكسر بهم المركب ، وبقي الحبيب أحمد علىٰ سُفْرَةٍ[1] ثلاثة أيام ، حتىٰ حصل الفرج ، وكان لسيدنا حسن كرامات ونيات عظيمة ، قد يطلع إلىٰ شعب من شعاب (تريم) ، فيجلس فيه وقتاً تحت حجارة يتعبد فيها ، وكان كثير الزيارة ، ينفذ

---

(١) لوح من ألواح السفينة المحطمة .

أحياناً إلىٰ (عَسْنَبَ)[1] وحده يتجرد ، وكان كثير التجرد لزيارة الأولياء والمآثر وحده رضي الله عنه ، وكان في آخر عمره ـ رضي الله عنه ـ مستغرقاً بربه ، تجلس معه مَجالسَ عديدةً طويلةً فلا يتكلم ، بل تراه مطرقاً ، وفي حضرة ربه مستغرقاً ، مُغَمِّضاً عينيه كأنه أعمىٰ ، وما هو بأعمىٰ ، بل هو كما قال الشيخ أبو بكر العيدروس :

كَـمْ شَخْـصٍ تَنظُـرُهُ جـالسـاً وروحُـهُ فـي ٱلعُـلا تَجـول

وهٰذا مقام الكمل العارفين ، هم مع الخلق صورةً ، ومع الله حقيقةً ، وهو عزيز جداً لا يقع إلا لخُلَّص عباد الله العارفين .

وكانَ كثيراً ما يقول إذا أضافنا أو أضاف أحداً من المنسوبين إلىٰ العلم ، كلوا من حَقِّنا هٰذا فإن السر في آخر زمان لا يحتمله الإنسان إلا في القوت ، وفي غيره عسير ويسير ، وهٰذا كلام أبيه[2] رضي الله عنه ، وقال : قال لي مراراً عديدةً هٰذا الكلام ونحوه ، وكان كثير المكاشفات ، وقع يوماً مع بعض طلبة العلم مشاجرة ، علىٰ عادة طلبة العلم تكون المشاجرة والمنافرة ، فحين صافحه المشاجر . . قال لهم سيدي الحبيب حسن : بلادكم أستر لكم ، سدوا[3] ، وإلا ارجعوا إلىٰ بلادكم ، هٰذا وأنا حاضر معهم ، ووقع يوماً أني خرجت أنا والأخ علوي إلىٰ بيت سيدنا حسن وقت الضحىٰ ، فطلب الأخ علوي ماءً

---

(١) عَسْنَبْ : هو المكان الذي فيه قبر نبي الله صالح عليه السلام . ويقع في وادي سَرْ على بعد حوالي ستين كيلو غرب مدينة (سيون) وفيه يقول الحبيب عمر بن سقاف :

سِر إلـى سَـر تستـوي كـل حـالـة وتنـال المنـىٰ وتعطـى الجمـالـة
فـي ربـى عسنـب محـط الأمـانـي مهبـط الـوحـي والبهـا والجـلالـة

(٢) الحبيب عبد الله الحداد .

(٣) أي: اصطلحوا .

ليوهم أنا قد تغدينا وما به ظمأ ، فقال الحبيب حسن : لا تطلب الماء ، ما بايقع لك غداء إن باتشرب أولا .

هٰذا منه مكاشفة ، حيث أعلمه بخاطره ، ليكون علىٰ حزم تام مع أوليائه ، ولا يعاملهم بخلاف الصدق ، فإنك إذا كنت مع أولياء الله . . آحفظ قلبك ، فإنك علىٰ خطر معهم ، اللهم ألهمنا الصدقَ مع أوليائك ، والأدبَ مع أحبائك وأصفيائك ، إن لم تتداركنا بحفظك . . هلكنا مع الهالكين .

وكان سيدنا الإمام حسن ـ رضي الله عنه ـ من أزهد عباد الله الصالحين ، بلغ في مقام الزهد مقاماً يقصر عنه الفحول من الأكابر ، غالب مجالسه ومدارسه في ضيقةِ[1] مكانِ أبيه ، ما علمت أنه وضع لبنةً علىٰ لبنة ، جالس علىٰ أديم ضأن ، ما رأيت تحته فَرْشاً من الفرش الوطيئة ، وكان يقول لأولاده : ما زال عادنا في الوجود . . أنتم في ضنك ، وإذا رحت . . يوسع الله عليكم ، فكان الأمر كما قال ، وكان في قوام قوته وأهل دائرته . . مثلَ جده صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، والغالب أن بيته خلي عن الدنيا ، وهو مع ذلك راض ومستبشر به وشاكر ، وهٰذه أخلاق الصوفية أهل الرسوخ في المعرفة .

والزهد الصافي في زماننا هٰذا أحسن الطرق إلىٰ الله ، وأشقُّها علىٰ السالك ، لأن من تحقق بالزهد . . وصل ؛ لأن العوائق المانعةَ معه تَقِلُّ بل تضمحل ، فصار السالك به كالمتجرد ، ما له حاجة إلىٰ مطلوبه . بل قال الشيخ عمر بامخرمة : يشير إلىٰ التبتل إلىٰ طريق الصالحين ، علىٰ التسليك والتهذيب في آخر كلامه قولاً ما يوجد أصلاً ، والشيخ

---

(١) الضيقة : دهليز الدار .

ما أراد أنقطاع الوصول ، وإنما عمىٰ بالوصول علىٰ الطريقة المذكورة ، حتىٰ قال في آخرها : (إذلِ دَلْوكَ مع الوُرّاذ ما بين لِذلا) ، وقد أشار سيدنا الإمام عبد الله في بعض قصائده إلىٰ الوصول بطريق الزهد ، والشيخ أبو بكر بنُ عبد الله العيدروس إلىٰ ما في معنىٰ ذلك .

كان سيدنا الإمام حسن إذا نظرت إلىٰ زهده ومقامه فيه . . أخرج من قلبك الدنيا ، ورغبك في الآخرة ، هٰذا عادة أهل الله الصالحين ، يجدي في قلبك نظرهم قبل أقوالهم وأفعالهم ، وكان من ورعه العظيم أنه ما وضع يده علىٰ يد آمرأة أجنبية ، فكيف النظر ؟ وكان من شدة آجتهاده ما ركب وهو ساع إلىٰ طاعة ربه ، حتىٰ في آخر وقته يخرج إلىٰ مدرسه في السبير ، وهو بعيد ، من مكانه يزيد علىٰ ثُلُثي ميل ، يخرج يسير ويطلع راكباً ولم يركب ، حتىٰ عَجَزَ ، هٰذا دأبه ، ولا أرىٰ أنه ترك سنة السواك أو غيرها من السنن ، وما آهتم مدة حياته ، لِقُوَّةِ يقينه ومعرفته بربه ، ولا صلىٰ منفرداً ، محافظةً علىٰ ما به رضوان الله ، هٰذا ما آطلعت عليه من بعض أوصافه ، فقس ـ أيها المتشوق ـ إلىٰ بلوغ مقامهم ما لم تره علىٰ ما رأيته ، فإنهم أعطوا العبودية حقها وتحققوا بقول الله فيهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة : ١١١] .

اللهم . . كما قربتهم إليك بحبك . . فقربنا إليك بحبنا لهم ، وإنا نظرناهم بعين التعظيم والإجلال ، فلا تخيب رجاءنا يا أكرم الأكرمين .

ومن مشايخه رضي الله عنه : سيدنا وشيخنا محمَّدُ بنُ ياسين باقيس رضي الله عنه ، كان من أكابر الصوفية العارفين ، والعلماء الراسخين ، شرب من عين الحياة الأبدية التي من طعمها تاه في ميادين القرب ، فهنيئاً لمن أتحفه مولاه أن يكرم ، وأي كرامة بعد كرامة الله له ، كان

سيدنا ومولانا محمد المذكور. تضلع من علم الظاهر والباطن، ومنحه الله من المواهب القدسية والعطايا الربانية.. ما لا يدخل تحت وهم ولا علم ولا فهم، بل هو علم لدني: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، ولكن ذلك لما سبقت له من ربه السوابق.. شمر في شأو الصالحين، أيَّ: تشمير، فاغتنم فرص الزمان، ولا عاقه شيء من العوائق، أخذ عن شيخه قطب الوجود سيدنا عبد الله بن علوي الحداد، وجملة من أكابر الصوفية، أما سيدنا عبد الله فأخذ عنه علم الظاهر، ونظر إليه نظر رحمة وإقبال، وسقاه وأرواه من الصافي الزلال، وكان يختلف إلىٰ سيدنا عبد الله أياماً من مكانه (حلبون)، ويبيت بـ(سيون)، يقطع نحو ثلاث مراحل في يوم واحد، وهو ماش غير راكب، هٰذا دأبه، أخبرني بذلك حتىٰ قال: أبيت ببيت آل يوسف، يسأل عنهم. حتىٰ في آخر عمره، كان مقعداً من شدة سيره إلىٰ حضرة شيخه، وكان ممتَلِئاً بشيخه غاية الامتلاء، إذا ذكره أو رأىٰ أحداً من أولاده.. لم يتمالك من شدة تعظيمه، بل رأيته يقبل أحد أولاد سيدنا الحبيب عبد الله، ويتمسح به، ويقول: يا عبد الله حداد، كأنه شيخه، وقال لي: قل لمن له يد عند سيدنا الإمام علي بن عبد الله ـ وذلك حين علم بوفاته علىٰ القرب ـ: من لا يعظم أحمد ولدُهْ.. انقطع مددُهْ، بل قال لي: قل لهم.

وكان له من سيدنا عبد الله مكاتبات إليه مدونة، وكان لا يقول إلا بسيدنا عبد الله؛ لأنه لا يرىٰ غيره، وكان مقامه مقام هيبة، حتىٰ وقع لي حين نويت زيارته، قال لي سيدي الأخ حسينُ بن علوي: إذا وصلت إلىٰ حضرة الشيخ محمد. اذكر مشائِخَكَ، فعجبت من هٰذا الكلام، وقلت في نفسي، ما عندي أكبر مقاماً ولا حالاً من سيدنا

الحبيب علي ولا والدي ، فلما وصلت حضرته رأيت عليه من الهيبة والجلالة أمراً عظيماً ، ففطنت لكلام سيدي حسين ، حتىٰ خطر بقلبي خواطر ، وهي : لعل يكون لنا من الشيخ نصيب ، فأرسل بعد خروجي من عنده بكلام ، ثم وقع لي خاطر ثانياً أن القائل لي بما قاله الشيخ ما يكون ذلك من الشيخ ، فلما وصلت حضرته . . ناداناا بما قاله ، وكان قوتَه العلم والقرآن ، لا يفتر منه ساعةً إلا وقت عذره ، وكان سيدنا الوالد يعظمه جِدّاً ، وهو الذي أشار إلي بالنفوذ لزيارته ، فحصلت ببركته الزيارة العظيمة ، والقبول ـ إن شاء الله ـ التام ، حتىٰ قال لي سيدي الوالد . . اذكرونا بالدعاء في حضرة الشيخ محمد ، فناهيك بهٰذا تعظيماً واتصالاً .

وأخبرني ولده الشيخ عبد القادر ، فقال : زار والدك (دوعن) في بعض السنين وكنت بـ (حلبون) أريد السفر إلىٰ (الشحر) ، فلما أردت الاستخلاف[1] من والدي . . قال لي قف قليلاً ، الحبيب سقاف واصل إلينا ، ولا عندنا خَبَرٌ بوصول الحبيب سقاف إلىٰ (قيدون) ، فعجبت من ذكر والدي له ، فما تم الخاطرُ[2] . . حتىٰ وصل الحبيب سقاف ، فعجبت من هٰذا الاطلاع العظيم ، وذلك لصدق الصلة العظيمة ، والمحبة الأكيدة من الجانبين ، وقرأ عليه كُتُباً لم أطلع عليها ، والظاهر أنه لبس منه خرقة الصوفية ، وكان كثيراً ما يلبس ويلقن لمن رآه أهلاً ، وإذا تكلم في علوم الصوفية . . لم يتحمل من حضر كلامه ، بل يصيح في حضرته من شدة هيبته ، هٰذا شاهدناه بالعين ،

---

(١) أي : الاستيداع عند السفر .
(٢) أي : لم يمض وقت طويل .

وكان لا يخطر لمجالسه خاطر إلا ناداه به ، ولما وصلنا إلىٰ حضرته ومع الأخ محمد بن عبد الله كُمَّةُ[1] سيدنا الحبيب علي بن عبدِ الله السقاف.. كشف عليها ولبسها تبرُّكاً بها وألبسنا إياها ، ورأيت ليلة وصلنا مكانهم (حلبون) الشيخَ فارسَ ، يقول لي : قم : ثلاث مرات ، والشيخ محمد بـ(الخريبة) ، فلما وصلت إلىٰ حضرته.. ذكرت له ما وقع لي من الشيخ فارس ، فقال لي : إن سيدنا الحبيب علي بن عبد الله السقاف يقول: يا شيخ محمَّدُ ، إنه حصل لي مدد من الشيخ فارس ، وصار لا يخرج إلىٰ (حضرموت)[2] فنهيته من عدم الخروج ، وقلت له : أخرج لا تمنع أهل (حضرموت) بركتك ، هٰذا أخبرني به .

وكان الشيخ المذكور كثير المجاهدة ، عظيم الحال ، له مدارسُ في (الشحر) في وقت يطلع إليها ، وكان في سلوكه ومواظبته علىٰ السنن لا يكاد يكون له نظير ، وكان يسلك المريدين ، وإذا رأىٰ الطالب بلا سواك.. زجره وأدبه ، وإن رأىٰ علىٰ المريد غير الثوب الأبيض.. يعاتبه ، فلا يخرج المتسلك من عنده.. إلا وهو علىٰ خير كبير ، وكان يجذب المريدين بقلبه ، من رآه امتلأ به ، كما قال الأخ حسينُ بن علوي : اذكر مشائِخَكَ ، لأن المريد إذا راح إلىٰ غير شيخه بلا إذن فرأىٰ أحداً أكبر من شيخه.. يقف في سلوكه ، وربما أصيب من شيخه ، فليتفطن المريد لذلك ، فإنها مزلة قدم ، وكان سيدي حسين وصل إلىٰ حضرته ، وطلب منه أن ينظم له أبياتاً علىٰ قدر حاله ، وما هو

---

(١) الكمة : كلمة فصحى، وهي القلنسوة المدورة .

(٢) الذين في منطقة (دوعن) ومنطقة الساحل يعنون بكلمة حضرموت : منطقة (تريم) و(سيون) و(شبام) وأسفل الوادي ، مع أن (حضرموت) أصلاً اسم للجميع .

عليه من التصدي في أمر القضاء ومخالطة الخلق وانتفاعهم به ، ففعل له أبياتاً عظاماً ، جامعات لما هو فيه ، ومناسبات لحاله ومقامه ، وهي :

إذا فَسَدَ ٱلزمانُ فَغُضَّ طَرفاً ... ولا تَركَنْ إلىٰ أهلِ ٱلفسادِ
وخُذْ ما ٱسْطعتَهُ بدوام سَتْرٍ ... ومَن تَرضاهُ من أهل ٱلوِدادِ
وَوَلِّ ٱلقومَ ظهراً وٱحْسِبَنْهُمْ ... بَهائِمَ رَاتعاتٍ أو جمادِ

فأنظر إلىٰ هـٰذا الكلام الجامع النافع في طريق أهل الله العارفين ، فإن هـٰذه الأبيات تكفي طالب الوصول ، فقد جمعت من علوم الصوفية ما لو شرح . . لم تسعه المجلدات ، ولو شيء أدنىٰ معرفة . . لتكلمنا عليه ، بما يدلك علىٰ علو مقامه ، ولـٰكن عدم المعرفة والأدب للمشايخ ، فإن كلامهم لا يقدر علىٰ الخوض فيه إلا هم ، رضي الله عنهم ، ونفعنا ببركاتهم في الدنيا والآخرة ، وكنت لما وصلت إلىٰ حضرته . . قرأت عليه الوصية ، التي جعلها الوالد لنا لما أردنا النفوذ إلىٰ حضرته ، فلما سمعها عجب منها ، وهي وصية جامعة نافعة ، من تأملها وأمعن النظر . . علم مقام سيدي الوالد ، الذي ما أظن أحداً بلغه ، ومعاملاتُهُ وأفعالُهُ كلها تُنبيكَ عن عُظْمِ حاله ، وبلوغِهِ مقاماً لم يبلغه أحد من أمثاله رضي الله عنه .

ومن مشايخه : سيدنا الإمام عمر البار[1] رضي الله عنه ، كان من العلماء العاملين ، والفحول المحققين ، أخذ عن سيدنا القطب عبد الله الحداد ، وكان يتردد إليه ، وتأدب بآدابه ، وأقتبس من أخلاقه وأنواره ، حتىٰ أشرقت عليه أنوار الولاية ، فصار كشمس الظهيرة ، أنتفع به أهل النور والبصيرة ، وتخرج عليه الجم الغفير ، وكان في

---

(١) الأول تلميذ الإمام الحداد ، أما الثاني : فهو حفيد هذا ، واشتهر بصاحب جلاجل .

(دوعن) داعياً إلىٰ الله بمقاله وأفعاله ، وممن تخرج عليه سيدنا الإمام جعفر بن أحمد الحبشي وجملة ، حتىٰ قال لي سيدنا الإمام جعفر بن أحمد : لما مررت عليه قاصداً لزيارة (دوعن).. قال : زر الحبيب عمر البار ، والشيخ سعيداً الساس[1] ، والحبيب عمر الرأس ، فناهيك بهٰذا الكلام فيه ، وقال لي سلم علىٰ الحبيب عمر عني ، وقد ٱمتدحه بقصائِدَ عزيزة فريدة ، تدل علىٰ عُظْمِ حاله ، ولا نطول بذكرهم فهم كالبحر ، ومن يقدر أن ينفذ البحر ، وما البحر في حقهم إلا كمخيط أدخلته فيه ، وقصدنا التبرك بذكرهم لتكون لنا علاقة بذلك ، فالفضل واسع ، والعبد طامع ، والتكرم غير مانع ، فكل من أحب قوماً فهو منهم ، اللهم ألحقنا بهم ، وأدخلنا في سلكهم ، ولا تحرمنا بركتهم ، يا أرحم الراحمين .

وها نحن قد ذكرنا جملةً من مشايخ سيدنا الوالد ، وبقي جملةٌ منهم ، وغرضنا أن لا نترك أحداً منهم ، ولٰكن قصدنا بذلك الاختصار والإيجاز ، كما قال سيدنا الحبيب عبدُ الله بن علوي الحدادُ في « العينية » : (حسبي وفي تَعْدادِهِم لم أَطْمَعِ) .

والمقصود الأعظم : أن سيدي الوالد ـ رضي الله عنه ـ أخذ عن ٱلمذكورين الجميع ، وقد قام بحقهم وأعطىٰ المشيخة حقها ، وكان له اليد الطولىٰ عندهم لِمَا رأوا عليه من ٱلتأَهُّل الكلي ، كان يأخذ عن مشايخه وأقرانه ، وكل من رآه مِن أهل وقته إلىٰ أن مات ، ستراً لحاله ومقامه ، مع أن مشايخه يرون له الفضل عليهم ، بل يعظمونه كأنه الشيخ وهم التلامذة ، ولاشك أنه رجعَ[2] لهم الشيخ ، أخذ عنهم

---

(١) أي: الأساس .

(٢) أي: صار هو الشيخ فيما بعد .

أولاً ، وأخذوا عنه بعد ، هٰذا وقع في جملة من المشايخ مثل سيدنا الحبيب عبد الله الحداد ، أخذ عن جمع ، ثم أخذوا عنه[1] ، رضي الله عنهم ، ونفعنا بهم في دار كرامته . آمين .

ذكر أقرانه

ثم أخذ ما أخذه من أقرانه الذين بلغوا في مقام الصوفية ما بلغه مشائِخُهُم ، بل زادوا عليهم .

أولهم: سيدنا ومولانا وحبيبنا ووسيلتنا إلىٰ مولانا ، أوحد عصره ، وفريد دهره ، قدوة المحققين ، وإمام الصديقين ، صاحب الولاية العظمىٰ ، والصديقية الكبرىٰ ، بدايته في الابتداء مثل نهاية أهل الانتهاء ، أقر له أهل زمانه بأنه عين أقرانه ، داع إلىٰ الله بأقواله وأفعالِهِ وأحواله :

سيدنا الإمام حامد بن عمر حامد : أخذ علم الظاهر والباطن عن والده الإمام عمر حامد ، وخاله عبدِ الرحمـٰن بن عبدِ الله بلفقيه ، سار بسير آبائه العارفين حتىٰ بلغ رتب التمكين ، تضلع في كل العلوم ، بل كان يتكلم فيها بما ليس بمسطر ولا معلوم ، يتكلم في العلوم والمعارف بما ليس يتكلم به صاحب العوارف ، أخذ في علوم القوم من صغره ، ثم أخذته الأحوال والمقامات في كبره ، وقد أحكم البداية حتىٰ بلغ النهاية ، وذلك لأنه في بدايته لم يتساهل في شيء مما يعوق عن البلوغ إلىٰ المرام ، حتىٰ أفتطم أي أفتطام ، فعند ذلك سِيقَتْ إليه مواهب الله

---

(١) وفي ذلك يقول الإمام الحداد :

أنـــا أدعـــو مـــن دعـــانـــي ‏ ‏ ‏ ‏ هكـــذا حكـــم القضيـــة

وعطاياه ، وفاض من ذلك وعاه ، فسقىٰ كل واطي وعال ، وكل شرب علىٰ حسَبِ ما قُسمَ له من ذلك النصيب ، وغمر ذلك الشرب البعيد والقريب ، فأول بدايته ما ٱلتفت إلىٰ الدنيا وما فيها ، بل ما لعب لَعِبَ الصبيان ، من صغره وهو ملتزم في عبادة الرحمـٰن ، وكان ملازماً والده لا يفارقه ، وقام بحق أبيه أي قيام ، وأكرمه أي إكرام ، أخبرني سيدي الوالد ـ رضي الله عنه ـ بأنه ما يطرد الذباب عن وجهه بحضرة أبيه ، ما يكون هـٰذا إلا لمن سبقت له من الله السابقة الحسنىٰ ، ومن له من مولاه اليد الطولىٰ دنيا وأخرىٰ ، وهم المَعْنِيُّونَ بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] ، وكان مع والده علىٰ هـٰذا المنوال ، لا يتكلم في حضرته ، وسريرته في ذلك أعظم من علانيته ، وكان لا يحيد عن كلام أبيه ، كان يقول ما جاءنا عن سلفنا ما نخرج عنه ، ولو كان ما كان ـ أي في ظاهر الأمر ـ وإلا كلام الصوفية علىٰ الحقيقة .

وكان ـ رضي الله عنه ـ ما عاقه عن الله عائق ، بل كان له من ربه قائد وسائق ، إلىٰ أن أوصله إليه ، وقربه لديه ، وكان في آخر عُمْرِهِ كل يوم يفعل مدرساً في بيته إلىٰ وقت الضحىٰ ، وله رقدة ، لطيفة دون فعل قهوة خفيفة ، بل من نصف فعلها ، وبعد ذلك يتوضأ لصلاة الظهر ، ويطلُعُ إلىٰ مسجد آل باعلوي ، لأنه إمام المسجد ، وإذا صلىٰ الظهر يطلُع إلىٰ دويرة المسجد ، بَخريّ المسجد مِشرّق[1] قليلاً ، يفعل مدرس فقه ، ورقائق إلىٰ أن يؤذن المؤذن للعصر ، فيتوضأ ويركع ويخرج لصلاة العصر ويصلي بهم ، وبعد العصر يخرج إلىٰ الروحة

(١) أي: جنوب المسجد إلى جهة الشرق .

والقراءة في كتب القوم ، ويجعلها في الشتاء في زاوية مسجد مقالد ، وفي الصيف في النخل الذي تحت المسجد شرقيه ، إلىٰ أذان المغرب ، ويجلس في مسجد آل أبي علوي ؛ لإحياء ما بين العشائين ، ويصلي العشاء ويجلس للراتب ، ولا يخرج إلىٰ بيته إلا بعده ، وإذا كان آخر الليل طلع إلىٰ مسجد آل أبي علوي ، ويجلس إلىٰ الشروق ، ولا يصلي[1] إلا وجلس لمدرس هٰذا دأبه ، فصار ما له مقر إلا مدة أخذِ بلاغِه وقوتِهِ ، رضي الله عنه ونفعنا به ، وأمدنا بمدده .

هٰذا وهو مع ذلك إذا تكلم في علوم الحقيقة تَحَيَّرَ فيه أهل المعرفة ، لما أعطي من الفهوم ، يتكلم في علم الحديث بما ليس في شروح علم الحديث ، بل يأتي بكلام لم يقرع سمع سامع ، بل هو علم سِيقَ له من خزائن الله وأهل الله . عليه من الهيبة أمر يخجل الناظر إليه ، وذلك لما يرِد من أنوار الله عز وجل عليه ، وإن أطرق ولم يتكلم . . لم يقدر أن ينظر إليه البصير الحكيم ، بل يقول : ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] .

وكان سكوته يجدي في مريده ، وذلك لكمال مقامه ومزيده ، ويقال : من علامة شيخ الفتح من يجدي فيك سكوته كما يجدي كلامه .

وكان ـ رضي الله عنه ـ قوته القراءة والمذاكرة ، لا يفتر عنها إلا ساعة رقوده ، ويقبل علىٰ المريد الإقبال التام ، ويُفتَحُ علىٰ مريده في أسرع زمان ، بل بعض أهل النور لا يطيقون احتمال ذلك ، كما وقع لاثنين ، أو ثلاثة حين أقبل عليهم بقلبه لم تحتمل قواهم ذلك الإقبال ،

---

(١) أي : إحدى الصلوات الخمس .

حتىٰ عاجلهم الموت منه ، وهٰذا مما شاهدناه ، ولاشك في ذلك ، فقد وقع مثل ذلك لمريد سالك ، وكان في مقام عال ، ونور متلألىء ، فقيل له : لو رأيت أبا يزيد لأُتحِفتَ ببركته بمزيد ، فقال : ما لي ولأبي يزيد ، وأنا أنظر إلىٰ ربي ، فكرر عليه ذلك ، فيقال له : لو رأيت أبا يزيد ، فيقول : ما لي ولأبي يزيد ، حتىٰ مر به أبو يزيد ، فقيل له : هٰذا أبو يزيد فنظر إليه المريد فصعق في الحال ومات ، فقيل لأبي يزيد في ذلك ، كيف كان ينظر إلىٰ ربه ، فلما نظر إليك مات ؟ فقال : إنه لصادق الإرادة ، وكان ينظر علىٰ قدر ما فتح له ، فلما نظر إلىٰ ما فُتِحَ عليَّ لم يطق ذلك .

فكان سيدنا الحامد كذلك عليه من أنوار الجلالة ما لا يطاق إمعان النظر إليه ، لأن في الولي سِرّاً من أسرار الله ، ولهٰذا يتوسل بالولي إلىٰ الله ، وقد شاهدنا ذلك في بعض زياراتنا ، لما وصلنا إلىٰ (تريم) لزيارة سيدنا الفقيه المقدم ، وزيارة أهل التربة الجميع ، وزيارة الأحياء من أهل (تريم) ، وفي الأرض جُدَري فوجدنا عليه من الجمال والهيبة ، ما لا يقدر أن يجلس معه الواصل إليه ، وقد شق علينا ، ولم نقدر أن نجلس معه إلا بمشقة شديدة ، وهٰذا علىٰ خلاف عادته ، وإنما ذلك لما تحمله من أمور الخلق .

وكان له من الأوراد شيء عجيب ، لا يقدر عليه إلا أهل التقريب ، يقرأ بعد صلاة الصبح أسماء الله الحسنىٰ ، وورد الحبيب عبد الله بن علوي الحداد ، وجملة حزوب ، وأدعية كثيرة ، وسمعته يأتي من كلام الحبيب عبد الله الحداد بقصيدتَيهِ : (ألا يا نفس ويحك كم تَوَانِيْ) و(قد كفاني علم ربي) ، يأتي بهما كل يوم ، وذلك تقويةً لما هو فيه ، وإن كان قد بلغ رتبة ذوي الكمال ، وإنما ذلك ليرتقي من حال إلىٰ

حال ، وهٰذه القصائد لسيدنا الحبيب عبد الله . . أنفع لكل سالكِ طريقَ الآخرةِ ، لأنها تذكره وتنشطه وتشوقه ، لأن أعمال الصالحين زبدة الدين ، ويكون هٰذا أنفع من الأوراد ، لنفس السالكين إذا كان صاحب فِكْرَةٍ ونظر ، وإن كان في الأوراد خاصية لا توجد في غيرها ، من الحفظ من الشيطان وجنوده .

وقد أخذ عن سيدنا الإمام محمَّدِ بن زين بن سميط ، وقرأ عليه كتباً ، منها « شرح البائية » لسيدنا أحمد بن زين الحبشي ، وكان يجله ويعظمه ، وقد كتب إليه ورقةً في رؤيا وقعت[1] ، تدل الورقة علىٰ بلوغه نهايةَ الكمال ، ونجعل الورقة في هٰذا العِقْدِ تبركاً بكلامهم ، ولعل الله أن يرزقنا فيه القبول ببركتهم ، ولعل من له فهم في كلام الصالحين أن يقف فيها علىٰ مطلوبه ، وقد وقع لي فيها من سيدنا الإمام حامد . مكاشفة ، وذلك أني خرجت إلىٰ حضرته وفي قلبي شيء ، فناولني هٰذه الورقة بيده ، وقال : اقرأها ، فوجدت ما في قلبي فيها ، وهي هٰذه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

من العبد الفقير إلىٰ الله محمد بن زينِ بن علوي بن سيمط

---

(١) ورقة، أي: مكاتبة، والرؤيا: رآها الحبيب عمر والد الحبيب حامد، وذكرها الحبيب حامد في مكاتبة منه لشيخه الحبيب محمد بن سميط، فأجابه الحبيب محمد بهذه المكاتبة المذكورة هنا، وأشاد بالحبيب عمر وبالرؤيا .

ـ سامحه الله ـ إلىٰ الجناب الرفيع ، والحمىٰ المنيع ، الحبيبِ القريبِ ، الآخِذِ ـ إن شاء الله ـ من الحظ الأوفر من الفضائل والمحاسن . . بنصيب ، ذلك السيد الحامد المحمود ٱبن سيدنا الغوث ، عين أرباب الطريق إلىٰ الحق المُصِيبِ ، عُمَرَ ابنِ سيِّدِنا الغوث الحامد المُنَفَّرِ ، نفع الله بهم كما نفع بسلفهم . آمين .

السلام عليكم ـ وعلىٰ ذويكم ، سيما السيدين الأخوين الحبيب علوي والحسين منا ومن الأخ عمر ، وسيدنا الحبيب زين ـ ورحمة الله وبركاته ، وهم مع الكافة بأتم حال نشكر الله إليكم ، ونسأله من فضله المزيد لكم ولنا في كل وقت جديد ، مع سيدنا الوالد الحبيب أحمد بن عبدِ الرحمـٰن ، وكذا الولد علي بن عبدِ الرحمـٰن ، والولد الميمون عبد الرحمـٰن بن عمر ، بارك الله له وأبقاه ، وأمد الجميع بفضله وعطاه ، إنه ولي كل خير ، ومتفضل بكل خير ، ومُسْدٍ لكل خير .

ومشرفكم الكريم وصل ، وبه الأنس والسرور حصل ، وحل منا أسنىٰ محلٍّ ، سيما لما نَوَّهتُم به من جهة سيدنا ذلك المجتبَىٰ والدكم نفعنا الله به ، ونرجو أيضاً دوام وتمام النفع به في العاجل والآجل ، فالله يجزيه عنا خير الجزاء ، ويرحم ذلك الوجه فكم أرشد وهدىٰ ، وصرف وحرف عن سبيل الردىٰ .

حتىٰ إنه وقع لي سابقاً كأني جالس وهو قدس الله سره قائم عندي ، فإذا أسد عظيم ، قد أقبل يريد الفتك بي ، فقال لي في الحال : أسجد أسجد إذا أردت السلامة منه ، فخررت في الحال ساجداً ، فخنس الأسد مكانه ، ولم يتقدم قدماً ، ثم إنِّي هممت بالرفع من السجود ، فرفعت قليلاً فثار الأسد وكاد يُقبِلُ ، فرجعت ومكنت جبهتي من الأرض ، وعزمت علىٰ أن لا أرفع أبداً ، وٱطمأننت في السجود ،

وحصلت معي كالغَيبةِ فيه عن الأسد وغيره ، فما أفقت إلا بأذان الصبح ، فلما أخبرت سيدي الحبيب أحمد. . قال : على البديهة ذلك سجود القلب ، والقلب إذا سجد لا يَرْفَعُ إلى الأبد ، وهٰذه المسألة قد ذكرها القشيري في الرسالة وغيره ، ولعلها لا تخفىٰ عليكم ، وهي : قال سهل بن عبدِ اللهِ : وقع لي في البداية هل للقلب سجود ؟ فسألت عنها أربعة آلاف شيخ ، يتكلمون في الطريقة ، فما أحد منهم شفىٰ لي غليلاً ، فوصف لي رجل يقال له : أبو حبيب بِعَبّادان ، فوصلت إليه وسألته عن ذلك ، فقال : نعم ، وإذا سجد لا يَرْفَعُ أبداً ، أو كما قال في الحكاية المشهورة ، وكم قد قال سيدنا أحمد : السيد عمر شيخ (تريم) ، وشيخ آل باعلوي في (تريم) ، بعد سيدنا الحبيب عبد الله ، وسمعته مرةً ـ أو مرات ـ يقول : إن أمثال السيد عمر حامد مع أقرانه ، من طلبة العلم بـ (تريم) ـ يشير إلى الدَّرَسَة ـ بمثابة من جمع من المعادن الحديد والنحاس والرصاص ونحوَهُ أشياءَ كثيرةً ، وجملاً مستكثرةً ، والسيد عمر منهم .

ثم إنه توجه إلىٰ الحداد نفع الله به ، فوضع عليه من إكسيره فصار جميعُ ما معه ذهباً أحمر (١) ، وذكرتم ـ سيدي ـ البِشَارةَ العظيمة الفخيمة

---

(١) يوجد في حاشية المخطوطة ما يلي :

أصل الرؤيا ذكر سيدي حامد أن والده عمر كرر قصيدة الحبيب عبد الله الحداد :

قـــل للـــذي قـــد لامنـــي ... دعنـــي وشـــانـــي يـــا عـــذولْ

عشرين مرة ، فرأى الحبيب عمر كأن زوجة الحبيب عبد الله المعروفة حسنة في أبهى صورة وأجملها ، حاملة قهوة في مسجد آل باعلوي عند العصبي ، قال : تريد أن تسقيني إياها ، فذكرت أنها أجنبية ، ثم تذكرت أن زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمهات المؤمنين ، فَقِسْتُ ذلك عليه ، فجلست عندها وسقتني القهوة. اهـ.

المُشْعِرةِ بالكمال ، وبلوغ الرتب العوال ، سيما عند تكرير القصيدة المقصود بها ، وَجُلُّ مقصودِها الوصولُ بعد السلوك ، إلىٰ مَناصّ الملوك ، ملوك التحقيق ، أرباب العلم الدقيق ، والحلول في برج الوصول ، وهو مَنَصُّ الجَمْع المشارُ إليه بقول سيدنا الحداد :

وعلىٰ مَنَصِّ ٱلجَمْعِ قِفْ مُتخلياً　　عـن كـلِّ فـانٍ للتفـرقِ نـافِ

ولعل الإشارة إليه في كلامهم بالمقام العاشر ، وكذا الرابع بٱعتبارٍ آخرَ ، والعاشر هو الرابع بٱعتبار المعنىٰ وقصده ، فالعبارات قد تكثر والمُعبَّر عنه واحد ، وأنه ـ نفع الله به ـ لما يكرر القصيدة حسّاً ومعنىً ، وتحقق بها باطناً ومعنىً ، وصارت له مآباً ووطناً ، أثمر له ذلك المَشرَبُ ، من فيض القرب الشرابَ الخاصَّ ، القهوةَ المعبَّرَ عنها بالمحبة الخاصة ، قهوة الصوفية الأصفياء ، من سيدهم وقطب مدارهم ووارث علومهم وأسرارهم ، وكون ذلك الشراب الطهور المقام العالي ، الذي عبر عنه سيدنا العيدروس أبو بكر بن عبد الله لابن عمه عبد الرحمـٰن بن علي لما سأله بقولِهِ : ما معنىٰ قولِ الله تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ ﴾ [الفرقان : ٧٥] ؟ قال هي قهوة الصوفية ، الحكاية بمعناها ، وكون ذلك في مسجد القوم ، إشارة إلىٰ الخاصية الكبرىٰ المتفرِّقةِ في رجالِ خواص الحضرة المقدسة ، وعند المعصورة(١) المنسوبة إلىٰ المخصوص المعظم سيدنا الفقيه المقدم للقوم ، الساقي للقوم ، وعلىٰ يد المنسوب النسبةَ الخاصةَ ، الذي يودع من الأسرار ما لا يودعه غيره من الناس ، وهو من الزوجة مع الزوج المصبوب في قالب الحسن البارع ، وهو أيضاً حسيني من حيث

(١) المعصورة في اللهجة الدارجة : دكة مستديرة الشكل .

السَّبَبَينِ إلىٰ الحسين والحسن ، قال صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « خذوا نصف دينكم من هـٰذه ٱلحميراء »[١] ، وقلَّ أن تأتي الحقائق مجردةً عن ٱلوسائط إلا ما شاء الله ، بل الأكثر أنَها تجيء مفرغةً في قوالب الأمثال ، ومنه الرؤيا تحتاج إلىٰ التعبير ، قال سيدي حامد : قال الوالد عمر : إني سألت الله شيئاً من حال الشيخ أحمد باجحدب ، فرأيت رؤيا تشبه الكشف ، وهي أني قمت من المحراب من صلاة العصر في مسجد آل أبي علوي ، فجاءني رجل ، وناولني خاتماً ، وقال : هـٰذا خاتم الشيخ أحمد باجحدب ٱحتفظ به ، فأخذته فإذا عليه طبع من شمع ، وعلىٰ الشمع مَتْرَب[٢] شبيه بستة وستين ، فخرجت إلىٰ العُضْبِيِّ[٣] وأخرجت الشمع برجا أن يكون المترب ثابتاً في نفس الخاتم ، فوجدته كذلك ، وأعبر من هنا إلىٰ خاتم سيدنا المخصوص من ربه ، بالصديقية الكبرىٰ أحمدَ باجحدب ، نقيبِ آل أبي علوي ، والخاتم إشارة الصديقية ، وهي ٱستكمال مقامات الرجال ، والبلوغ لمقامات مراتب الكمال ، المعبر عنها بالخاتم ، والغرفة ختم الدار ، والنبي خاتم النبيين ، وملك سليمان في خاتمه ، ونقش الخاتم بعدد ستة وستين عدد اسم الجلالة بالجُمَّلِ اللامان بستين والألف والهاء بستة كما ترىٰ إشارةً إلىٰ الاسم الجامع لمعاني الأسماء ، الذي يقال إنه مأخذ القطب ، لكون القطب يتخلق بجميع الأسماء الإلـٰهية ، ويكون في صفته ، والشمع إشارة إلىٰ الستر والقطبية ، ويكون ذلك السر مصاناً إلا عن أهله ، ولا يُفْشَىٰ إلا في محله ، ولعله يرجع معنىٰ الخاتم والختم إلىٰ

---

(١) ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٨/ ٩٢).

(٢) المترب : هو الرقم الذي يستعمل في الحساب ١ ٢ ٣ . . . إلخ .

(٣) دكة لاصقة بجدار المسجد يجلس عليها .

القهوة المصبوبة في ذلك القالَبِ الحسيني الحسني الجمالي ، المنسوب إلىٰ الحبيب الكمالي ، لأن إمدادات سيدنا الوالد كانت عن سيدي الحبيب ، وعن مسجد القوم بواسطة الحبيب ، وحسبت أن السيد الشريف الولي عبد الرحمـٰن بارقبه ـ قدس الله روحه ـ يقول مرةً : رأيت الحبيب عبد الله يشرب في مسجد آل أبي علويٍّ في طاسة ، ثم لما شرب أعطاها الحبيب عمر من بين الحاضرين .

وقد أخبرني بعض الحاضرين ، قال : رأيت الحبيب عبد الله بعد موته كأن بيده شيئاً يشبه القارورة يحركه بيده ، ويقول : مَخَضْتُ لكم الحقيقة هـٰكذا ، وكان عنده ابنه علوي ، ووالدكم فأعطاهما من ذلك الشيء ، وكان سيدنا أحمد باجحدب يقول : فنجان من القهوة عندي خير من أربعين حالاً ، كأنه يشير إلى المقام الجامع للمقامات والأحوال حتى اختاره على أربعين حالاً . هـٰكذا نقل عنه ، ونقل عنه أنه لا يطعم آخر عمره إلا القهوة ، ولا يخفىٰ أن العارف يخترق الظاهر إلىٰ الباطن في كل موصوف بالحسن ، نعم قال السيد عبد الرحمـٰن بارقبه : رأيت صبح يوم الإثنين وأنا بـ (شبامٍ) ، كأني تحت منارة جامع (تريم) من جهة (النجد)[1] ، وكأن شخصاً أعطاني عُنقوداً من عنب رطب ، وكأنه من عند السيد عمر حامد ، وكأني أعطي منه صبياناً صغاراً حبةً حبةً ، لا أزيد علىٰ ذلك ، وأقول في نفسي كل من معه حبة لا تطعمه النار أو معنىٰ ذلك ، ثم إنِّي أكلت منه حبات ، ثم بقيت حبة كبيرة جِداً . أريد أن أُخَبِّئَها لنفسي ، واستيقظت والحمد لله ، والتعبير ـ إن شاء الله ـ من حيث الإشارة والله أعلم ، الرؤيا يوم الإثنين يوم الفتح .

(١) جهة النجد هي جهة الشمال .

وصباحاً « بارك الله لأمتي في بكورها »[1] وتحت منارة الجامع ومن جهة (النجد) ، والنجد هو المرتفع ، والإشارة إلىٰ أن الفتح المبارك كان عند بلوغ مقام الخصوص ، عندما دَنَتْ خصوص الدعوة بعد عمومها من الجامع المخصوص النفر المُنَفِّر عما سوىٰ الله ، الجامع لنعوت أهل الخصوص ، وهو صاحب الوقت إذ ذاك بـ (تريم) ، والأقرب في ذلك الوقت أنه صاحب الوقت المُهْدِي العنبَ الذي منه السُكْر ، والإشارة إلىٰ شيء من العطايا والمواهب الموجبة للسُكْر ، وأيضاً ما بخل بالعطا من فضل ربه علىٰ صغار الناس ، إشارةً إلىٰ أنهم أهل طهارة ونزاهة من الذنوب ، ولٰكنهم لم يترقَّوا بعدُ ، ولم يأخذوا في أهبة السلوك ، ويصدق في ذلك قول القائل : (شَرِبْنَا وأَهْرَقْنا علىٰ ٱلأرضِ فَضْلةً)[2] . ونستغفر الله من الجرأة وقلة الأدب ، ونتوب إليه من الفضول وٱنطلاق اللسان بالقول ، والسلام .

ومنهم : سيدنا ومولانا وشيخنا وقدوتنا الإمام الحبر الهمام ، عين الوجود المرتقي إلىٰ حضرة الشهود ، والولاية الكبرىٰ والصديقية العظمىٰ ، شيخ أهل زمانه ، الفائق علىٰ أقرانه ، سيدنا الإمام جعفر ٱبن سيدنا أحمد بن زين الحبشيُّ ، بحر في كل العلوم زاخر ، وإن تكلم فيها ليس له مناظر ، خلع عليه مولاه من خلع الهيبة والجمال ، وسقاه من حب وداده صفاء الزلال ، أخذ العلم الظاهر والباطن عن أبيه الإمام أحمد بن زين ، وكذا أخذ عن سيدناالإمام عمر البار ، وتلقىٰ عنه المواهب والأسرار ، وكان له شيخَ الفتح بعد أبيه ، حتىٰ أن سيدنا جعفراً كان كثير المخالطة بالأضداد ، وكان يقول بالدف ، مع الرعاية

(١) أخرجه بنحوه ابن حبان في «صحيحه» (٤٧٥٤).
(٢) شطر بيت تمامه : وللأرض من كأس الكرام نصيب .

الكبيرة لمخالطيه ، وحال الأولياء الذين يُشْكِل حالهم علىٰ من ليس له معرفة بأهل الله ، وقد أصاب جملةً جالسوه مع غير الأدب ، وكان يقول : يظهر لي من فلوس الطار[1] من التسبيح والمعاني الغزيرة ما لا أقدر علىٰ شرحه ، إذ كانت أخلاقه ـ رضي الله عنه ـ أخلاق العارفين .

أعطي من العلوم والفهوم ما لا يقدر أحد علىٰ وصفه ، صاحب توكل عظيم ، وثقة بربه الكريم ، أعطي من محبة الله ما كاد أن يفوت معها ، ولكنه داوىٰ نفسه .

أخبرني بعض محبيه ، قال له : ما يقولون فيَّ يشير إلىٰ الذم ، فقال له الرجل : ما يقولون إلا خيراً ، فقال : ما تقول فيمن جلس في محل عظيم ، وحصل معه راقة خلاء[2] ، يضعه في المحل هـٰذا أو يتحيل عليه ؟ هـٰذا فعلنا مع الأضداد ، وهـٰذا كلام ما يفسره إلا أهله .

وكان ذا هيبة عظيمة ، غالب وقته خلوة مع ربه ، يجلس بعد العصر إلىٰ عتمة من الليل ، والخلق والقبائل الذين في جهته الجميع ، ما أحد يقدر علىٰ مصافحته لِعُظْمِ هيبته ، وقد يجلس مع العوام وينبسط معهم غايةً ، وينقبض في المجلس ، وإذا انقبض . لم يقدر أحد أن يتكلم بكلمة ، بل لا يقدر أحد أن يتحرك ، هـٰكذا كانت مجالسه مع العوام ، وكان حاله أشبه بحال الشيخ عمر بامخرمه ، وقد يضرب بحضرته الطبل مع النساء ، ويجلس ويحضر معه جملة من الخلق ، ولـٰكنهم محفوظون ببركته .

أخبرني بعض المحبين من أهل الخير قال : إني أتيت ذات يوم مع

---

(١) فلوس الطار : ما يجعل في إطاره من قطع النحاس المدور ، يعمل رنيناً عند ضربه ، أي : الطار ، وهي الصنوج .

(٢) يعني بذلك : البول .

سيدي الحبيب جعفرٍ ، ووقعت معه خلطة مع نساء أجانب ، فوقع في خاطري شيء من تلك الخلطة ، فأستغفرت الله من إنكاري علىٰ أوليائه العارفين ، فكان يقول : ما فعلت هٰذه الأمور المشكلة إلا وقد تكلم لي مشائخي بكلام . قيل : إنه قال لشيخه عمر البارِّ : إني أحب النساء والطبل ، ووصف له من أحواله ، يريد أنّي أفعل ذلك وأنا في رقبتك ، فقال له : أفعل ، ولا ترىٰ الأمور إلا من فوق ، حتىٰ كان في بعض الأيام وقع زواج ولده عبدِ الرحمٰن في (سيون) ، وجاء الحبيب في زف عظيم ، وأعترضه شخص ومدحه ، فأعطاه شُقَّةً[1] عظيمةً ، وقال : هٰذا يقول إلا من فوق . يشير إلىٰ ربِّه . وما ذكرته من كلام شيخه البار ، أخبرني ولده حسن عنه ، وكان أهل وقته معترفين له بالفضل ، وقل من ينكر عليه .

وكان في العلوم والمعارف والحقائق ، إذا تكلم في شيء منها يتحير مُجالسُه ، وله كلام علىٰ رؤيا رآها الحبيب سقاف بن محمد[2] عمه الحبيبُ جعفرُ ، رأىٰ أنه ينقل مدراً[3] من مكان إلىٰ محل آخر ، وغير ذلك ، فتكلم في الجمع والفرق بعد الجمع ، بكلام لم يفهمه غيره ، ولا تكلم فيه الغزالي ولا صاحب العوارف ، مع أنه كلام في تصنيف ـ رضي الله عنه ـ كم ترك الأول للآخر ، وفضل الله كالغيث الماطر .

وكان ـ رضي الله عنه ـ صاحب رقة لما ناله من طريق المحبة ، إذا أُنشِدَ بحضرته كلام الشيخ بامخرمه . لم يتمالك من شدة العَبرة ، تكاد أن تفارق روحه جسده ، وكان يداوي نفسه بمخالطة الأضداد .

---

(١) هي نوع من الملابس كانوا يستعملونها .
(٢) ابن أحمد بن زين ، واسمه الأصل : عبد الرحمن ، وسقاف لقب له .
(٣) المدر : هو اللَّبِن الذي يبنىٰ به .

ومن كراماته : أن بعض الناس تكلم عليه في الطريق ، فلما وصل إليه مع جمع كثير . . ضربه ضربةً عنيفةً في وجهه بين الخلق ، ٱطلاعاً علىٰ ما قال ، فٱستغفر الله ذلك الرجل .

وكان ـ رضي الله عنه ـ نفعه عام لجميع الخلق ، وأما ٱستقامته فما أظن أن أحداً بلغها من الأولياء ، قوته القرآن والعلم ، موزع أوقاته ما أظن ـ فيما أعلم ـ أن ساعةً من أوقاته تضاع عليه ، مع ٱنقباضه عن غير الجنس ، ومن وافقه منهم جبره في تلك الساعة ، وكان له إقبال علىٰ خلق الله يدعوهم إلىٰ الله ، وله نظر علىٰ الصغار وتربية ما رأيتها في غيره .

وكان يجلس للفقه من بعد صلاة الصبح إلىٰ ٱستواء الشمس ، مع تحقيق كلي في علم المذهب ، يذاكر أهل مدرسه ، ويخلي كلاً منهم يبدي ما معه ، فإذا كملهم . . ساق لهم فهمه وما فهمه ، ويخالفونه في بعض المسائل ، حتىٰ يأتي بها من التحفة ، ويرجعوا لكلامه .

وأما في كلام القوم فعلوم يبديها ما تكاد تُسمَع من غيره ، وتأويلات عجيبة موسعة تضر من لا له قدم في علوم القوم ، وكانت رحمته بخلق الله لا يقدر أن يصفها واصف ، لا يزال يقول : (الراحمون يرحمهم الرحمـٰن ، ٱرحموا من في الأرض . . يرحمْكم من في السماء)[1] ، مع صوت له يخشع له سامعه ، وإذا رأىٰ المساكين أهل المجاعة . . لم يتمالك من كثرة رحمته ، حتىٰ يُعطَوا من غير سؤال منهم ، ويقول : يا عبد الرحمـٰن أعطوهم ، وكل من رآه مقبلاً علىٰ بيته نادىٰ علىٰ أولاده بالمبادرة ، وقد جلست معه في بيته مراراً عديدةً ،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٢٤) .

فرأيته يؤثر بلحمه ضيفه ، وقد رأيته في نفسي مراراً كثيرةً يفعل ذلك معي ، وذلك لرحمته .

وأما الصغار فمحبته لهم وشفقته بهم شيء يَحِيرُ فيه جليسه ، لا يزال ينظر إليهم ولا يفارقونه ، ويصبر علىٰ أذاهم ولا يتغير أصلاً لو كانت والدته ما قدرت علىٰ ذلك .

وكان له عناية خاصة بأولاد أخلائه ، فهو لنا ـ رضي الله عنه ـ كالأب الشفيق ، قياماً بحق الصحبة والمحبة ، يسأل عن أحوالنا وأمورنا الجميع ، ما تخفىٰ عليه أحوالنا من شدة اعتنائه ، ويقول : إني لا أنساكم ، وله نظر ثاقب يعرف القلوب ولا تخفىٰ عليه ، شاهدت ذلك في كثير ممن جلس معه ، ويقول قلبه كذا وكذا ، وقد جالست جملةً من الصالحين ممن ذكرناهم ، لم تدخلني الهيبة إلا مع سيدي الحبيب حامد ، ومعه فإني معه علىٰ قلق لما أرىٰ عليه من صدق الاطلاع علىٰ القلوب ، مع أني قدْ أنبسط معه لأنه قد ينبسط ، وقد جلسنا معه عند نبي الله هود ثلاثاً من السنين ، نجلس معه للنفرة من عند نبي الله هود ليلة النصف ، ونأخذ بعد الزُّوَّارِ ثلاث ليال ، وعليه من الهيبة والتعظيم أمر غريب ، وكرامات يكثر تعدادها ، وقد وصلت إليه في بعض الأيام لزيارته ، وكان العَشاءُ عنده ومعي بعض الناس ممن حضر زيارة نبي الله هود في تلك النفرة ، وخلفته عن العشاء ، فلما جلست.. قال : أين فلان ؟ فقلت : خَلَفَ ، فقال : هاتوه هـٰذا خمير[1] قَدَحٍ ، ولم يتعش حتىٰ وصل ، ما يترك كل من واكله أو له يد[2] .

---

(١) الخمير : أكلة شعبية تتخذ من الذرة البيضاء مع الخميرة، والقَدَح : إناء من خشب .
(٢) هنا يبدو أنه حصل تداخل بين ترجمة الحبيب جعفر والحبيب حامد ، مع أن ترجمة=

وفي آخر عمره وأول وقته ما ترك زيارة نبي الله هود ، وإذا وصل وقتُ الزيارة. . لم يتمالك ، وتتجلىٰ روحه تجلياً عظيماً ، وكان أول سابق في أهل الزيارة ، ولا يقدر أحد علىٰ لحاقه ، يسبق أهل الزيارة الجميعَ ، وقد قارب التسعين سنةً ، وقد ذاكرته في طريق الزيارة ، فقلت : إن الشيخ أبا بكر بنَ سالم يذكرون أنه يُحمَلُ لزيارة نبي الله هود ، فقال : هو علىٰ وصفي هٰذا ، وقد يزور شعب المهاجر إلىٰ الله الشيخ أحمد بن عيسىٰ ، ويقف هو وسيدي الوالد مع فرح وسرور ، ويمكثون يومين أو ثلاثاً ، والقراءة مستمرة علىٰ سيدنا الحبيب حامد ، وسيدي الوالد يخرج وجملة من السادة آل طٰه ، وبعض محبيه ، وهو مع سيدي الحبيب حامد علىٰ كمال الأدب ، يتلقىٰ منه خطابه ، وينظر إليه وهو مغتبط به ، فيا لها من مَحاضرَ ومَجالسَ هي من الجنة ، كما قال سيدنا الإمام جعفر بن أحمد بن زين الحبشيُّ رضي الله عنه :

تِلْكَ الأُوَيْقاتُ التي سَلَفَتْ لنا فكأنَّها سُرِقَتْ على رِضْوانِ

فيا فوز من حضرها ويا نصيب من ظفر بها ، مع حسن ظن وأدب ، فإنها لا شك أنها مواسمُ وأعياد ، ولٰكن أولياء الله رحمة لجميع الخلق ، وهم متفاوتون ، فمنهم من كان خليفة رسول الله كساه الله خلعة الرحمة ، مثل سيدي الوالد وسيدي الحبيب حامد ، فإنهم خلقوا رحمةً للخلق ، ومنهم من تكون عليه خلع الهيبة ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾ [الرعد : ٤] .

= الحبيب حامد قد سبقت ، وهو أول من ترجمه المؤلف من أقران صاحب المناقب، والكلام الآن في ترجمة الحبيب جعفر، فإذا به يتحول إلى الحبيب حامد ، والذي في المخطوطات على هذا النمط فليتأمل.

فمن رحمة سيدي الحبيب حامد ذاكرته يوماً في صوم الست ، وذكرت له أن والدتي تمنعني وتتأذىٰ به إذا صمت . . أصوم وأخالفها ، أم أفطر وأجبرها ؟ فأبهم علي الأمرَ حتىٰ كان اليوم الثاني ، ذاكرني هو من غير أن أذاكره ، وقال : إن كان قلبها يشتغل فجبرها والأخذ بخاطرها أولىٰ من الصوم ، فإني قد وقع لي مع خالي عبد الرحمـٰن بلفقيه ، أني طلعت عليه يوماً وأنا صائم ، فجلس معي وفعل قهوةً بنفسه ، وأعطاني الفِنجانَ وأخذته وشربته وبقيت ممسكاً بقية النهار ، وقلت : كيف لا أفطر وهـٰذه القهوة فعلها بنفسه ؟ فأنظر إلىٰ هـٰذه المعاملات ، وأتصافه بجبر القلوب وكلامه لي ، فلا شك أن هـٰذه أحوال هي من الفتوة ، ولـٰكن أهل الكمال ظفروا بحسن الأعمال ، وأمورهم كلها موضوعة علىٰ أساس ، وألهمهم مولاهم ترتيب الأعمال ، وما هو الأولىٰ بالتقديم من غيره ، وكل عمل من أعمالهم لا يوازنه ألوف من أعمال غيرهم .

وكان ـ رضي الله عنه ـ له وصايا يوصي بها من رآه أهلاً لها .

ظفرنا بوصية نافعة كافية لمن يتأملها ، تكفي المستشرف لطريقهم الذي يأخذها بعزيمة وقوةٍ وبصيرة ونية ، وقد قال يوماً في كلام منه لي : خذها بقوة ، فعسىٰ الله يوفقنا لما فيها ، وهي هـٰذه :

بسم ٱلله ٱلرحمـٰن ٱلرحيم ، بٱسم الله ، آمنت بالله ، توكلت علىٰ الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله .

اللهم . . كن بنا رؤوفاً ، وعلينا عطوفاً ، وخذ بأيدينا إليك ، أخذ الكرام عليك ، وقومنا إذا ٱعوججنا ، وأعنا إذا ٱستقمنا ، وخذ بأيدينا إذا عثرنا ، وكن لنا حيث كنا ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، لا إلـٰه إلا الله .

اللهم . . ثبت علمها في قلبي وٱغفر لي ذنبي ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل : ٥٩] .

وبعد : فقد أستمد وطلب تأكيد الأخوة والألفة والمحبة ، بلبس الخرقة المتداولة بين أهل الطريق والتحقيق ، مع المصافحة وتلقين الذكر . . السيد الحبيب عمر بن عبدِ الرحمـٰن البارُّ[1] ، فتم ذلك ووقع وحصل بحمد الله وعونه ، والشأن المعول عليه ٱغتنام الصحة والفراغ والفرص بحفظها وصرفها في مطالعة الكتب النافعة ، من حديث وتفسير وكتب القوم ، مثل الإحياء والبداية ، والأربعين الحديث ، والأربعين الأصل ، وأذكار النووي ، ورياض الصالحين ، وكتب سيدنا الإمام عبد الله الحداد ، وما رتبه من الأوراد ، وكلها مشهورة مذكورة ، وغيرها من الكتب النافعة ، للأئمة المقتدىٰ بهم ، كالعوارف والرسالة ، وكذلك مذاكرة وقراءة ربع العبادات من المذهب خصوصاً ، مثلَ «شرح المختصر» لابن حجر ، و«شرحِ ٱبن قاسم» ، و«متنِ المختصر» ، و«أبي شجاع» ، والوصية بالإكثار من الصلاة والسلام علىٰ النبي المختار ، وآله الأطهار ، وصلاة الاستغفار هي : **اللهم . .** صل وسلم علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه صلاةً تحل بها العقد ، وتفرج بها الكرب ، وٱغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم ، والوصية بإحياء العلم بالمذاكرة والمطالعة مع أبناء جنسك من الطالبين والراغبين في طلب العلم ، والمواظبةَ علىٰ ما تيسر من قراءة القرآن ، والملازمة للحزب المرتب بين العشاءين وبعد صلاة الصبح خير كثير ، والوصية بالانقباض والتحفظ عما لا ينبغي وعن الفضول ، والتغافل عن أحوال

---

(١) أي : الثاني المعروف بصاحب جلاجل .

الناس وما هم فيه ، والتخلق معهم بالأخلاق الحسنة عند الملاقاة ، وتغليب حسن الظن ، وشهود الخصوصية ما أمكن ، والوصية بتوقير الكبار في السن والرتبة والاستمداد منهم ، بل من كل مرموق ومنظور بالفضل ، وعند ذكر الصالحين ورؤيتهم تنزل الرحمة ، والوصية بالقيام بحق الأرحام علىٰ حسب مراتبهم ومنازلهم ، بالصلة والزيارة ، وفي الحديث : « بلوا أرحامكم ولو بالسلام . . »[1] الحديث .

والوصية بحسن الكلام ولينه مع المساكين والضعفاء المنكسرة قلوبهم ، والخير كله في حسن الظن بأهل لا إلـٰه إلا الله فهو قالب حقيقة حسن الظن شعراً :

لـم أَزَلْ بـالبـابِ واقـفْ ... فـارحمَـنْ ربـي وُقـوفـي
وبـواد الفضـل عـاكـفْ ... فـأَدِمْ ربـي عُكـوفـي
ولحسـنِ الظـن لازمْ ... فَهْـوَ خِلّـي وحليفـي
وأنيسـي وجليسـي ... طـولَ ليلـي ونهـاري

والله الموفق ، انتهت الوصية .

وهـٰذه الوصية من تأملها وأمعن النظر فيها . . أغنته عن مطالعة الكتب ، وظفر بمراده ، كيف وفيها الاستقامة ، إذ أوصىٰ - رضي الله عنه - باغتنام الصحة ، وانتهاز الفرص في عبادة الله ، فإن من يضيع عمره النفيس في الغفلة والتسويف ، فإنه هناك إذا أشرف علىٰ عطاء الله لأوليائه الذي لا ينفدُ ، يتحسر تحسراً لا آخر له يوم ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى

---

(١) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (١/٣٧٩) .

﴿كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر : ٥٦ـ٥٨] ، هكذا تحسر المقصرين الذين ضيعوا أوقاتهم .

وانظر إلىٰ وصيته في صرف الأوقات للعلم ، الذي هو أصل النجاة وعينها ، وأي عمل يقارب العلم ، فإن العلم بمنزلة الرأس من الجسد ، فمن ظفر بالعلم.. فقد ظفر بالسعادة الكبرىٰ ، وحاز جميع الدنيا والأخرىٰ ، أما الدنيا فإنهم يطلبونها من بر إلىٰ بحر ، وتبدلت وتغيرت صورهم وأبدانهم بطلبها ، وهي تهدىٰ للعلماء وعساهم يقبلونها ، وإن أخذوها.. أخذوها بعز وسلطنة ، والمعطي لها ذليل ، كما نرىٰ ذلك ونشاهده في أبناء الدنيا مع العلماء ، كما قال سيدنا عمر بن سميط : ما نسمح لهم إلا بالمحاياة[1] ونعطيهم القفا ، ومثال أبناء الدنيا مع العلماء أن أبناء الدنيا في الحَش[2] والعلماء في الغرف العلية يتنعمون ، وأما في الآخرة فهم مع الأنبياء ، وانظر إلىٰ تعظيم الله تعالىٰ لهم ، إن كنت ذا فهم بقوله : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران : ١٨] ، أنه عقب الملائكة وأهل العلم بواو المعية ، ولم يعقبه بثم لِعُظْمِ منزلتهم عنده ، فسبحان الله المعطي لعبيده .

فعليك بصرف أوقاتك كلها في العلم ، ولا تلتفت إلىٰ غيره من الأعمال ، ونقول لك ما قاله الشيخ عبد القادر الجيلي : الله الله ، الإطراق الإطراق ، الإغماض الإغماض ، الوحا الوحا[3] ، النجا النجا ، لا تتعدىٰ العلم فإنك إن صبرت عن قريب.. تأتيك المواهب

(١) أي : المصافحة وتقبيل اليد .
(٢) الحش : الكنيف .
(٣) أي : السرعة السرعة .

والخير الكبير ، ولا ينبئك مثل خبير ، فلو لم يكن إلا أن طالب العلم يسير علىٰ أجنحة الملائكة ، وحيتان البحر تستغفر له . . لكفاه ذلك عزاً وفخراً ، ولـٰكن ذلك لمن عمل بالعلم ، كيف وجزاؤه ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧] ، ولـٰكن ذلك لا يتمكن إلا لمن ترك الفضول ، كما ذكرَه سيدي في وصيته ، فمن ركن إلىٰ الفضول والخوض فيما لا يعنيه . . فقد وقع في مهواة لا نجاة بعدها ، وأين العلم منه ، فمن شرط تعلم العلم . . تركه الفضول .

وذكر ـ رضي الله عنه ـ توقير الكبار ، كما هو في الحديث : « من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا . . فليس منا »(١) ، و« من وقر شيخاً في كبره . . قيض الله من يوقره في كبره » ، فمن أراد طول العمر . . فعليه بتوقير الكبار ، فإنه دليل علىٰ طول العمر ، وتأمل هـٰذه الوصية كلها ، تجدها تغنيك وتكفيك ولـٰكن : العمل العمل فما بعد العلم إلا العمل .

ومنهم : سيد أهل الطريقة ، وقطب أهل الحقيقة ، سيد أهل الولايات ، ومن بلغ في الوصول أَعلىٰ المقامات ، إمام علىٰ التحقيق ، ومحقق في العلوم أي تحقيق ، من اصطفاه الله بولايته ، وجعله من أهل خاصته ، كان منتهىٰ أهل الدين والعرفان ، مثلَ ابتدائه في العلوم والأحوال والإيقان ، إمامنا وحبيبنا ووسيلتنا إلىٰ ربنا ، تِكِلُّ الالسُنُ عن حصر أوصافه ، سيدنا ومولانا وبابنا الحبيب المحبوب عمر ٱبن سيدنا زين بن سميط ، أدام الله بوجوده ، وجعلنا من أهل حزبه وجنوده ، نشأ علىٰ عبادة مولاه ، وسقاه من وداد أهل محياه ، من أوصافه الغزيرة وأخلاقه المنيرة أنّهُ ما ٱلتفت إلىٰ الدنيا وأهلها ، أخرج الكون من قلبه ،

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٢١١) .

ولم يُرَ ساعياً إلا في عبادة ربه ، قرأ القرآن العظيم في حجر والده ، وكان يشار إليه من صغره .

أخذ العلوم الظاهرة والباطنة عن أبيه وأخيه الإمام محمدِ بن زين بن سميط ، وعن سيدنا الإمام أحمد بن زين الحبشي ، وتكلم فيه بكلام يشير إلىٰ عُظْمِ شأنه ، ورفعة مكانه ، وقرأ الفاتحة وغيرها من العلوم علىٰ سيدنا عبد الله بن علوي الحداد ، وكان يحفظ من كلام سيدنا عبد الله وهو ابن أربع سنين ، ويحفظ الكلام الذي تكلم به الحبيب مع أن الكلام إلىٰ غيره ، ولـٰكنه وعاه .

وكانت أوصافه وأخلاقه أخلاق رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، وكان ـ رضي الله عنه ـ أزهد الناس لم يلتفت إلى الدنيا وزهرتها ، وحاشا مقامه رضي الله عنه ، ومن زهده أن بيته الذي هو فيه بالكراء[1] ، حتىٰ بلغ ثمانين سنة ، إلىٰ أن قيض الله له أخذه في تلك السنة ، ولم يأخذ إلا سنةً أو أقل وظهر في الدار غيار ولا لبث إلا وأخربوه وبني ، والحبيب غير راض بذلك ، حتىٰ قال لي : أريد إلا خارج البلد مدموساً[2] أو كما قال ، وكان أورع الخلق ، ما يدخل عليه شيء من الدنيا إلا كافأ عليه ، وكان قوته خميراً داوم عليه ، وقد أعطىٰ الخلق كلهم قفاه ، يجلسون معه أهل البلد يسألهم عن أحوالهم علىٰ عادة المحاباة علىٰ الإجمال ، ولا عاد يصدر منهم كلام غير القراءة ، ويختم بكلام الحبيب من ينشد ، ويقرأ الفاتحة ، هـٰذا دأبه ، ويقول : نعطيهم إلا القفا .

---

(١) الكراء : الإيجار .

(٢) مدموس : مجهول لا يؤبه له .

وكانَ جبلاً راسخاً ، وطوداً شامخاً ، لم يتفق بالجند أصلاً ، ويصدعَ بالحق ، ولا يخاف في الله لومة لائم ، وقد أعطي من التوكل ما لم يُعطَ غيره .

وأوصافه وأخلاقه ـ رضي الله عنه ـ غير خافية علىٰ أهل البصيرة ، داعٍ إلىٰ الله بأقواله وأفعاله ونياته ومقاصده وأحواله ، عزيز المثل ، عظيم المحل والقدر ، رؤيته توصل المقبلين ، وتجذب المدبرين ، لا شك أنه ممن قال فيهم أبو مدين :

ما لذةُ ٱلعيشِ إلا صحبةُ ٱلفقرا   هُمُ ٱلسلاطينُ وٱلساداتُ وٱلأُمَرا

حتىٰ قال في وصفهم :

متىٰ أَراهم وأَنَّىٰ لي برؤيتِهم   أو تَسمعُ ٱلأذنُ مِنّي عنهُمُ خَبَرا

فمن نظرهم علىٰ حسن الظن أوصلوه ، ومن أحبهم أسعدوه ، وقد أثنىٰ عليه مشايخه وأقرانه ، تكلم فيه سيدنا ومولانا الحبيب عبد الله الحداد بكلام يدل علىٰ عُظْمِ شأنه ، حتىٰ قيل إنه مرض سيدنا الحبيب فخيف عليه الموت ، فقال : لا تخافوا العافية حاصلة وعاد أربعين من الذين أسمهم عمر يوصلهم إلىٰ الله ، حتىٰ أن سيدنا محمد بن سميط يقول : منهم عمر أخي ، هـٰذا كلام الحبيب بعينه أو نحوه ، كذلك سيدنا الحبيب محمد بن سميط يقول : ما معنا إلا بركة عمر ، وسيدنا الحبيب سقاف يحلف بالله أنه القطب ، وسيدنا الحبيب جعفر بن أحمد يقول : من أراد أن ينظر إلىٰ عمر بن الخطاب . . فلينظر إلىٰ الحبيب عمر بن سميط ، وكذلك والده أثنىٰ عليه ، فناهيك بشهادة هؤلاء السادات ، وقال سيدي الوالد ـ رضي الله عنه ـ لولا المشقة . . ما تركت زيارة سيدنا الحبيب عمر في كل ثمانية أيام .

وكذلك سيدنا الحسن بن عبد الله الحدَّادُ أثنىٰ عليه وإذا وصل إليه فرح به ، ويعظمه غاية التعظيم ، وكذلك سيدنا الحبيب حامد ، بل جميع مشايخه وأقرانه شاهدون له بذلك ، وأنه أهل لما هنالك .

فأما مجاهداته ومعاملاته فلا تحصىٰ ، صاحب عزمات من حين توفي سيدنا الحبيب حسن إلىٰ وقتنا هـٰذا ، نحو سبع عشرة سنة ، ما وضع جنبه علىٰ الأرض ، إن أخذته سنة النوم . . نام وهو جالس هـٰكذا دأبه ، وكان لا يترك الغسل لكل فرض ، يغتسل لصلاة الصبح في الضربة[1] الشديدة ، لم يترك ذلك يوماً واحداً مع ذلك وسنه ثمانون سنة مع ركة بدنه ، هـٰذه عزمات الصوفية ومكابداتهم مع ربهم ، ولا يظهر من معاملاتهم إلا القدر اليسير ، والنزر الحقير ، فشأنهم في أمورهم كلها الخفية للأعمال ، إلا ما كان للقدوة والتسليك فإنهم يُظهرونَهُ .

وله المكاشفات لمن أقبل عليه بحسن النية ، وصدق الطوية ، وقع لي معه مرات عديدة ، وكذلك مع جملة ممن رأوه ، وكان يتكلم بكلام لا يسمع من غيره ، ننقل منه شيئاً يسيراً تبركاً به .

فمن كلامه ـ رضي الله عنه ـ : أن شيخ الفتح يقع وإن لم يحصل به أتفاق ، بخلاف شيخ التربية والتسليك لابد من تسليك المريد على يديه ، كأبي مدين مع سيدنا الفقيه ، حيث أرسل بالخرقة من غير أتفاق ، وإنما هو بالمراسلة ، حتىٰ كان آخر كتاب من أبي مدين إلىٰ سيدنا الفقيه : لا عاد تكتب لنا كتاب حيث ما أنت فيه ما وصلناه ، وسيدنا الحبيب عبد الله مع صاحب مكة بالمكاتبة ، حتىٰ أرسل لسيدنا

---

(١) هي شدة البرد .

بالخرقة ، فحين وصلت الخرقة ولبسها . . توفي شيخه المذكور .

ومن كلامه رضي الله عنه : المجذوب يصل بسرعة من غير عائق يعوقه في السير ، ومثاله مثال من عبر المِعْجاز[١] ، والسالك تكثر عوائقه ويبطىء في الطريق ، وإذا وصلا صارا في معنىً واحد ، لأن المقصد واحد ، والعباد يصلون بطريق السلوك ، أو يجوز السالك أربعين مقاماً في سيره ، وله جذبة في آخر مقام له ، تنطوي فيه كل المقامات ، وأهل الزهد طريقهم الجذب كما قال سيدنا الحبيب عبد الله الحداد :

فأشرقا بين زُهَّادٍ وَعُبَّادِ

ومن كلامه رضي الله عنه : سيدنا الحبيب عبد الله جُذِبَ قبل التسليك ، ثم سُلِكَ به بعد الجذب ، ولهٰذا قال :

تَحققتُ مطلوبي فأسرعتُ نحوَهُ

ومن كلامه رضي الله عنه : التوفيق في خزانة الله تقتنصه الهمة والعزم .

ومن كلامه رضي الله عنه ونفعنا به : مثال من أقبل علىٰ الله مثال الزناد ، لابد أن يصل إلىٰ حَروقهِ[٢] من كثرة القرع شرارةٌ ، فيضيءَ بها .

هٰذا الكلام خرج منه ، وإن شيء فيه تقديم أو تأخير أو تزييد أو نقص فهو مني ، وأنا أستغفر الله من ذلك ، وأسأله السلامة من التجري

---

(١) هو طريق جبلي تختصر فيه المسافة بين (سيون) و(تريم) ، ضربه مثلاً لسرعة وصول المجذوب .

(٢) هو ما تشعل فيه النار عند الإيراء والقَدْح .

في كلامهم وخطابهم ، مع أني لا أتعمد في كلامهم خلاف ما قالوه ، إلا إن كان من طريق النسيان والغفلة ، وفي كلامه ـ رضي الله عنه ـ نفعٌ لكل سالك طريق الآخرة ، كيف وفي كلامه الهمة والعزم بمقتضىٰ التوفيق ، فمن أراد الوصول.. فعليه بالهمة والعزم في جميع الخيرات ، فالتوفيق ما ذكر في القرآن إلا مرةً واحدةً ، ومن كلامهِ : مثال المقبل علىٰ الله مثال الزناد إذا وافق حروقاً صافياً.. لابد أن تناله شرارة فيضيءَ بها ، وهٰذا كلام يحتاج إلىٰ شرح طويل ، فالحروق الصافي تطهرك من الأخلاق الرديئة ، فإذا تطهرت منها فأنت أهل للنفحات واللحظات ، وأما القرع ففيه إشارة إلىٰ اللجأ إلىٰ باب الكريم ، قال سيدنا الإمام حامد ابن سيدنا عمر حامد : أنزل حوائجَكَ وآمالَكَ بباب الكريم : ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران : ١٠١] ، فلا تفتر من الدعاء والتعرض للنفحات مع بذل جهدك في مراضي ربك ، فمن تأمل كلام الصالحين وانفتحت بصيرته.. حصل علىٰ المطلوب .

ومن كلامه : أني وقع بخاطري من طريق الأولاد الذكور اعتناء ، فقال لي الحبيب عمر : ارض بمراد الله يقع لك مرادك ، وكلامه من طريق الكشف ، فعرفت أن المطلوب ترك الحول والقوة ، والرضىٰ بما قسم الله لك ، وببركة الرضىٰ يقع المقسوم لك ، وقال لي مرةً أخرىٰ في شيء وقع في قلبي : قد يكون من كثرة المعاصي ، ومراده التوبة ، فببركتها يقع المطلوب .

ومن مشايخه ـ رضي الله عنه ـ : صفوة أهل الله ، وعين أولياء الله ، الجامع لصفات الولاية ، المحفوف من مولاه بالعناية والرعاية ، لم يكن أحد علىٰ منواله ، في أموره وأفعاله وأحواله ، داع إلىٰ الله بالقول

والفعال ، الموصل من أقبل عليه ذروة الكمال، سيدنا الإمام يوسف بن عبد الله الحسني ، كانت له اليد الطولىٰ في علوم الحقيقة ، والقدم الراسخ في سلوك الطريقة ، أخذ علم الظاهر في بدو أمره في الهند الشرقية ، وبعد تضلعه خرج إلىٰ (حضرموت) وتوطن في (سيون) ، وأخذ عن سيدنا الإمام أحمد بن زين ، وأخذ علوم القوم ، ووقعت له رؤيا عظيمة ، وهي : أنه رأىٰ أن معه وسادةً مملوءةً ريشاً ، فَفَتَشَها[1] فطار ما فيها ، فأعلم شيخه بالرؤيا ، فأمره أن يقص الرؤيا علىٰ سيدنا محمد بن زين بن سميط ، فقص الرؤيا ، فقال له سيدنا محمد : الوسادة وما فيها ما حصل معك من علم الظاهر ، وهو بالنسبة إلىٰ العلم الباطن ريش ، ولـٰكن ما حصل الطيران في الهوىٰ إلا بالريش ، ففيه إشارة إلىٰ أنه لابد منه ـ أي : العلم الظاهر ـ وأنت لما وصلت إلىٰ حضرة سيدنا الحبيب أحمد. . حصل لك الوصول إلىٰ العلم الباطن بواسطته رضي الله عنه ، سمعت هـٰذا الكلام من سيدنا الإمام عمر بن سميط ، ثم بعد ما حصلت هـٰذه الرؤيا. . لازم سيدنا أحمد ، وتخلق بأخلاقه ، واقتبس من أنواره ، وكان شيخ الفتح ، وكان لا يزال يتردد عليه وانطرح بين يديه ، وخلع نعليه ، حتىٰ حصل له ما هو كائن له في سابق القضا من مواهب الله وعطاياه التي ليس لها منتهىٰ ولا قصوىٰ .

فأخذ في البلد (سيون) يدعو إلىٰ الله ، وكان يدرس في علم الظاهر والباطن ، وانتفع به جمع كثير ، منهم سيدنا الوالد ، وسيدنا محمد بن علوي خَيْلَه ، والعم عبد اللاه ، وكان كل من يتردد عليه يفوز بمراده ، ويَظْهِرُ عليه من إمداده ، حتىٰ أن أحداً من جلسائه رئي بعد وفاته ، فقال

---

(١) أي : فتحها .

له ما فَعَلَ الله بك ؟ فقال : ما نفعنا شيء من أعمالنا وأمورنا كلها ، إلا مجالسُ وقعت لنا مع سيدنا يوسف ، فهٰذه التي نفعتنا ، وهو رجل معروف بالصلاح والعبادة ، فهٰذه الرؤيا كشف ، وتعلمك مجالس الصالحين ونظرهم وما يؤول من نفعه عليك في الآخرة .

وكان ـ رضي الله عنه ـ يؤثر الخمول جداً ، لباسه جِرمٌ[1] وقته كله ، وكان يطلع فيه للجمعة ، حتىٰ قال له بعض أهل بيته : أستح من السادة آل طٰه ، فقال للقائل : أوذي نفسي وأمحَنُها بلبس غير هٰذا وأرضيهم ، من أولىٰ ؟! نفسي أولىٰ بالرضى ، وهو لا يزال يخالف نفسه ، وإنما فعل ذلك . . لما علم أن ذلك هو الأصل في رضىٰ الله .

وكان ـ رضي الله عنه ـ لا يأكل في غير داره ، عزم عليه سيدنا الحبيب محمد بن علوي خيله ، وأكثر عليه ، فقال له : عشاي عند عيالي أولىٰ ، ما أحسرهم وأرضي نفسي أو غيري ، وفي بعض الأيام وصل إلىٰ حضرته سيدنا الإمام جعفر بن أحمد بن زين الحبشيُّ زائراً ومقتبساً من أنواره ، فأجلسه قدام بيته تحت عِلْب[2] ، فلما أنقضت القهوة هز العلب ، وأخرج له دَوْماً[3] منه ، وقال : هٰذه ضيافتنا ، مع أن سيدنا الإمام جعفر صاحب مظهر ، فأنظر إلىٰ هٰذه القناعة العظيمة ، التي من لم يظفر بها . . لم يستقم له دينه ، وكان يقول : ما أعزم علىٰ زيارة نبي الله هود . . إلا لِمَا أرىٰ من نفسي أنها ما تطرب للزيارة فأحببت مخالفتها ، وكان ـ رضي الله عنه ـ يقول : إذا قسمت بين عيالي

---

(١) جرم: جلد .

(٢) العلب : هو شجر السدر .

(٣) أي: نبقاً وهو ثمر السدر .

الغداء.. أكتفي بمص أصابعي ، وكان لا يأمن أحداً علىٰ عياله ، فيتولىٰ ذلك بنفسه ليعدل بينهم ، وفي بعض الأيام وضع جنبه في الشارع ، فجاء إليه كلب وبقي الكلب يبول فيه وهو ساكت ، فلما فرغ الكلب من بوله ثار وهو فرحان ، وجاء إلىٰ أصحابه ، فقال : اليوم بشارة قنع الكلب أن يبول في ، أما تسمعون قول الناس : فلان ما يقنع يبول فيه كلب ؟ وأنا قنع أن يبول في .

وكان ـ رضي الله عنه ـ قوته دخن بِرُوْبَه[1] ولا يأكل قوت أحد ، ولا يأخذ روبة من غير داره إلا إن كان من دار الجد محمد بن عمر يأخذها لقوته غالب الأيام ، وفي بعض الأيام خرج إلىٰ مكان سيدنا الحسن بن علي بن الصادق ، فقدم إليه قوتاً فلم يأكل منه شيئاً ، فحزن لذلك الحبيب حسن ، وقال : كيف ، ولعل أن سيدنا يوسف علم بحرمة ذلك الطعام ، والحبيب حسن في غاية من الحزم والورع ، فلما خرج إليه سيدي الوالد.. أعلمه الحبيب حسن بالواقعة ، فأخبره الوالد أن الحبيب يوسف ما يأكل طعام أحد ، تأنف نفسه من غير طعامه ، فقال الحبيب حسن : جزاك الله خيراً ، أخرجت من قلبي شيئاً .

وكان كثير المكاشفة لجلسائه ، زار سيدنا الحسن بن علي بن الصادق « تريم » في بعض السنين ، ونوىٰ في زيارته أنه يستمد من جميع أهل (تريم) حتىٰ الغزالات ، فلما عاد.. مر علىٰ سيدنا يوسف ، فقال : أنت ـ يا حسن ـ حصل لك المدد حتىٰ من غزالات (تريم) ، فلما خرجوا من عنده.. قال لسيدنا الوالد : هـٰذا من الحبيب كشف . وأعلمه بنيته .

---

(١) رُوبَة : هي اللبن الرائب المنزوع الزبد، والدخن : نوع من الحبوب رديء .

وكان له تربية ونظر ثاقب ، قال لي سيدي الوالد : عزمت علىٰ حفيرة[1] في جانب (سيؤون) البحري ، فلم يرض الجيران ، وكنت أريد فعل ما نويت ، فٱستشرت الحبيب يوسف في ذلك ، فقال : إنك لم تُرِد بالحفيرة إلا لهم ، فما رضوا بذلك ، الترك أولىٰ وأنت بَلَغَتْ نيّتُك .

وقد حصلت معي الغفلة عن ذكر سيدنا يوسف في هٰذه المناقب عند ذكر مشايخ سيدي الوالد ، وبعد ٱبتدائي في ذكر أقرانه حصلت لي رؤيا مع الحبيب يوسف ، فعلمت أن ذلك لسهوي عن ذكره في جملة مشايخه العارفين ، وإلا فما أنا وما ذكري ، وقد قال سيدنا الإمام جعفر بن زين في بعض مكاتباته : فمن هو في السنداس[2] ما له أن يكون مع الناس ، وكلام الصوفية ـ رضي الله عنهم ـ لغيرهم هٰذا الكلام حقيقة عندي ، علىٰ سبيل الإنصاف مني ، فعسىٰ ببركتهم أن يخرجوني منه .

ومنهم[3] : سيدنا ومولانا إمام أهل الله ، المتصف بأخلاق رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، صفوة الأحباب ، ونخبة السادة الأنجاب ، ذو المواهب العُلْوِيَّةِ ، والمناقب السنية ، من جاد له مولاه بالعلوم والمعارف ، والفهوم والطرائف ، أُعطِيَ من العقل عطاء أهل الكمال ، وسقاه مولاه من صافي الزلال ، حاز من العلوم والمعارف ما لا يصفه وصف واصف ، سيدنا الحسن بن علي بن الصادق

---

(١) بئر يحفرها ويسبِّلها لماء الشرب .
(٢) السنداس : هو الموضع الهابط القذر .
(٣) أي : من أقران الحبيب سقاف .

الجفري ، أخذ في العلم من صغره ، حتىٰ طرقته المواهب والمنح في كبره ، قرأ علىٰ سيدنا عبد الرحمـٰن بلفقيه ، وتلقىٰ عنه علوم القوم ، هو وسيدنا الوالد ، وفُتح عليهما فتوحَ العارفين ، حتىٰ بلغا رتبة أهل اليقين ، وأخذا عن سيدنا أحمد بن زين الحبشي ، وسيدنا محمَّدٍ بن سميط ، وبذلا مهجهم ، فطاب بذلك مسعاهم ومنقلبهم ، وأعطاهم مولاهم مطلبهم ، وبينه وبين سيدي الوالد مؤاخاة ومحبة في الله ، وقد قال ـ رضي الله عنه ـ للوالد : روحي وروحك وروح الحبيب جعفر بن أحمد واحدة ، وهـٰذا من طريق الكشف ، وقد ذكرنا أن سيدي الوالد أراد زيارة العارفة بالله سلطانة الزبيدية ، فلما وصل (مَرْيَمَةَ) .. رجع من الزيارة ، فوجد الحبيب حسناً واصلاً لزيارته ، فهـٰذا دليل علىٰ ما قال له الحبيب حسن أن الروح واحدة ، وكان صاحب حلم وصبر ، ابتلي ببعض السادة وأوذي ، حتىٰ حاكموه فصبر عليهم ، وعفا وصفح وأحسن وأعطاهم ما أرادوه ، وذلك لوفور ما أعطي من العقل ، وكان صاحب سياسة في الدعوة إلىٰ الله ، له مدارس في علوم القوم والفقه ، سيما ربع العبادات بل لا يتعداه في الفقه ، ويقول : إني رأيتهم إذا قرؤوا في البيع وغيره .. تتركز آذانهم ، فكنت معهم علىٰ حزم لئلا يفهم العلمَ غيرُ أهله ، فيتناولَ به حظوظ الدنيا ، كما وقع في زماننا .

وكان له تردد إلىٰ (تريس) ودعوة إلىٰ الله ، حتىٰ أن غالب أهل (تريس) انتفعوا به ، وهدىٰ الله به أمماً عديدةً منهم ، حتىٰ أن البلد كانت كثيرة القسوة والغلظة والربا والمعاملات الفاسدة ، فلم يزل يدعوهم إلىٰ الله ويحذرهم .. حتىٰ أجدىٰ فيهم ، وانقلبوا عما كانوا فيه ، ووقعت منهم المحاسن في الأعمال ، ولم يبق في وقته من يعامل بالربا ، وكثرت الخيرات والبركات ببركته رضي الله عنه ، (كأنهم لبقاع

الأرض أمطار) ، وأنتفع به الجم الغفير ، وكان يميل إلىٰ أهل الجذب ، ويأخذ بكلامهم ، وأستوطن مكاناً نجدي (تريس) يسمىٰ (القَرينَ)[1] ، وهو مكان ضعيف ونخلته ضعيفة ، ولٰكن الحبيب ـ رضي الله عنه ـ صاحب قناعة ، أخذه بقيمة حقيرة ، وأستكفىٰ به من غيره مع خلو اليد ، وبنىٰ فيه بيتاً شيئاً فشيئاً ، إذا نظرته تَحِيَّزْ مع ركاكته وحقارته ، حتىٰ صار بيتاً من أعجب ما يكون ، محفوفاً بالنور ، وكان يشير إلىٰ أموره ، ويريد الاستبصار من طريق القناعة[2] ، وكان يقول لوالدي : إن أثاث الدار تكفيه عشر أواق دراهمُ من غير قصران ، ويعد ذلك الأثاث ولا يخطىء فيما تكلم به ، أخبرني بذلك سيدي الوالد .

وكان عظيم الإكرام لأصحابه ، ذا همة عظيمة ، وكان سيدي الوالد ـ رضي الله عنه ـ يقول : كذا وكذا ضيافةً يضيفني الحسن ، ولا ضيفته؛ لأنه قل أن يظفر به أحد ، حاله عجيب ، وكان كثير الفسح هو وأصحابه ، ويذكرون عنه كرامات عديدةً في تلك الفسح ، وذلك مداواةً لما ناله من محبة الله التي دكت قواه ، والظاهر أنها أخذته المحبة ، وترىٰ علىٰ بدنه الاصفرار والنحول ، وكان له نشائِدٌ في تغير الزمان ، توجع من سمعها وتحزنه ، ومن له بصيرة يعرف حال الحبيب من كلامه ، ويتأسف علىٰ قل المساعد والمعاون في طريق القوم .

وكلامه ـ رضي الله عنه ـ أنين مريض متعوب ، يظهر ذلك إذا سمعته ، وأسلوب كلامه غير كلام غيره من أهل الله ، إذا سمعته أثَّر فيك أعظم من قراءة الكتب ؛ لأن حاله يلوح في كلامه ؛ لأن نيته

---

(١) قرية تقع شمال (تريس) تبعد عنها بنحو ميل نجدي (تريس) أي شماليها .
(٢) أي: أن الحبيب حسن يريد الحث على القناعة .

ـ رضي الله عنه ـ ومنتهىٰ بغيته أن لا يبقىٰ إنسان في زمانه يتخلف عن السير إلىٰ الله ، ودعوته إلىٰ الله بطريق الكلام أكثر من الكتب ، وقد كتب لبعض السادة من أهل الجذب قصيدةً عظيمةً ، هٰذا أولها :

يَا ٱبنْ لأَشْراف كُنْ صابرْ على حكم الأَقْدارْ ... وارضَ ياشيخْ بالمقدورْ في الحِلو والقارْ(١)
واعتزِلْ يا حبيبي دائما عُزلةَ أخْيار ... يَسلمِ الناسْ من شَرّكْ وتَسلمْ مِنَ أشْرار
والـدُّنْيَا حقيقتهـا هَبَـا كُـنْ بهـا مَـارْ ... لا تِطَوّلْ لَمَلْ خابَ الذي حبّ ذا الدارْ

وكم له من أشباه ذلك ، وكله لا يخرج عن الإرشاد والدعوة إلىٰ الله ، ولا يزال دائم وقته محزون من تغير الوقت والغفلة عن الآخرة ، وقصائده يتأسف فيها علىٰ قل المساعد والمعاون علىٰ مراتب الكمال ، وكان لا ينام إلا علىٰ البطحاء ، هي فرشه يطرح ذلك في رَيْم(٢) بيته ، وينام علىٰ ذلك ؛ ٱختياراً منه لذلك ، وإيثاراً للدون ومن أحب نفسه فليقصد ما هو الدون في هٰذه الدنيا ، وليس بدون لمن أنصَفَ وٱختبر أمور الدنيا ، وأقول لمن نحا نحوي إن من أعظم المصائب في طريق الآخرة ، وأكبر حجاب.. نعيم الدنيا وشهواتها ، وإعطاء النفس مرادَها ، فمن أين يطعم من كان كذلك حلاوةَ أهل الآخرة ، بل ما أُراه يشم روائحها إلا إن أدركته عناية الله ، ٱنظر إلىٰ المترفهين في هٰذه الدنيا ، إذا حل الزمان(٣) بالأرض هم في تنعم بالطيبات ، وأرحامهم وجيرانهم في البخس(٤) ، وهم سكارىٰ في غمرة الغفلة لا يفيقون منها حتىٰ يأتيهم الموت وهم غافلون ، كما

---

(١) القار : المُرّ .
(٢) هو السطح .
(٣) أي : القحط .
(٤) البخس : شظف العيش

شاهدنا ذلك ورأيناه بأعيننا، وقد أقول لمن رأيت عليه الضنىٰ من البخس، ما أوفر حظكم من ربكم ، آخره[1] يصبر قليلاً ، أتظن أن المقتول في سبيل الله أوفر حظاً ممن مات جوعاً مع العفة والرضىٰ ؟ ذاك مات موتاً واحداً وهٰذا موتات في الله ، ولو أراد أن يعطيك ما ناله من البخس والجوع بقيام ليلك وصيام نهارك وأعمالك كلها. . لكان هو في البخس[2] ، وقد أقول لمن أرىٰ عليه ذلك : ليرضىٰ بذلك ، ويعلم أنه أحسن حالاً ، وقد قال سيدي الإمام جعفر بن أحمد بن زين الحبشيُّ : إنّ أهلَ النعيم في الدنيا ما تطول أعمارهم ، وذكر بني أمية وذكر مناصب آل الشيخ أبي بكر ، وذلك حقيقة رأيناه في جملة علىٰ هٰذا ، ومن أراد طول العمر فعليه بالإيثار[3] من هٰذه الدنيا التي لا تساوي جناح بعوضة عند الله ، وترك لذائذ الدنيا لمن يؤثر بها الآخرة ، وأما من يكتز ويحرم نفسه ويترك للوارث الفاني ، فهٰذا أرذل خلق الله لا دنيا ولا آخرة ، نعوذ بالله من ذلك .

وذكرنا ذلك لتعرف أحوال الصالحين وزُهدَهُم في هٰذه الدنيا الدنية ، ومعاملاتهم مع مولاهم ، حتىٰ تركوا الفرش الوطيئة ، إيثاراً لأمر الآخرة مع أنها لا تضرهم ، قد فرغوا من رياضة نفوسهم ، كما قال سيدنا علي بن عبد الله السقاف :

وصارَ ٱلعيشُ بعد ٱلمُر حلواً

ولٰكن أهل الوراثة المحمدية يخرجون من الدنيا علىٰ أثرة ، فمن أراد الفوز فهو هٰذا ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر : ٨] ، والجزاء من جنس العمل ، فمن أراد أكل الطيبات والنعيم

---

(١) أي : غايته .
(٢) أي : الغبن .
(٣) أي : إيثار الآخرة بالإقلال من الدنيا .

الدائم في الآخرة . . فعليه بما ذكرنا من النظر إلىٰ أهل البخس ، والتودد لهم والرحمة بهم ، فهناك ينال الفوز والنعيم السَّرمدي ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

وسبق علينا الكلام وطال من غير آختيار ، ولـٰكن ذلك يرجع إلىٰ معرفة سيدي الحبيب حسن وحاله ، وهو لا شك أنه من أهل ذلك المقام ، لأنه مبتلىٰ في هـٰذه الدنيا ، يُرىٰ علىٰ بدنه النحول والاصفرار ؛ لما تحمله من مشاق الدنيا ومحنها ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد : ٢١] .

وكان ـ رضي الله عنه ونفعنا به ـ صاحب معرفة بالله ، له نظر ثاقب وله أطلاع في أسرار العلوم ، وكانت معرفته بالله معرفةَ أهل الكمال ، تظهر في أعماله وأحواله ، كان صاحب فكرة عظيمة ، كل أحواله وأموره ما تخلو عن آلنتائج الجليلة في أمور الآخرة ، وكان ممن نال من معرفة الله ، يحب السماع ويذوق به ، وينفتح له ببركة السماع أمور عجيبة غريبة من المعاني والأسرار ، وترىٰ عليه من المواهب والمنح . . ما يشمل أهل حضرته ، ويطيب بذلك روحه ؛ لأن في السماع مجانسةً للأرواح كالغذا للروح ، وفيه يغيب أهل الكمال ، وقد ذكر صاحب الرسالة القشيري أنه من طريق أخذ العهد حين قال : ﴿ألست بربكم﴾ ذكر مناسبةً لذلك ، كما قال الشيخ أبو بكر بن عبد الله العيدروس في وصف السماع .

تظن السَّماعَ سماعَ الدُّفوفْ ... وأن التصوُّفَ لباسَكْ لِصوفْ
أو الوَجْد هوَ التصدية بالكفوفْ ... فلا يَعتقدْ ذاك إلا سَخِيفْ
سماعُ الرجالِ شهودٌ وحَالْ

إلىٰ آخرِ ما قال .

وكان الحبيب حسن من أهله ورجاله ، تظهر عليه الأحوال عند ؤمله ، ويأخذ في السماع الليلَ كلَه ، ويخبرون عنه أهل مجلسه بأمور غريبة ، وأهل السماع يغلب عليهم من أسراره ما يُدهشُهم ، والسماع لا يكون إلا لمثله رضي الله عنه ، ولا شك أن أهل المحبة أرواحهم مشتاقة ومتلهفة إلىٰ لقاء مولاهم ، لهم إليه حنين ، إذا جن الليل نادوا بأصوات الاشتياق : (اللقاء اللقاء) ، فإذا وقع السماع زادهم أنزعاجاً وازدياداً ، لأنه قد دخل علىٰ قلوبهم من الروح ، ونسمات الألطاف الخفية . . ما يذيب أرواحهم ، كما وقع لبعضهم : أنه أنذاب دَماً ، ووقعت روحه جواهر ، والقصة مذكورة ، ذكرها شيخ بن عبد الله العيدروس ، ولا تستبعد ذلك ، أرواحهم تجول في السماء ، هٰكذا قلوبهم مع ربهم هي في الدنيا صورة ، وعند ربهم حقيقة .

فعليك ـ إن حضرتَ سماعَ أهل الله ـ بالأدب ؛ لتغمرَك إمداداتُهم ومواهبُهم ، فإن لهم مراتبَ تحصل لهم عند سماعهم ، أما ترىٰ عليهم من الدموع السواكب ما لو وقعت فيك قطرة من دموعهم حالَ تجليهم وإمداداتهم من فيضان رحمته . . لنالتك تلك الرحمة وغمرتك ، وسعدت سعادةً يا لها من سعادة .

اللهم . . طيب أرواحنا بذكرهم وحبهم ، وآسقنا من كأس ودادهم (لا تسقني وحدي) ، قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « الحاضرون شركاء في الهدية » فعليك بالأدب إن ظفرت بمجالسهم .

وكان ـ رضي الله عنه ـ صاحب نيات ، قد ذكرنا أنه زار (تريم) ونوىٰ المدد حتىٰ من غزالاتها ، وكاشفه الحبيب يوسف ، وقال له : أنت ـ يا حسن ـ حصل لك المدد حتىٰ من غزالات (تريم) ، وهٰذه

أحواله في أعماله كلها ، فإنه صاحب حسن ظن في الله ، وأهل حسن الظن يشهدون المنعم وإنعامه وكرمه ، ويشهدون الخصوصية في خلق الله ، ولا يلتفتون إلىٰ ما جبل عليه الخلق ، من الأمور التي من نظر إليها . . حُرِمَ الانتفاعَ بهم ، وكما قال سيدنا الإمام الشافعي : (خذ من علومي ولا تسأل علىٰ عملي) إلىٰ أن قال : (إجْنِ ٱلثمار وخل ٱلعودَ للنار) ، انظر إلىٰ هـٰذا الكلام الذي ٱشتمل علىٰ الحكم العظام ، ومن سلك هـٰذا المسلك . . حصل له المدد من جميع خلق ـ الله تعالىٰ ـ بلا شك ؛ لأن الإنسان لا يخلو عن شيء من مكارم الأخلاق قل أو كثر بحسَبِ ما قسمه له قَسّام الأرزاق ، فإذا ٱنفتحت بصيرتك إلىٰ خواص خلق الله، وسترت عنك قبائحهم بستر الله . . فلا بد وأن تظفر بمرادك، كما قال:

وٱلمَرءُ إن يَعتقدْ شيئاً وليسَ كما يَظنُّـهُ لـم يَخِـبْ وٱللهُ يُعطيـهِ

وسيدنا الحبيب حسن كان حسن الظن في عباد الله ، وله بهم عناية ورعاية ، وشفقة ورحمة ، وهـٰذا شأن الكُمّل من عباد الله ، لأنهم داعون إلىٰ الله بأقوالهم وأفعالهم ، وقد ذكرنا أنه زار ـ هو وسيدنا الوالد ليلةً من الليالي ـ الشيخ عبد الرحمـٰن الجفري ، ورأوا قبراً النارُ فيه تلتهب وهو يصيح ، فقاما فوق القبر ، وأخذا في القراءة حتى خمدت تلك النار ببركتهما كرامةً ، وهـٰذه تستحق أن تكتب بماء الذهب ، لأنها وقعت فيها شفاعة وإنقاذ لمن هو في لظىٰ النيران ، وتعلم مقامهما ، إذا كان ذلك في الدنيا ، فكيف بحالهم في الآخرة ؟ فلا ريب أنهم من أهل الشفاعة العظيمة ، وأي كرامة تزيد علىٰ هـٰذه ، ونراهم أنفعَ لغيرهم ، وقد أخبرهم بعض المجاذيب وهم في (تريم) هو وسيدي الوالد ، بأنه أخبره أهل القبور أنهم زاروا البارحة ، وذكر أن حالك ـ يا سقاف ـ حال

فلان من أهل البرزخ ، والحسن حاله حال فلان .

هـٰذه أمور الصالحين رضي الله عنهم ، أصلها ٱستقامتهم ، فببركة الاستقامة نالوا ما نالوا ، وعند الصالحين الكرامة علىٰ الحقيقة هي الاستقامة ، والاستقامة هي مطلب الصالحين وبغيتهم ، ولا يدور أمرهم إلا عليها ، ولـٰكن عزيزة ما تقع إلا لأمثالهم ، الذين قال عنهم سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت : ٣٠ـ٣١] .

ولقد كان علىٰ منهج الاستقامة لا يحيد عنها ، حتىٰ أنه وصل في بعض الأيام لزيارة سيدي الحبيب جعفر بن أحمد فوجده في بسط عظيم يُفعل بحضرته شرح[١] ، فقال لسيدنا الحسن ـ هو وسيدي الوالد ـ : إن أردتم الحضور معنا شرح ، فقال الحبيب حسن : لحم سمين ما نقدر فيه ، ما يصلح إلا لك ، ٱعتذاراً وٱعترافاً ، لأن أموره علىٰ الحزم ، والحبيب جعفر صاحب حال ، وأهل الأحوال يسلم لهم ولا يقتدىٰ بهم ، والغالب علىٰ من صحبهم ـ مع عدم كمال عقله ـ يصطاب[٢] شاهدنا ذلك في جملة ممن صحبهم ، لأن أهل الله ما يصون جليسَهم إلا الأدبُ معهم ، فعليك بحسن الصحبة مع أهل الاستقامة ، فإنك تظفر وتغنم ، مثل سيدنا الحسن وسيدي الوالد ، ما ذاقوا نعيم الدنيا ولا طعموا شيئاً من حلوها بل كبّدوا نفوسهم ، وأذاقوها المر الذابح ،

(١) أي : سماع .
(٢) أي : يصاب .

وداوَوْا أنفسهم بمعاملات مولاهم ، وشغلوها بما يقربهم إليه ، وصار فكرهم عبرةً ، ونظرهم تبصرةً ، ولا لهم بغيره خلوة ، حتىٰ اطمأنت نفوسهم وانقادت لهم ، فساروا بها إلىٰ الجناب العالي ، وأدركوا بها كل عزيز وغالي ، فهنيئاً لهم بذلك النصيب ، فعسىٰ بحبهم ونظرهم أن لا نخيب ، ويرجع منا البعيد قريباً ، فما للسقيم إلا الطبيب ، فهم أطباء القلوب ، والمداوون لكل مجروب .

وكان ـ رضي الله عنه ـ مستجاب الدعوة لا ترد دعوته ، بذا أُخبرتُ ، أخبرني رجل : أنه وقع سماع في (وادي شحوح) تحت مجراف[1] لبعض البدو ، فقال للبدوي : إن شرب مجرافك كم باتعطي أهل السماع ، فقال : خبرة[2] فقرأ الفاتحة الحبيب وعمت الرحمة جميع الأرض ، ووقائع له كثيرة من الكرامات ، أخبرني بعض المؤمنين : أنه زار الحبيب حسن ومراده كرامة من الحبيب ، فضرب علىٰ صندوقه من داخل ضربات كثيرة[3] ومرةً أخرىٰ مع بعض المؤمنين وهو يزوره ، خرج طائر كبير أعظم من الغراب من خُلصْ[4] صندوقه ، هذه الكرامات التي تشهد لصاحبها أنه من الذين قال فيهم سبحانه وتعالىٰ : ﴿ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٩] ، فالكرامة المعدودة كرامةً عند الأولياء ما دلت علىٰ عُظْم مقامه ، وما دلتك علىٰ مجاهداته ومعاملاته ، كما أوضحنا ذلك في سيدي الوالد ، فإن معاملاته لا تسعها مجلدات .

---

(١) أي : في ظل نخلة مجراف ، وهو نوع من أنواع النخيل معروف .

(٢) الخبرة : ما ينسج من الخوص ، وتغطىٰ به عذوق النخل .

(٣) كذا في النسخ التي بين أيدينا .

(٤) أي: فتحة فيه .

وكان قبر سيدنا حسن ـ رضي الله عنه ـ تحت بيته في (القَرَيْنِ)[1] ، والسبب في ذلك أنه قال لأخ له مجذوبٍ : ما تقول في (القَرَيْنِ) ، فقال : ما زال حسن فيه ، فلذلك آختار أن يكون قبره في (القرين) ؛ لأجل كلام أخيه ، فإن الصالحين يعملون بكلام أهل الجذب ، ويرونه من ـ الله تعالىٰ ـ لا منهم ، حتىٰ آختار أن يكون قبره تحت بيته ، وإلا فالعارفون ليس لهم آختيار مع الله ، ولٰكن الحبيب رأىٰ ذلك آختيار الله له لا آختيار نفسه .

ومنهم : الإمام الشهير ، والشيخ الكبير ، ذو الصفات السنية ، والأخلاق النبوية ، منبع الجود والكرم ، ومعدن الحلم والحكم ، من آصطفاه الله لهدايته ، وآجتباه لولايته .

سيدنا محمد بن علوي خيله ، له اليد الطولىٰ في علوم التحقيق ، والقدم الراسخ في سلوك الطريق ، أعطاه ـ الله تعالىٰ ـ من مكارم الأخلاق ما لا يحصره حاصر ، ومن له به معرفة تحقق بأنه ليس له مناظر ، خصه ـ الله تعالىٰ ـ بحسن الظن الكامل ، إذا رأىٰ أحداً من السادة آل أبي علوي أو غيرِهِم من أهل الفضل ، وإن كان من عوام الناس ، نظر إلىٰ آبائه ، ولا يرىٰ في الخلق إلا خصائصهم ومكارمهم ، وكان سيدي الوالد يقول : ما قدرنا علىٰ حُسْنِ ظن الحبيب محمَّدِ بن علوي ، وكان مغتبطاً به .

وكان إذا زار نبي الله هوداً . . يحصل له من المدد العظيم شيء يبهر العقول ، ولا ينام ـ أعني : مدة إقامته عند نبي الله هود وخلوته ـ ثلاثة أيام ، وترىٰ عليه من الهيبة شي عجيب ، وكان يدور علىٰ المآثر كلها ،

---

(١) قرية تقع شمال (تريس) تبعد عنها بنحو ميل وفي دوعن بلدة أخرى تسمى القرين .

ما يترك شيئاً أصلاً ، وكان في الكرم عديم المثل ، شهد له بذلك جميع أهل دهره .

وكان كرمه كرمَ العارفين لكل فقير محتاج ، أَهلِ الصيانة والعفاف والديانة والكُسْحان والعُوْرانِ ، الذين قامت بهم الجدود[1] ، فكل من لا قدر علىٰ غداه أو عشاه . . خرج إلىٰ مكانه الفجير ، فلا أظن أن أحداً من أهل البلاد والخلا[2] يبيت جائعاً في وقته ، وذلك لِعُظْمِ نيته وسريرته ، وإذا أوىٰ إليه لص أو سارق أكرمه وبات يسامره ، لئلا يسرق أو يلص أحداً من المسلمين ، مع عدم وجود الدنيا عنده ، فيستدين لله تعالىٰ ، وكان كثير الإكرام لمن زاره ، ما أظن أحداً من أهل أرضه لم يأكل عنده ، ولم أره أكل في بيت أحد ، يطلع من مكانه إلىٰ البلاد ، ولم يعتزم لأحد ، والظاهر أنه يمنع الخلق من عزامه بحاله ، وكونه يشق عليه ذلك ، هـٰذا هو الغالب ، وقد يعتزم لبعض الخلق ، وذلك علىٰ نية جبر القلوب .

وكان يميل إلىٰ جبر القلوب ، وقد وقعت سرقة علىٰ الشيخ محمد بن عبد الولي ، فلما علم بذلك أرسل إليه شيئاً له قدرٌ الذي يفكهه ، فأنظر إلىٰ هـٰذا الكرم الذي يعز في زماننا ، فقد ضاعت الأموال في غير محلها ، وقد تخبط زمننا بعد أن عدمناه هو وسيدنا الوالد ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وكان له تفقد عظيم في المواصلة للفقراء المحتاجين ، يواسيهم من غير اطلاع أحد علىٰ ذلك حتى أهل بيته ، وإذا حصل قحط في

---

(١) جمع جَدّ، وهو الحظ ، أي: لم يحالفهم الحظ .
(٢) الريف والمزارع .

الأرض . . يبذل أموالاً كثيرةً للفقراء والمساكين أهل البخص[1] ، ولا يرىٰ جائعاً إلا وفكهه ، ومر في بعض أيام قحط بقضب حوله نحو مئة مسكين ، فنادىٰ بأعلىٰ صوته : يا أهل القضب ؛ ما أرخص ذا ، جنه بقضب ، يا بختكم يا بختكم يا بختكم ، هٰذا شأنه وديدنه رضي الله عنه .

وكان سيدي الوالد يقول : ما أحد بلغ ما بلغه الحبيب محمد في الكرم والولاية من أهله السابقين ، وهٰذا لا شك فيه ، من رأىٰ أفعاله وأحواله تحقق ، والذي أعتقده فيه أنه عدني زمانه ، وإذا رأيت أموره في الكرم يقع في قلبك شيء من حيث يستدين ، كما وقع الإنكار علىٰ الشيخ أبي بكر بن عبد الله[2] ، حيث أنشأ قصيدته التي أولها :

وآمِرةٍ بٱلبخلِ قلتُ لها ٱقصِري ... فإحسانُ ربِّ ٱلعالمينَ جزيلُ

إلىٰ أن قال :

أُخلِّفُ مالاً للرجال تَحوزُه ... وإثمٌ علىٰ ظهري هُناكَ ثقيلُ
سَأبني به حِصناً من ٱلمجد وٱلعُلا ... وأَصرِفُه ٱلأُخرَىٰ فنِعْمَ بَديلُ

وقد خُصّ بأشياءَ في أمور الآخرة ما وقعت لغيره من الأولياء .

منها : أن الذي يملي جابية مسجدهم الذي في الفِجير[3] من أهل النور ، مدة سناوتِه وهو يذكر الله دائماً إلىٰ أن تنقضي السناوة ، وهٰذا دأبه ، وكذا مؤذن المسجد ، معلم خَلَعَ اللهُ عليه خِلَعَ الهداية ، أخبرني بعض المؤمنين الصادقين أن الحبيب محمَّداً مرض ، فلما ٱتفق به

---

(١) الحاجة والفاقة .
(٢) العدني .
(٣) من ضواحي (سيون) ، يسكنه الحبيب محمد المذكور .

الشخص الذي أخبرني. . قال له : أردنا نزورك ، لٰكن خفنا أن نشق عليك ، فقال : من عجز عن زيارتي فلينظر إلىٰ المعلم ، وكذا خَدَّامُ المسجد من أهل الصلاح ، فهٰذه أمور ما ٱتفقت لغيره ، وذلك لعظم نيته وعلو مقامه ، ولٰكن له تفقد تام ، إذا رأىٰ أحداً من خَدَمِ المسجد حصل معه قل من طريق المعاش. . واساه بما يفكهه ، حتىٰ أن بعض خدم المسجد وقع معه خلو اليد عن المعاش ، فنظر إلىٰ الحبيب محمد نظر قلب ، فعلم الحبيب محمد خاطر الطالب ، فناداه بمراده كشفاً منه وٱطلاعاً علىٰ الخاطر ، وأعطاه مراده ، رضي الله عنه ونفعنا بأسراره .

وكان صاحب نية ، وأعماله كلها مندرجة بالنية من أولها إلىٰ آخرها ، لا يغفل عنها ساعةً ؛ لأنه صاحب فكرة وكمال عقل ، أموره مطوية علىٰ النيات الكبيرة ، أُخبرتُ أنه إذا دخل المسجد وقف حال دخوله البابَ ساعةً ، ونوىٰ الاعتكاف ؛ ليكون سيره في المسجد عكوفاً ، وكان لا يتكلم في المسجد أدباً مع الله تعالىٰ ، وقليل من الأدب خير من كثير من العمل مع عدمه .

وكان كثير الرجاء في الله وفي أولياء الله ، أعطي من محبة ـ الله تعالىٰ ـ ما كاد يفوت معها ، كشف الله له محاسن خلقه وستر عنه معائبهم ، ٱتفق في طريق تاربة ليحضروا جنازة أحد من السادة هو وسيدنا الوالد وجماعة ، فذكر بعض الناس كثرة أموال السيد الذي مرادهم حضور جنازته ، فجعل الحبيب يذكر لهم خصائص السيد ، وما خصه الله به من بين أهله ، وذكر سيدي الوالد قصة عيسىٰ ـ عليه السلام ـ في الميتة التي مر بها ، فقالوا : ما أنتن هٰذه! فقال عيسىٰ : ما أحسن بياض أسنانها! ينهاهم عن الغيبة ، والحبيب محمد هٰذا دأبه ، وقد قال سيدي الوالد : ما يصلح لمجالسة الخلق إلا الحبيب

محمَّدُ بن علويٍّ ، لأنه مع الخلق صورةً ، وقلبه مع ربه ، كما قال الشيخ أبو بكر بن عبدِ الله العيدروس :

كـم شَخـصٍ تنظـرُهُ جـالسـاً وروحُـه فـي ٱلعُـلا تَجـولُ

وقال مرةً أخرىٰ في زيارة نبي الله هود : خاطري يتكثف من الجند ولا معي حسن ظن الحبيب محمَّدُ بن علوي ما قدرنا عليه ، يعظم الحبيب محمداً ويذم نفسه ، هٰذا حال الصالحين .

وكان سيدي الحبيب محمد مؤثراً للخمول ، إذا وقع الاتفاق وأراد المذاكرة في العلوم والحقائق . . يفهم المذاكر له أنه يريد منه ، وهو يرشدك إلىٰ المعارف والعلوم علىٰ صورة أنه يتلقىٰ منك ، ولا فَعَل له رسم من طريق التعليم ، بل يدور علىٰ المدارس ومجالس العلم ، ستراً لحاله عن ٱلخلق كلهم ، مع أن الصالحين معترفون له بالفضل ، ما رأيت أحداً من الأولياء أستر لحاله منه إلىٰ أن لحق بربه .

وكان كثير السهر لا ينام إلا قليلاً ، فكان يكثر من القهوة ، أوقية جفل[1] وأوقية سكر يعمل بها ثلاث قهاوي[2] من غير الرَجِعْ ، إلىٰ أنْ ينقضي الليل كله ، وكان يفرح بالليل فرحاً عظيماً ، وكان وقته كله دعوة إلىٰ الله من غير رسم ، كل مجالسه إرشاد للخلق ، وتزهيد في هٰذه الدنيا وتذميم وتصغير لها ، حتىٰ أن بعض أولاده وهو حسينُ بن حسن كثير البذل للدنيا ، ينفق ٱلافاً عديدةً من الدراهم في (حضرموت) و(الهند) ، ويتدين وينفقه في محله وغير محله إفراط كبير ، حتىٰ أن

---

(١) الجفل : البن ما دام في قشره .

(٢) جمع قهوة . والرجع : قهوة يدخل في تركيبها القرفة والقرنفل والسكر الأحمر ، وتنفع المصدور عندهم بإذن الله .

الحبيب محمداً سمع بعض الناس يتكلمون علىٰ السيد المذكور ، فقال الحبيب محمد : ما أحد عرف حقيقة الدنيا إلا حسين ، ما للدنيا إلا فعله ، ينهاهم عن الخوض فيه ورضاً بفعله ؛ لأن حاله ـ رضي الله عنه ـ الكرم ، غير أنه في محله ، وقد أضافه بعض خدم المسجد ، فلما حضر الطعامُ . أراد أن يغلق باب الضيقة وهم فيها ، فقال لا ترد الباب ، ما عليك إلا هـٰذا ، ومن له طعم فيه لا بد له منه .

وكان دأبه ـ إذا وقع الضيف عنده ـ تركَ الباب مفتوحاً كل من وصل إلىٰ المكان يحضر الضيافة ما أحد يرجع ، مع أن المكان مطروق ، فهـٰذا الكرم الحقيقي ، وٱنظر إلىٰ قوله : من له فيه طعم لابد له منه ، وإلىٰ هـٰذا التعليم العجيب ، لمن له فهم ، فالله ينفعنا بأسراره .

وكانت معاملاته سرية ، إذا طلع البلاد يواصل النساء المخدرات بشيء له قدر ، خصوصاً من أهل البيت النبوي ، وكان يطلع من (الغجير)[1] إلىٰ مدرس الخميس ، يمشي علىٰ رجليه ويعد خطاه طاعةً ، وكنت أسير معه في بعض الأيام ٱتفاقاً ، فيقول : أعان الله المتخلفين ، أعان الله المتخلفين ، يشير إلىٰ من ضيع عمره في غير طاعة الله ، فكانت هـٰذه الكلمة لها وقع عندي ، حتىٰ أنها بقيت حالّةً في قلبي ؛ لأن كلام العارفين يقع علىٰ قدر نيتهم .

وكان ـ رضي الله عنه ـ يحب الإحسان في أموره كلها ، خصوصاً النخلة يحبها ويعتني بعمارتها ، ويقول : في الحديث : « أكرموا عمتكم ٱلنخلة »[2] والأرض التي حولها ، والكل حق الناس يعمره

---

(١) هو من ضواحي (سيئون) .
(٢) أخرجه أبو يعلى في « مسنده » (١/ ٣٥٣) .

عمارةً بالغةً ، وذلك علىٰ نية كبيرة ، معاملة لله لا لمصلحة ، وكذا الحرث لا يزال يحرث ويستدين لأجل الحرث وعمارة النخل ، حتىٰ بلغ دينه في ذلك الوقت ست مئة قرش ، فأداه الله عنه علىٰ يد رجل من محبيه ، ولٰكن ما كان لله فالله المكافىء فيه ، وكان مقصود سيدي الحبيب محمد في الحرث نيات لا تحصىٰ ، منها : تحصيل القوت الذي به قوام العالَم ، ومنها : أن الحرث ملحوق غالب الخلق ، لا يخيبون منه ، ولو لم يكن إلا ما يأخذه أهل المكان من ماء العتم إذا شرب جميعهم منه ، وكيف لا والحرث من حين عِفْرِهِ[1] والعايش يعيش فيه ، مثل النخلة ، وفيه عين التوكل ؛ لأنه منظور لجميع الخلق وهو محفوظ ، وإذا وقع في البيت خوفه أكثر ، ومما أعلمني بنية الحبيب : أنه وقع معي حراثةٌ في بعض السنين ، فاتفقت به ، فذكر لي ذلك ، حتىٰ قال : لو لم تكن إلا الطيور تأكل وتشرب منه ، فكيف بأبناء جنسك ؟ ونيات العارفين لا تقدر بمقدار ، ولا أظن أن شيئاً من أموره خالياً عن نية ، يعرف ذلك من تتبع أحواله وأفعاله ، فيراها ظاهرةً لا تخفىٰ علىٰ ذي بصيرة ، وما كان اسبابه[2] في أمور الدنيا إلا للأكباد الجائعة ، حاشا مقامهم أن يطلبوا الدنيا ، قد تحققوا أن أول قدم لسالك طريق الآخرة : بعد التوبة الزهد في الدنيا ، ولو عرضت عليهم من غير عناءٍ لأبوا منها ، ومن كان من ورثة النبيين ما يطلبها ، ولٰكنها وسيلةً للآخرة ، وإذا أردت أن تعرف الصالحين . . فانظر إلىٰ زهدهم في الدنيا ، ومحبتهم المساكين ، فإن رأيته موجوداً فادن منهم ، ولا تظن

---

(١) أي : بذره . والعتم : الجدول الذي يجري فيه الماء .
(٢) أي : الحبيب محمد ، أي : أخذه في الأسباب .

أن الولاية تقع مع غير الزهد ، كما قال صاحب القوافي :

ألا إن ٱلسباقَ سباقُ زُهْدٍ وما في غيرِ ذلكَ مِنْ سِباقِ

أي : من الأعمال من غير زهد .

وكان ـ رضي الله عنه ـ حاله الرجاء في الله ، وفُتِحَ له باب الشكر لا يزال يذكر نعم الله وأياديه مدة وقته ، وإذا قرأ قوله تعالىٰ : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم : ٣٤] . . يظهر عليه التحدث بالنعم ، وقد يبيت في البلاد ولا يكون آخر الليل إلا وهو بمسجد الجد طه أول مبادر ، ويجلس متربعاً ولا يقوم إلا إذا طلع الفجر مجلساً واحداً ، وإذا سمع قراءته سيدي الوالد . . يحصل له من السرور أمر عظيم ، أنساً بالحبيب محمد ، وإذا قرأ الحبيب محمد . . لم يقدر المصلي يصلي ، من إحكامه مع الخشية لله ، يظهر أثر ذلك علىٰ الحاضرين ، وإذا وصل في قراءته قوله عز وجل : ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار : ٦] . . ترىٰ عليه دهشة حياء من الله تعالىٰ ؛ لأن هـٰذه الآية فيها عتاب إيقاظ ، والعارف يقع له ؛ لأنه تنفتح له أبواب من نعم الله العظيمة عليه ، وينظر إلىٰ تقصيره في حق مولاه مع كرمه عليه ، فتعلوه دهشة ويبقىٰ يكررها ، وذلك غير خاف ، وذلك ثمرة المعرفة بالله تعالىٰ ، وقيراط من المعرفة خير من أبهرة[1] من العلوم من غير معرفة .

وأخبرت أنه نام في بعض الأيام ، فرآه الحاضرون وهو نائم ، بدنه يذكر الله تعالىٰ ، حتىٰ ثيابه تتحرك وسبحته تنتفض ، ومن تأمل حال الحبيب محمد . . رآه أشبه بالشيخ أبي بكر بن عبد الله[2] ، والظاهر أن

---

(١) جمع بهار ، وهو ثلاث مئة رطل .
(٢) أي : العدني .

له مدداً ، منه ، حتىٰ أن من كلامه : من كانت له حاجة . . فليناد بٱسم الشيخ أبي بكر بن عبد الله ، فإنه يحضر عند ثالث صوت ، ذكر لي ذلك بعض المؤمنين عنه ، ولا شك أن الكرم الذي خصه الله به ـ الذي عز في زماننا ـ إنما كان وراثةً عنه ، وهـٰذا الكرم الذي يقع في المساكين . . عين السعادة ، والشاهد له قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥ـ٧] ، والبخل ضده ، وفي الحديث : « ٱلسخاء شجرة مغروسة في ٱلجنة وأغصانها في ٱلدنيا ، من أخذ بغصن منها . . قاده إلىٰ ٱلجنة ، وٱلبخل شجرة في ٱلنار ، وأغصانها في ٱلدنيا ، من أخذ بغصنٍ منها . . قاده إلىٰ ٱلنار »[1] ، وكما قيل : فاجر سخي أفضل من عالم لئيم ، وفي هـٰذا إشكال ، لعله الا عابدا ؛ لأن العلم إذا لم يدلك علىٰ السخاء . . فأين العلم منك ، والله أعلم .

وكان ـ رضي الله عنه ـ صاحب حلم وصبر عظيم ، ٱبتلي بكثرة آلام ، ولا أعلم بها أحداً ؛ كتماً منه رضي الله عنه ، ورضىً بذلك ؛ لأنه عالم أن ذلك من طريق الاختبار ، وقد وقع مع والده رمد شق عليه جداً ، فخرج إلىٰ العَتِمْ[2] يرش علىٰ عيونه ويتضجر من رَشْح العيون[3] ، فقال له الحبيب محمد : فضيلة كبيرة ، فقال له والده : خذ الفضيلة يا محمد ، من كثرة ما به من الوجع ، فكان الأمر كذلك ، حاز الفضائل كلها ، كما قال الشيخ أبو بكر بنُ عبد الله العيدروس :

لـو يَعلـمُ ٱلعُـذَّالُ مـا مَعَـانـا   لَقَصَّـروا فـي ٱللَّـومْ
إنّ ٱلـذي قـد صَـارْ فـي وِعـانـا   ذُخْـراً لـذاكَ ٱليـومْ

---

(١) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧/ ٤٣٥) .
(٢) الجدول الذي يجري فيه الماء .
(٣) أي : التهابها وحرقانها .

والحبيب محمد هـٰذا حاله ، وأَخَذ هـٰذه العلوم والمعارف عن سيدنا الحبيب علي بن عبد الله السقاف ، قرأ عليه العوارف ، وإذا قرأ عليه في المدرس تُبهر المستمعين قراءتُه ، كذا سمعته ممن حضر قراءته ، وأخذ عن ٱلحبيب يوسف الحسني ، وقرأ عليه كتباً عديدةً ، ولعله ـ والله أعلم ـ شيخ الفتح ؛ لأن حاله حال الحبيب يوسف من طريق الخمول ، ويقول به الحبيب محمد ، وقد تكلم فيه الحبيب يوسف ، وقال : من أراد أن ينظر إلىٰ من يمشي علىٰ الأرض هوناً . . فلينظر إلىٰ محمد بن علوي خيله ، وقال فيه مرةً أخرىٰ في مسألة ما قدر عليها جملة من العلماء : ظفر بها محمد بن علوي خيله ، ولا شك أن العلوم والمعارف التي خص الله بها الحبيب يوسف . . وقعت لسيدنا محمد المذكور ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد : ٢١] ، وبقي قائماً بحق الشيوخة في أولادهم ، يزورهم بإجلال وتعظيم ، ويواسيهم بكل خير .

وأما أمر الدنيا فيواصل البعيد ، فكيف بمن له يد عليه ؟ وكان له نظر علىٰ أولادهم الصغار من طريق التربية ، ولـٰكنه بسياسة إذا رأىٰ عليهم الحلية . . يقول لهم : الحلية إلا حلية بحرق ، التي فيها تربية الصغار ، وقد عز في زماننا هـٰذا ٱثنان وبعدهما وقع الفساد في هذا الزمان عدم حسن الظن في المشائخ ـ قراءة علىٰ غير حسن ظن إلىٰ العقوبة أقرب ـ وعدم تربية الصغار ، وقد ذُكر في الحديث : « أبواه يهودانه أو ينصرانه »[1] ، وكان يُعِدُّ للصغار ما يفرحهم وينشرح خاطره بهم ،

(١) أخرجه البخاري في (الجنائز) (١٣٥٩) .

ويقول : مجالسة من لا يعصي الله أولىٰ ؛ لأن الصغير قبل بلوغه لا يلحقه عصيان .

وكان مراعياً لأهل وقته ، يدور عليهم بنفسه لصلاة الصبح من غير عنف ، وكان صاحب الجابية صاحب حدة ، وإذا قل عليه المعاش ، أو حرك أحد طبيعته . . يقول للحبيب : ما عاد لي وللجابية ، فيعلم الحبيب بمراده ويعطيه ، ثم يقول له : ما زال عادنا وعادك بانعبّز وقتنا[1] ، ويأخذ له سعفاً إذا رآه خلي اليد ، يتسبب فيه[2] .

وكان لا إلـٰه إلا الله دأبه ليلاً ونهاراً ، وفي مسيره . ومن تأمله ما يراه ساعةً من الزمان غافلاً ، حتىٰ في كلامه مع الخلق ، ما وقع لي الاتفاق به . . إلا ورأيته يرشد إلىٰ طريق الآخرة ، وكان إذا رأىٰ أحداً بايلحقه البخص ولا شُوِرْ[3] لنفسه . . يوجهه إلىٰ حرفة عنده أو عند غيره علىٰ نية الفضيلة لا لحاجة نفسه معاملةً مع الله ، وكان لا ينقص أحداً أجرته ، بل يعطيه زيادةً علىٰ ما هو له ، وهـٰذا خير من الكرم ، الكرم إلا فضل ، وهـٰذا وفاء في الحقوق ، فالفرق بينهما كبير ، ولـٰكن لأهل البصيرة والنور الذين آثروا الآخرة علىٰ الدنيا .

وكان ـ رضي الله عنه ـ حليماً صبوراً ، لا يُرىٰ له غضب . . إلا لله لا لنفسه ، ما نازع أحداً في شيء من أحوال الدنيا مدة عُمْرِهِ ، وكان أمور أهل دائرته يتولاها بنفسه ، إن كانت قسمةً من طريق إرث أو

---

(١) أي : ما دمنا موجودين معاً فستعاون .
(٢) أي : ليصنع منه حصراً وقففاً ونحوها ، ويبيعها ويتقوت منها .
(٣) ولا شُوِرْ : أي ما عرف يتصرف .

غيره ، وكان سيدي الوالد يذكر ذلك ، ويقول : سبحان الله في أمر الحبيب محمد ، ما أطلعت علىٰ شيء من أحوالهم ، هٰذه الأخلاق ما أحد بلغ ما بلغه الحبيب محمد ، إن القاضي ما أطلع علىٰ شيء من أمورهم ، وذلك لهوان الدنيا عليه وصغرها .

وكانَ من عاداه من البدو أو غيرهم في شيء من أحواله تركه ولا يكلمه ، ولا يلتجيء إلىٰ أحد من القبائل ، وقد يقولون له بانقوم في ذلك فيردعهم ، وهم لهم حسن ظن فيه ولا يطيعهم ، ويقول : نخلي الأمر ينفذ ، ومع ذلك لا يدعو علىٰ ظالمه حتىٰ تجي غارة الله علىٰ أوليائه ، وذلك مرات عديدةً ، وكان حازماً من طريق القيل والقال ، يحذر منه ، حتىٰ أنه لما وصل الرَّصَّاصُ[1] إلىٰ (حضرموت) وأراد خرص[2] الأرض ، جمع سيدي الحبيب محمد بعض أولاده ، وقال لهم : أوصيكم بعدم الخوض في أمرهم أصلاً ، وأنت يا فلان ـ لواحد من أولاده ـ أطلع إلىٰ فلان من الذين هم من أهل الخرص ، وقل له : يقول لك حبيبي محمد : إن خرجت إلىٰ المكان للخرص يا ويلك ، فأخبره بكلام الحبيب محمد ، فلم يقدر يخرج ، وأستعظم كلام الحبيب ، ولٰكن أنظر إلىٰ السياسة العظيمة حيث منعهم من الخوض فيما لا يعني ، فما أوقع الناس في حبائل البلاء إلا ألسنتهم ، فالصالحون يردون الأمر إلىٰ الله لا إلىٰ مخلوق ، لأنهم يرون الأمور كلها من الله سبحانه وتعالىٰ .

وهٰذا حال سيدي الوالد ، ما نازع في أمر الدنيا ، يقول هٰذا النخل

---

(١) خرج بقومه من شمال (اليمن) واجتاح (حضرموت) في ذلك الوقت .
(٢) أي : فرض ضريبة عليها .

عندي[1] - لنخل كثير[2] - وهـٰذا الذبر عندي ، تركت ذلك صيانةً ومروءةً ، فالدنيا ما تذكر عند أهل الله ، فمن عرضت عليه الدنيا ونفاها . فكيف يخاصم عليها ؟ حاشا مقامهم رضي الله عنهم ، فالدنيا إنما جعلت زاداً للآخرة ، فمن مارىٰ عليها . . قاده الهوىٰ إلىٰ المنازعة عليها ، كما وقع في زماننا هـٰذا فهي زاده إلىٰ النار ، ولـٰكن هـٰذه صفات الصالحين ، ومن نظر إلىٰ قوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « ومن ترك ٱلْمِرَاءَ وهو محق . . بنىٰ ٱلله له بيتاً في وَسَطِ ٱلجنة »[3] ، إذا كان ذلك وهو محق ، ولا يكون الهوىٰ إلا علىٰ الدنيا الحقيرة ، التي ما ساوت عند الله جناح بعوضة ، قال السيد عليُّ بن حسن العطاسُ :

إن هُوْ علىٰ الدنيا فما تِسْوَى العَداوهْ للحَشِيم

وكان ـ رضي الله عنه ـ صاحب حسن ظن بالله ، ما رأيت علىٰ حسن ظنه في الله إلا سيدي الوالد ، كما شهد له بذلك سيدي الحبيب جعفر بن أحمد ، والحبيب محمد ما يُرىٰ له عمل غير حسن الظن بالله ، ومن حضر معه لم يخوفه بل يفتح له حسن الظن بالله ، لأنه محقق أن الخوف مع الخلق يفتح له ولهم باب القنوط ، الذي هو بعد الشرك . . أعظم الذنوب .

ودأبه تعداد نَعَمِ الله تعالىٰ ولطفُه بخلقه ، وإن وقع شيء يذكر أنه من باب التطهير ، وآخره رحمةٌ بالخلق ، لا يزال علىٰ هـٰذا المنوال ، وقد جلسنا معه مرات كثيرةً ، فلم نره إلا علىٰ هـٰذا الوصف ، وهـٰذا حال الشيخ أبي بكر بن عبد الله العيدروس ، كان كثير الرجاء مع جلسائه

---

(١) أي : من أملاكي . والذبر : هو الأرض التي لا شجر فيها ولا بناء .
(٢) أخرجه بنحوه الترمذي في «سننه» (٤/ ٤٥٨) .

لا يخوفهم ، خصوصاً مع العوام المساكين أهل الصلاح ، إذ الرجاء له أهل ، والخوف له أهل ، ومن كان حاله من أهل الرجاء.. لم يزل متصفاً به إلىٰ أن يلحق بربه ، وهو وصف أهل الله الكبار ، ولا تظن أن الخوف غير ملازم لهم مثل الرجاء ، إلا أن الرجاء أغلب ، أما ترىٰ الشيخ أبا بكر المذكور في بعض قصائده ، يقول في شيخه سعد السويني :

يا سَعدُ هل تِرحَموا أقلَ العَبيد

وفي بعض قصائده إذا غلبت عليه الأحوال.. يقول :

والله لَـولا الشـرعُ لَقُلـتُ هَيّـا واندَكَّتْ الأكوانْ.. إلى آخرها

وذلك لكمال حسن ظنه بربه أن يعطيه ما طلبه ، قال عبد الله بن الحصين : والله ما أحد أحسن ظنه بربه ، وطلب منه.. إلا أعطاه مطلوبه ؛ لأن الخير كله بيده ، تأمل قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس : ٨٣] ، ولكن حسن الظن لأهله الذين ذبحوا نفوسهم ، وعاملوا مولاهم بحسن الأعمال فهم أهله ، وما طلبوا أعطاهم ، وأهل الرجاء هم ، شربوا منه كأس المحبة ، وساروا إلىٰ الله من طريقها ، وعلامتهم التعطش إلىٰ مولاهم والأنس به ، وإذا جن الليل عليهم.. طابت أنفسهم ، وآستلذوا بصفاء الأنس ، كما قال الشيخ أبو بكر بنْ عبد الله : السهر بالليل عبادة ، ولو علىٰ تشريق[1] الحطب ، وهـٰذا الذي ذكرناه حال سيدنا الحبيب محمد ، نفعنا الله بهم ، وجمعنا في دار كرامته .

وكان ـ رضي الله عنه ـ بينه وبين سيدي الوالد محبة عظيمة كأنهما

---

(١) أي : تقطيعه .

شخص واحد ، ولا شك أن الأخوة في الله أعظم من أخوة النسبِ ، وكان سيدي الوالد صاحب إنصاف ، وكان الحبيب محمد صاحب أحوال ، يخفي نفسه وأحواله جداً ، ولا يحب أن يظهر شيء منها بل نفسه تريد إخفاها ، وذلك لكمال عقله ، ورسوخ قدمه ، حتىٰ خفي حاله علىٰ الصالحين ، مثل الحبيب جعفر بن أحمد بن زين الحبشي ، والحبيب عمر بن سميط ، والحبيب حامدِ بن عمر ، وجملة من أكابر الصوفية ، ولٰكن سيدي الوالد ـ رضي الله عنه ـ لكمال إنصافه ، وعدم رؤية نفسه بالكلية أنه من أهل الفضل ، وحسن ظنه بالله ، وكمال نور بصيرته . . فإنه أعطي من أمر البصيرة الثاقبة ما يحير فيه من نظره ، وكانت فراسته لا تخطىء ، وكلامه إذا نظر إلىٰ الطفل . . يقول : هٰذا عليه أثر ملاحظ الخيرية ، ولا يُخطىء ، وكان إذا نظر إلىٰ من هو في غمرة الدنيا . . أفاق من غمرته في نفس الوقت ، وأعطي من طريق الإنصاف شيئاً عظيماً ، فبذلك أظهر سيدي الحبيب محمد ، إذا آتفق بالسادة الأكابر الذين ذكرناهم ذاكرهم في الحبيب محمد ، ويذكر لهم صفاته وولايته وعُظْمَ مقامه ، ولا يزال في مجالسه يعظم الحبيب محمداً حتىٰ وصلوا الأكابر إلىٰ مكانه لزيارته ، وكنت أتعجب من الحبيب محمد في إخفاء حاله عن الأكابر ، ولٰكن لما كانت سريرته عظيمة ، ونيته ومقصده عدم إظهار نفسه ، وطلب الخمول ، وكتم أحواله كلها . . أظهره الله علىٰ يدي سيدي الوالد ، حتىٰ قصدوه بالزيارة ، حتىٰ أن سيدي الحبيب عمر بن سميط لما قربت وفاة سيدي الوالد والحبيب محمد . . وصل إلىٰ الفجير[1] نافذاً إلىٰ (تريم) ، وقصد مكان الحبيب

(١) الفجير : ضاحية من ضواحي (سيون) .

محمد ، وأتفق أن سيدي الوالد خرج إلىٰ عند الحبيب محمد للزيارة ، فحصل الاتفاق بين سيدي الوالد والحبيب عمر والحبيب محمد ، وكان سيدي الحبيب محمد مغتبطاً بذلك يتلألأ وجهه من شدة الفرح ، فكان هٰذا الاتفاق آخر أتفاق بين هؤلاء الحبايب .

وكنت إذا وصلت إلىٰ حضرة الحبيب عمر ذكر لي ذلك ، وهو مغتبط به ، كلما وصلت إلىٰ حضرته ذاكرني في ذلك الاتفاق الذي وقع من غير ميعاد ، لأن سيدي الوالد والحبيب محمداً وقعت وفاتهم بعد ذلك المجلس بوقت قريب ، ويقول : هٰذا الاتفاق أتفاق استيداع .

وكان يتردد لزيارة سيدي الوالد ، وسيدي الوالد يخرج لزيارته ، هو والسادة آل طٰه الجميع ، ومن معه من المؤمنين ، فيفعل لهم الحبيب محمد ضيافةً ، حتىٰ يشق ذلك علىٰ سيدي الوالد ، فقال له : إن أردت خروجي إليكم لا تفعل شيئاً من هٰذه الأمور ، فأمتثل ذلك الحبيب محمد أدباً ، وهو مجبور علىٰ ذلك ، لأنه وقعت منه مراجعة لسيدي الوالد ، وذلك شفقةً عليه ؛ لأنه أبتلي بخلق الله ، فمكانه لا يخلو من الخلق ، ولا أحد ينفذ من مكانه إلا بعد الإكرام - رضي الله عنه - مع نية عظيمة يحير فيه مجالسه .

وكانت أوقاته معمورةً ، بالطاعة موزعةً ، غالب وقته طاعة ، وكان بينه وبين سيدي الوالد محبة أكيدة ، وصلة وصحبة في الله ، لا يزال يذكره ، وله كرامات عديدة ، نذكر منها أثنتين ؛ إعلاماً بحاله .

أولاً : فالشمس لا تحتاج إلىٰ إظهار ، والكرامة العظيمة الاستقامة ، فهي الكرامة علىٰ الحقيقة ، أخبرني بعض المؤمنين : أنه أراد الدخول علىٰ الحبيب محمد ، وهو جالس في غرفة بيت يذكر الله

تعالىٰ ، وعنده شخص يحاوره ويخاطبه ، فلما دخل هٰذا الإنسان.. خرج ذلك الشخص من خلفة[1] المنزل ، وهي بثالث قصر ، وهو ينظر إليه بعينه ، وهذا من أهل الغيب .

وثانيا: أخبرني بعض الصالحين المنورين : أنه زار قبر سيدنا محمَّدِ بن علوي ، فظهر من قبره شمعة كالسراج ، فتحقق للزائر أن هٰذه روحه رضي الله عنه ونفعنا بأسراره، وكانت وفاته ـ رضي الله عنه ـ بعد وفاة سيدي الوالد بثمانية أيام ، وكان مرض سيدنا الوالد قبل الحبيب محمدٍ ، فطلع الحبيب محمَّدٌ لزيارته ، فلما رآه سيدي الوالد. . رأيت عينيه تذرفان بالدموع ، وذلك من صدق المحبة ، حتىٰ وقعت المذاكرة بينهما ، فكان سيدي الوالد يقول : إنه يشق علي الأنين ، وأن علوي بن عمر[2] يقول : إن أنين المريض تسبيح ، وأنه يسكن خاطري ، وذلك لهم ؛ لأنهم في عين الرضىٰ فلا يضرهم ذلك ، ولا شك أنه يكون لهم تسبيح ، وأما غيرهم فلا يكون لهم تسبيح إلا إن أُعطوا ذلك المقام ، ولما خرج سيدي الحبيب محمد. . وقع عليه المرض ، ولما توفي سيدي الوالد. . قال لهم : الحبيب سقاف راح ، وذلك من طريق الكشف ، وهٰذه أحوال الصالحين ، وما ظهر منها شيء يسير من أمر كبير ؛ لأن أحوالهم وأمورهم ، دقيقَها وجليلَها لله تعالىٰ ، وقد وصفهم الله بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة : ١١١] ، فلا تظن أن شيئاً من أحوالهم يخرج لغير الله تعالىٰ ، فحاشا مقامهم فهم القوم الذين لا يشقىٰ

---

(١) الخَلفة : هي النافذة ، والقصر هنا : المراد به الطابق ؛ أي : من الطابق الثالث .
(٢) لعله علوي بن محمد بدل عمر .

جليسهم ، نظرهم رحمة ، وكلامهم شفاء ، أُعطوا من خزائن رحمة الله ما أوصلهم إلىٰ سعادة الأبد ، وشربوا من رحيق وداده ما أسكرهم ، وتاهوا في ميدان عرفانه ، فأذاقهم النعيم قبل الوصول فتنعموا بأنسه ، فغابوا عن غيره ، فرحمته عليهم كالغيث الماطر ، كما قال الشيخ أبو بكر بنُ عبد الله العيدروس :

بُروقَ الحِمَى أَبْرُقِي يا بُروقْ عسى اللهْ يسقي بك المُجْدِبين
عسى أغصانُنا الذاويةْ تَنتعشْ وتُثمرْ معًا جملةِ المُثمِرين

فالله يجعلنا منهم بفضله وكرمه ، ويرزقنا محبتهم ، ويسلك بنا في مسلكهم وفي زمرتهم ، إنه جواد كريم رحيم ودود .

* * *

الباب الثاني

في أخلاقه الرضية

وشمائله المرضية وصفاته العلية

الباب الثاني

في أخلاقه الرضيّة وشمائله المرضيّة وصفاته العليّة

كانت أخلاقه رضي الله عنه أخلاقَ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، وقد وصف الله تعالىٰ أخلاق رسوله بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

وقال عز من قائل كريم ، في أوصاف عباده المؤمنين :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣-٦٤] ، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

وهٰذه الأخلاق هي التي من منحه الله شيئاً منها . . فقد حَظِيَ بالسعادة الأبدية ، والوراثة المحمدية ، وصار قربه إلىٰ الله بِحَسَبِ ما أعطي منها ، لا بكثير صلاة ولا صيام ، كما قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ، ولٰكن بشيء وقر في صدره »[1] .

---

(١) قال العجلوني في « كشف الخفاء » (٢/٢٤٨) : ذكره في « الإحياء » وقال العراقي : لم أجده مرفوعاً .

وقد أكرم الله تعالىٰ بعض عباده بها ، وجعلها مجبولةً فيهم من غير اكتساب ولا عذاب ، وهٰؤلاء هم الذين كملت فيهم الوراثة المحمدية ، وهم أصفياء الله وخاصته ، وأهل ولايته المعنيون بقوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨-٨٩] ، ويقول رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « **إن أقواماً يدخلون ٱلجنة بغير حساب** » قيل : ومن هم يا رسول ٱلله ، قال : « **ٱلهينة قلوبهم** » . وإنا لا نستقصي جميع أخلاقه ، بل نقتصر علىٰ ما يدلك علىٰ علو قدره ، ويكفي ذا القلب الطيب أنا تتبعنا أكثر أحواله وأفعاله ، مع كثرة المجالسة معه ، فرأيناه علىٰ قدم رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم لا يحيد عنه ، وشواهد ذلك ظاهرة فيه ، وسنبتدي في أخلاقه ونأتي بها مفصلةً ، كل خلق علىٰ حدته .

فأول أخلاقه ـ رضي الله عنه ونفعنا به ـ الصدق : ٱمتزج بلحمه ودمه ، وصار عادةً له ، إذا خطر بباله شيء ظهر علىٰ شفتيه ، ويلوح علىٰ وجهه ، يظهر علىٰ كل من رآه يتكلم ، ويتكلم في أمور خاصته بما يشق ، ويصله بسببه أذىً كثير ، وصارت سريرته أعظم من علانيته ، وقد رأيت كثيراً من الصالحين ، ما علمت أن أحداً بلغ مقامه في الصدق ، وهٰذا الصدق شأن الصالحين ومُعوَّلُهم ومدارُهم عليه ، وبه يبلغ الرجال مقامَ الصديقية الكبرىٰ ، ويصير من ورثة النبيين ، وقد وصف الله النبيين به فقال : ﴿ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم : ٤١] ، وقال : ﴿ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٤] ، وفي الآية الأخرىٰ : ﴿ يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : ١١٩] .

فإذا نظرتَ إلىٰ الصدق ـ وجدتَه أصلاً عظيماً ، وعليه تنبني الأمور في السير إلىٰ الله ؛ لأن صاحب الصدق الغالبُ عليه عمارةُ الباطن ،

التي هي أصل الشيء كله وضد الصدق يدل على خراب الباطن ، لأن من لازمِه أن يغش المسلمَ بأخذ ماله ، كمن تكلم في سلعة بخلاف ما فيها ، وإخفاءِ حق غيره والغدر والخيانة وأمورٍ أقبحَ من هٰذا لو أستقصيناها . . لخرجنا عن المقصود ، ويكفي في ذمه أنه قيل لبعض العارفين : أيزني المؤمن ؟ فقال : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب : ٣٨] ، قيل : أيكذب ؟ قالَ : لا . وٱستدل بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ١٠٥] .

فإذا أردت أن تقتفي آثار الصالحين ، وتحشر مع النبيين . . فطهر قلبك منه تطيهر الثوب من الدنس ، فنجاسة الظاهر تزول بالماء ، وهٰذه النجاسة لا تزول إلا بمكابدات عظمية ، وبعض الصفات في الإنسان مثل الحسد والكذب والرياء ومحبة الدنيا . . تصير كالنجاسة الكلبية ، ومن تعود الكذب . . ٱنحط به الحال إلىٰ أن يصير من المنافقين ، وقد قيل في وصف النفاق : « إذا حدث . . كذب ، وإذا وعد . . أخلف ، وإذا ٱؤتمن . . خان » ففي هٰذا صفتان من الكذب .

وٱنظر إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة : ٧٥ـ٧٧] ، فجعل الخُلْفَ والكذب سبباً في نفاقهم .

ومن تعود الصدق . . ٱستنار باطنه وصار محلاً لنظر الرب ، وتصدق رؤياه وتكون كفلق الصبح ، لصلاحية باطنه . رجعنا إلىٰ ما نحن بصدده .

كان رضي الله عنه إذا تكلم في كلامٍ.. يردده ويقول : أخاف أن تزيد علي كلمة فأكذبَ ، فأنظر إلىٰ هـٰذا الحزم العظيم ، وقد سار في بعض الأيام لزيارة سيدنا الحبيب محمد بن سميط إلىٰ (شبام) هو والحبيب الحسن بن علي بن الصادق الجفريُّ ، حتىٰ وصلوا إلىٰ (شبام) بعد الضحىٰ ، وقد أكلوا قليل تمر فسألهم الحبيب محمد : هل تغدَّيتمُ ؟ فقال له الحبيب حسن : نعم ، فقال له سيدي الوالد : أبداً ما معنا إلا قليل تمر ، فتعجب الحبيب محمد من ذلك ، وكان إذا سار إلىٰ (شبام) لزيارة الحبيب محمد.. يقول الوالد : نويت أن أجلس ثمانية أيام في بيتكم ، فكان يظهر ما نواه في قلبه معاملةً مع ربه ، وكان الحبيب محمد المذكور يقول : نتعلم الصدق من سقاف رضي الله عنهم ، ونفعنا بهم آمين .

وكان يتكلم بالصدق في مواطن الهلكة مع السلاطين والظلمة ، يصدع بالحق ، ولا يخاف في الله لومة لائم ، وكان لا يرىٰ له طبع علىٰ أحد من خلق الله ، بل هو رحمة لكل الخلق ، إلا عند الشريعة المطهرة ، إذا ظهر من أحد إساءَةُ ظنٍ في حكم أو كلام يتعلق بالشريعة ، يغضب غضباً شديداً يظهر عليه ذلك ، حميةً علىٰ ذلك الشخص من هلاك الدنيا والآخرة ، بل هلاك الدنيا قليل مع سلامة الآخرة ، وكان لا يخاف غير الله ، ولا يزلزله شيء ، بل هو جبل راسخ ، وطود شامخ ، يِختِيِز[1] عند الامتحان ، لا يرىٰ إلا الواحدَ المنان ، وقد حصلت له وقائع منها :

---

(١) معنىٰ يِختيز هنا : يثبت عند المحن والشدائد .

وصول المُكْرِميّ إلىٰ (حضرموت) :

أنه لما خرج المكرمي إلىٰ (حضرموت).. تزلزل مناصبها وأعلامها ، وزالوا عن أماكنهم وتزبنوا[1] بالحصون والمعاقل ، غير سيدي الحبيب عليّ بن عبد الله وسيدي الوالد ، بقيا في بيوتهما ، فلما وصل المكرمي إلىٰ (شبام).. عارضه[2] سيدي إلىٰ سحيل (شبام) ، وجلس معه في بيت معروف ، وقال له : خرجتَ تريد (حضرموت) ؟ ومع هـٰذا الجندي أعوان من أهل الأرض ، مثل الدولة والجُهُوريّ وآل هرهرة ، فقال له الوالد : أريد منك العهد ، فقال له الجندي : علىٰ أيّ شيء ؟ فقال له : علىٰ أعوانك فهم أعداء لله ولأمة محمد ، بواطنهم خبيثة علىٰ المسلمين ، تعطيني العهد علىٰ أن لا تتبعهم في أمر ؟ فأعطاه العهد في ذلك ، وبقي الجندي المذكور حاطاً[3] تحت (شبام) ، وأرسل ولده وطائفةً من جنده إلىٰ (سيون) ، وبقي سيدي يختلف عليه ، وكلما هم في أمر من الأمور الشنيعة.. منعه منه ، وهم لا يخافون الله ، وهم طائفة من (نجران) معروفون ، وكلما أرادوا أمراً فيه علىٰ أحد من المسلمين ضرر.. منعهم ، حتىٰ ديار يافع منعهم من كسرها ومن قطع أموالهم ، وحصل له عندهم الجاه العظيم والصولة التامة ، وقال له بعض رؤسائهم : نرتفع من الأرض لمحبتك[4] ،

---

(١) تزبنوا : أي لاذوا وتحصنوا بالحصون والمعاقل التابعة للأجناد حملة السلاح ؛ يحتمون بهم .

(٢) أي : قابله ولا هابه ولا رَهِبَهُ .

(٣) أي : نازلاً ومخيماً .

(٤) أي: من أجلك .

ووقعت له أمور عجيبة ، وآعترضوا يوماً جملة ركاب حاملات خريفاً لبعض يافع فآعترضهم سيدي ، وقال لهم : الخريف حقي ، وكلما وصلوا إلىٰ مكان لِيُغيروا عليه . . قيل لهم : هٰذا مكان الحبيب سقاف ، فيتركونه ، فنم بعض أهل البلد علىٰ سيدي ، وقال لهم : الخريف خريف العسكر ، وإنما الحبيب مُوادٌ لهم ، فلما طلع سيدي إلىٰ عندهم آشتحن[1] عليه أحد رؤسائهم شِحنةً عظيمةً ، آشتغل منها ، حتىٰ قال له الجندي إنما أنت مواد ليافع وخصم لنا ، وكلام قبيح ، فخرج من عندهم مكسور الخاطر ، فلم يلبث إلا قليلاً ، فوصل إليه رسول منهم ، فقال : إن مرادهم أنك تصل إليهم ، فحزن سيدي جداً ، ووقع بقلبه أنهم أرادوا قتله ، فأدركته الثقة بالله ، ولم ير غير الله ، فطلع إليهم ، فلما وصل آستقبله الشخص الذي أغضبه وآعتذر إليه ، وقال : آعلم ـ يا سيدي ـ أني أغضبتك وشغلتك ، وأنا منطرح إليك وناصرك ومعينك ووزيرك ، فآنشرح لذلك صدر سيدي ، وعلم أن ذلك عناية من ربه ، فكان الجندي المذكور كلما آستعان به سيدي . . أعانه ونصح معه ، فهٰذه أمور ينتجها الصدق مع الله تعالىٰ ، فمن صدق الله في أموره وأحواله وأفعاله . . فلا شك أن الله ناصره ومعينه ، ومن كان اللهَ ناصره . . فلو آجتمع أهل السماء والأرض أن يضروه . . لم يقدروا عليه ، وقد وقعت له وقائعُ مثل هٰذه أو قريباً منها مع السلطان مُحسنِ بن عمر ، حين دخل (سيون) هو وجنده ، وأخذ في نهبها وإحراق ديارها ، فلم يبق إلا سيدي ، منعه من بيوت كثيرة ، وكذلك الرصاص لما خرج إلىٰ (حضرموت) ودخل (سيون) فجلس معه ،

---

(١) غضب واحتد .

وعظم سيدي وهو شيطان وسلطان مدلس ، فلما علم سيدي بحاله غضب سيدي عليه ، وصدع بالحق ، ولم يخف منه ، وكم له من الوقائع عند الشدائد ، لا يخاف في الله لومة لائم ـ رضي الله عنه ـ وأفاض علينا من بركاته .

ومن أخلاقه رضي الله عنه ونفعنا به الورع :

بلغ في الورع مقاماً يعز وجوده في زماننا ، قل ما بلغ أحد من الصالحين مقامه فيه ممن رأيناه ، كان الورع حليفه لا يفارقه طرفة عين في مأكله وملبسه وفي جميع أموره ، بل حتىٰ في جميع أحواله وأقواله وخطراته ولحظاته ، وهو أول قدم للصوفية بعد التوبة الصادقة ، كما قيل : (أَطِبْ مَطعمَك ، ولا عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار) ، كان ـ رضي الله عنه ـ يتحرز في قوته غاية التحرز ، يشتري طعام قوته من الأخ محمد بن علوي بن طٰه ، ويقول : إني وجدت طعامه أقرب إلىٰ الحل ؛ لأنه صاحب حرث ، وعنده صالي[1] يخدمه ، قائم به المقام الأكيد ، لم يقصر عليه شيئاً من أحواله ، والأرض أرضه يحرثها ، وكل ما يحتاج إليه حرثه من ذات اليد ، فأنظر إلىٰ هٰذا النظر العظيم .

وكان في ملبسه إذا أراد ثوباً . أخذ العُطُب[2] من محل طيب ، وأعطاه من النساء من يعلم من حالهن الفرح الكبير ، ويعطيه الحائك

---

(١) الصالي : هو عامل زراعي يقوم برعاية النخيل والزرع وبسقيهما بالسناوة مع السواني ، لقاء أجر معين يتقاضاه ، وليس له من الحاصل شيء ولا عليه من المصاريف شيء .

(٢) العُطُب : القطن ، مترادفان .

الورع ، وكان إذا جاء إلىٰ بيت وأهله معهم مال حلال ، ولهم شيء من أوقاف المساجد . . إذا قُدِّمَ إليه تمر . . قال : هـٰذا من الوقف أو من مالكم ؟ فإن قيل من الوقف . . رده إليهم ، ويقول : ربما ما قمت بحق الوظيفة كلها ، ويجلس بلا غدا ، فهـٰذا من شدة الورع ، لأنه ما ترك ذلك إلا خوفاً من التقصير ، مع أنه لمْ يعلم بالتقصير ، وإنما تركه خوفاً من التقصير ، وقد رأيته مرات عديدةً إذا وصل إلىٰ حضرته إنسان ، وطرح الجفل ليتقهوىٰ[1] ، إذا طرح ذلك الرجل قهوته فرأىٰ فيها الوالد زيادة قام إليه وأخذ من قهوة ذلك الرجل بقيمة ثلاث خماسي[2] مثلاً ، ورد له الزائد ، ويقول : ما هـٰذه عادتك ، فلم يلبث إلا أياماً ويظهر أن مع ذلك الرجل خصومة مع غيره ، وقصده المحاكمة ، وقد رأيته رد جفنةً من التمر أهداها إليه بعض الناس مرات كثيرةً ، وكان لا يقبل من النساء شيئاً ، ويقول : رفق النسوان مشبوه ، مع أنه لم يعطه أحد شيئاً إلا وهو متحرٍ فيه ، وإن قبض شيئاً من ذلك . . صرفه إلىٰ غيره ، وذلك بالمشاهدة منه .

وكان يثني علىٰ أهل الورع ، ويقول : ما أحد عندي كبير إلا من له في الورع قسم وافي ، وكان إذا سمع بأحد من أهل الورع أحبه ، ويقول : كبر عندي ولو فيه ما فيه ، وقد سمع عن بعض الحَوَكَةِ[3] أنه

---

(١) الجفل: هو البن ما دام في قشره ، ويتقهوىٰ : أي يشرب القهوة ، وهي شراب البن .

(٢) الخماسي - جمع خُمسِيَّةٍ - : وهي عملة نحاسية من النحاس الأحمر ، بمنزلة الفلس ، والجمع فلوس .

(٣) جمع حائك : وهو النساج .

اشترىٰ جِزْحَ عُطُبٍ[1] وتسلمه ، فلما وزنه وَجَدَهُ علىٰ رَفْعة رَفْعة . . وجد فيه رفعةً ونصفاً زائدةً ، فردها إلىٰ بائعه ، فلما سمع سيدي بذلك الرجل . . طلع إلىٰ عنده ، وقال : نزورك لما فيك من الورع .

وكان ـ رضي الله عنه ـ لا يجلس معه أحد من النساء . . إلا وعقد بيتها ، وذلك من شدة ورعه وحزمه ، وكان لا يمر في مَعْمَلة[2] لإنسان ولا شيء من الأملاك ، حتىٰ قال لي الأخ علوي : كنت أمشي خلف سيدي الوالد ، إذ نحن في زرع بر صغير ، فوقع بقلبي كيف سار فيه مع حزمه ، فالتفت إلي ، وقال : لولا أنه ينفعه ، ما مضينا فيه ، مكاشفةً منه .

وكان ـ رضي الله عنه ـ إذا جاء من مكان من أمكنة أصحابه ومحبيه ، وعزم عليه إنسان ليتبرك به . . لم يعتزم له أصلاً ، ويقول له : إذا مرادك لقانا فسر إلىٰ المسجد ، وإني لا أعود نفسي ذلك ، وذلك من شدة ورعه ، لأنه يخاف أن ذلك الأمر مجاملة من قبل محبيه ، أو فيه شائبة ، وهذا الورع الخالص ، الذي أعمال صاحبه تصل إلىٰ الله من غير حجاب ، وقد قال لي : إني كنت يوماً أمشي مع والدي ، فأخرجت ريشةً من زرعة ، فنظر إلي والدي ، وقال : تجي بها من أين في الآخرة إذا طالبك الرب بها ـ قال وأنا صغير ـ قال : فبقيت تلك الكلمة في قلبي ، لم أنسها أصلاً .

وكان ـ رضي الله عنه ـ يوفي الصدقة[3] إذا حصل لها حساب عنده

---

(١) الجزح : كمية معينة عندهم من العطب : وهو القطن ، وكذلك الرَّفْعة .
(٢) أي : مزرعة .
(٣) المراد بالصدقة هنا : الوقف كالمسجد وغيره .

عشرةَ قروش ، مثلاً أعطىٰ المسجد نحو ثلاثين قرشاً ، ٱحتياطاً منه ، وحزماً وورعاً ، مخافة أن يقع في المحذور ، كما قال الفقهاء : ما لا يتم الواجب إلا به . . فهو واجب .

ومن ورعه - رضي الله عنه - أنه كان يبادر إلىٰ براءة الذمة ، يِتْقَن[١] الأوقية والخُمْسِيَّةَ إذا عامل أحداً من أصحابه . . يبادر إليه بحسابه ، وكان يشتغل إذا طالت ٱلمدة علىٰ أحد من معامليه ، وترىٰ في وجهه أثر الحزن .

ومن ورعه - رضي الله عنه - إذا عامل أحداً من أصحابه . . فإن أعطاه طعاماً . . زاده في الأوقية ثلث مُضراً[٢] أو شَطْراً ، وإذا أعطاه تمراً . . زاده رطلين أو ثلاثةً في الأوقية ، وذلك من غير شرط من الدائن ، وإنما ذلك من سيدي إحسان ، وحزم ، حتىٰ يكون معهم علىٰ طيب قلب ، إذا طلب منهم شيئاً بادروا إليه فرحين لإحسانه إليهم ، وكان إذا طلب من أحد أن يفعل له شيئاً من الخدمة مثل نورة أو بناء أو حرفة . . لا يشارطه بل يعطيه مثلي أجرته ، وقد قيل له : إنك تُفْرِط ، فقال : أحسن ، أَخرُجُ من الحرج .

وكان - رضي الله عنه - إذا أراد أحد أن يفعل في ذات المسجد شيئاً ، مثل نورته التي في الأرض أو فرشه أو غير ذلك ، ويريد الاختصاص به . . لا يوافقه ، ويقول : لك قسمك ، وأنا نائب عن أهل الوقف ، أدخلهم في ذلك ، فٱنظر إلىٰ هـٰذا النظر الثاقب والفهم الصائب .

---

(١) أي : يذكر حتى الأشياء الضئيلة التي يتسامح فيها غالباً كالأوقية والخُمْسِيَّة أي الفلس ويؤديها لصاحبها .

(٢) المُضْرا : هو المد ، والشَّطْر : نصف المد ، والأوقية هنا : كعملة من فئة تفاريق الريال ، فهو يساوي عندهم سبع أواق ونصفاً .

وكان رضي الله عنه ، ونفعنا به ـ إذا أراده أحد أن يتعشىٰ عنده . . قال له : لا تعزم علي إلا إن كان اللحم معروفاً من مكان مليح[1] ، وذلك احتياطاً من لحم السوق ، لأنه لا يخلو عن شبهة ، وكان الورع حليفه في جميع أحواله وأفعاله ، ونومه ويقظته ، وسره وعلانيته ، ودقيق أموره وجليلها ، وإنا لا نذكر من ورعه إلا ما يكفي الموفقَ ، ويَسْتَدِلُّ به علىٰ أحوال الصالحين ، ولو أتينا بعشر العشير . . لخرجنا عن مقصودنا ، وإنما المقصود لتعلم مقام سيدي ، ولعل من إخواننا ممن له تشمم لمقامهم أن يعثر عليه ، ويأخذ منه ما هو مقسوم له ، والمعطي موجود ، والطريق ليس بمسدود ، وفيما ذكرته لمنْ وفقه الله كفاية .

ومن أخلاقه ـ رضي الله عنه ونفعنا به ـ الإخلاص :

الذي لا يقع إلا للخواص إذ هو من أحوال الصالحين ، وأخلاق العارفين ، ومن حقه أن يتأخر عن الأخلاق والأفعال ؛ لأنه لا يوجد إلا بعد وجودها ، بل لا يكون إلا لها ، ولـٰكن لما كان بمنزلة الروح للجسد ، وما الجسد إلا كالوعاء للروح ، كان أحق بالتقديم ، وهو تصحيح الأعمال وتحريرها عن الشوائب كلها ، وهو لا يقع إلا للعارفين ، أهل الولاية والتمكين ، فإن أعمال الخلق في الآخرة . . تُعرض علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ، فإن وُجِدَتْ مدخولةً . . فهي عليه مردودة ، وحق له الخزي والوبال ، والويل والنكال ، وإن وجدت مقرونةً بالإخلاص . . جاد له مولاه بالخلاص ، وأدخله في جنة عرضها السمـٰوات والأرض أعدت للمتقين ، وأنظر إلىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ :

---

(١) أي : من حيث الحل .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦٤] ـ فأنظر إلىٰ هـٰذا المثال العجيب ، إذ لم يدرك شيئاً من أعماله ـ فصح أن الأعمال المدخولة التركُ لها أسلمُ ، اللهم إلا أن يكون فيها العمل الخالص وغير الخالص ، فيكون ممن قال فيهم : ﴿ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ [التوبة : ١٠٢] ، مع الاستغفار والاجتهاد في إصلاح أعمالك ، فهـٰذا العمل أولىٰ من الترك ، ولا يكون إلا ذلك ، وإلا وقعنا في الطرد والبعد ، وتكون حيلتنا الاعتراف ، والرجوعَ إلىٰ خفي الألطاف . اللهم . . أنت المصلح لأحوالنا وأفعالنا ، فخذ بأيدينا ، ولا تكلنا إلىٰ أنفسنا ، كما قال الشيخ عمر بامخرمه :

فأنَّها انْ لَمْ تكنْ مِنَّكْ عنايهْ وتوفيقْ ما ظَهَرْ من نفوسِ السُوءْ غير التَخاريقْ

نعوذ بالله من درك الشقا ، ومن رجوع القهقرىٰ .

رجعنا إلىٰ ذكر سيدي نفع الله به ، كان ممن خصه الله بالإخلاص ، فقد كان ممن لا تظهر له أعمال ، بل كان يخفيها ، وأكثرُ أحواله معاملاتٌ لله ، وحاله أشبه بحال الشيخ عبدِ الرحمـٰن السقاف ، بل حاله حال الشيخ كما ذكرناه ، لكون سيدي الحبيب عبد الله الحداد ذكر للجد محمد : أنه يجيء لك ولد حاله حال الشيخ عبدِ الرحمـٰن وذكر له العلامة ، فكان الأمر كما كان ، حتىٰ ذكر أن الشيخ عبد الرحمـٰن دعا علىٰ أخدامه المنسوبين إليه بالفقر ، فكان سيدي كذلك دعا علىٰ أخدامه بالفقر . وهو ظاهرٌ كلُ من أنتسب إلىٰ سيدي ومعه شيء من أمور الدنيا ، إذا تَخَدَّمَ لسيدي . . فات ما معه في الحال ، حتىٰ أن كل من

أراد التخدمَ. . يُعلِمهُ بذلك ، فإن رضي. . دخل ، وإلا هرب ، وقد قال يوماً في بعض مباسطاته : أخدامي كلهم أعتلاهم الفقر إلا فلان ، يعني بالفلان : عمر الصبان فكلما أراد أن يِبرك عليه. . طردته بالصمِيلِ[1] والأمر كما قال ـ هـٰذا المحب المذكور مصحوب بالجمالة ، كلما ضاقت عليه. . حصل له الفرج ـ وذلك من قبيل سيدي ، وكلام الصالحين وإن كان هزلاً. . فهو جد ، حتىٰ أنه وضع خَلْعاً[2] في علم بدر ، كل خلعة قرأ عليها يٰس ، وكذلك الشيخ عبد الرحمـٰن قرأ علىٰ كل خلعة ختمةً ، وكان سيدي ما يغرس شيئاً في الأرض من الخَلْع إلا ونَمَا ، وكان سيدي لا يدعو علىٰ أحد ، إلا شخصاً واحداً من الظلمة ، أبتَلَىٰ سيدي في شيء من أمور الدين ، فدعا عليه فحصلت النقمة علىٰ ذلك الرجل ، والشيخ عبد الرحمـٰن لم ينقل أنه دعا علىٰ أحد إلا شخصاً من الدولة في (شِبامٍ) ، خرج ذلك الرجل يرعىٰ مواشيَهُ في زروع الناس ، فأستغاثوا بالشيخ أن يتشفع لهم عند ذلك الرجل ، فخرج الشيخ إليه ، وتشفع عنده ، فلم يقبل من الشيخ ، حتىٰ قال للشيخ : أنت ما يمر حكمك إلا من (كَحْلانَ)[3] فدعا عليه الشيخ أن يصيبه الله بعلة ، ويصل إلىٰ (كَحْلانَ) يطلب الصفح ويموت منها ، فكان الأمر كما كان ، وقعت ٱلدعوة وأجيبت علىٰ ذلك الرجل ، ولا شك أنها دعوة وهي من الشيخ رحمة ، لأنه دعا له بالموت في تلك الأماكن ، والسبب في إظهار القصة : أنه جاء رجل ووجد ثياب الشيخ عبد الرحمـٰن واقفة من غير

---

(١) هو الهراوة التي يضرب بها .

(٢) الخلع : فسائل النخل عندما تغرس ، واحدها خلعة .

(٣) كحلان : قرية كانت بطرف الجبل المسمى حيد قاسم الذي تلتقي عنده سيول وادي شرو وعِدِم تبعد عن (تريم) جنوباً بحوالي سبعة أميال ولا وجود لها اليوم .

شخص ، فلم يلبث إلا والشيخ فيها ، فسأله ذلك الرجل عن ٱلواقعة ، فأعلمه بالقضية ، قال : وإني دعوت عليه وٱتبعت الدعوة لأردها فوجدتها قد نفذت إلىٰ باب العرش ، فكان سيدي الوالد علىٰ منوال الشيخ عبدِ الرحمـٰن ، ما رأيناه دَعا علىٰ أحد من المسلمين .

وقد سأل سيدِي الوالد شيخَه الحبيب عبدَ الرحمـٰن بلفقيه ، فقال له : هل يجوز أن تدعو علىٰ أحد من المسلمين ، ممن أدخل عليك الأذىٰ ؟ فقال له : سهام الأدعية كسهام الأرمية ، من جاز لك أن ترميَهُ . جازَ لك أن تدعوَ عليه ، وقد علمت أن حال سيدي حالُ الشيخ عبد الرحمـٰن ، وكان الشيخ عبد الرحمـٰن من أهل الباطن ، ما يظهر من أحواله إلا ما لا بد له من ظهوره لأجل الدعوة إلىٰ الله ، وٱنظر في وصيته لابنه الشيخ عمر المحضار : (عليك بأعمال الباطن ، فإن الأوقية منها خير من بهار[1] من أعمال الظاهر) ، فكان سيدي ـ رضي الله عنه ، ونفعنا به ـ ممن خصه الله بأعمال الباطن ، يحب الستر والإخفاء ، لم تَعلم شمالُه ما تنفق يمينه ، ولو سألتَ مجالسيه ومخالطيه أن يخبروك بشيء من أموره ، وما ٱطلعوا عليه من أحواله . . لم يقدروا علىٰ شيء من ذلك أن يخبروا ، لأنهم ما علموا .

وكان إذا قرأ : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ [الإنسان : ١] ، وهو في الصلاة ، إذا وصل إلىٰ قوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان : ٨ـ٩] . تفيض عيناه بالدموع ، ولا يتحامل من شدة العبرة ، وذلك من كثرة ذوقه ، ولاتصافه بهـٰذه الأوصاف ، لأنه لا يخرج له شيء من أعماله عن

---

(١) البهار يساوي ثلاثمائة رطل .

الباطن ، وكان إذا قرأ القرآن يعتريه الخوف ؛ لأن القرآن كله لمن تأمله وأمعن النظر فيه ، يُرشد إلىٰ أَجَلّ أعمال الباطن ، فانظر إلىٰ قوله : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] ، وإلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود : ٧] ، وإلىٰ قوله : ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد : ٢١] ، وإلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وإلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ [الرعد : ٢٢] ، وإلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧١] ، وهـٰذه الآيات كلها صريحة في أعمال الباطن ، وكيف لا والخشيةُ من الله أصلُ أعمال الباطن ، وهـٰذا كله يرجع إلىٰ الإخلاص ، والإخلاص أصل الشيء وقوامه ، إذ الرياءُ الشرك الخفي ، وهو ضد الإخلاص ، والقلب أصل الأعمال الباطنة ، وباقي الجوارح تابعة له ، وهو كالسلطان مع الرعية ، وقد قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »[1] ، وهـٰذا الإخلاص الذي خص ـ الله تعالىٰ ـ به سيدي . . ما له تعداد ؛ لأنه من الأعمال التي لا يعلمها إلا الله تعالىٰ ، بل كان في جميع أموره وحركاته وسكناته ، بل أحواله كلها لا يخلو عن الإخلاص شيءٌ منها ، وكانت أحواله نياتٍ

---

(١) أخرجه البخاري في (الإيمان) (٥٢) .

سَنِيَّاتٍ وإرشاداً للخلق ، بل كانت نيته تعمل في جميع الخلق أكثرَ من إرشاده ، بل كان يقول : يا أولادي ؛ ما معي لكم إلا النية ، وقد كان يقول لي والدي ولإخواني : ما معي لكم إلا النية ، رحمة من غير كلام ، من بايصلح يصلح ، ولكن سيدي كثيراً ما ينوي شيئاً إلا وصلح ، بل كان نظره رحمانياً ، إذا نظر إلىٰ أحد شملته الرعاية ، ونزلت عليه الهداية ، وكل من أحبه كان من أهل الولاية ، ولا دخل بيتاً من البيوت إلا وحصلت عليهم السكينة ، بل ما رأيت أحداً خالطه أو جالسه أو واكله أو اختلف إليه . . إلا وكان من عباد الله الصالحين ، وذلك لِعُظْمِ نيته ، وقوة شفقته ، وكل من قرأ عليه كان من العلماء العاملين ، شاهدنا ذلك في أشخاص متعددين ، وذلك لما ناله من الإخلاص في أموره ، وحُسْنِ النيات في بطونه وظهوره ، وكان إذا نوىٰ شيئاً من أمور الدنيا والآخرة . . ظهر صلاحه في الحال صلاحاً ظاهراً ، وذلك ببركة خالص نيته ، وسر صالح طويته .

اللهم . . أصلح نياتنا وسرائرنا وأحوالنا ، فأنت المصلح لنا ، ولا نَصْلُحُ إلا إن أصلحتنا ، **اللهم** . . أصلحنا واجعلنا صالحين ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

وقد أخبرني بعض المنورين الموفقين الصالحين : أنَّهُ كان في غمرة الغفلة عن العقبىٰ ، مكبّاً علىٰ اشتغاله بالدنيا ، حتىٰ جاءه سيدي إلىٰ بيته وقرع عليه الباب ، فلما خرج إليه نظر إليه سيدي بعينيه ، وقال له : أفق مما أنت فيه أو نحو ذلك ، فقال له : خاطرك[1] ، فنزلت عليه في تلك الساعة السكينة والوقار ، وأشرق قلبه للتزود لدار القرار ، فسار

---

(١) أي : حقق الله ما خطر ببالك .

من ساعته تلك إلىٰ مسجد الجد طه بن عمر ، وركع في قبلته المشهورة بالنور والظفر ، أخبرني أنه حين ركع في القبلة المذكورة أَحَسَّ صوتاً من صدره ، ومع ذلك الصوت آنفتاح في قلبه وسره ، فمن بعد ذلك أقبل علىٰ الله ، وزهد في الدنيا وأسبابها ، حتى في أهله وأولاده وجعل في عبادة مولاه جُلَّ اجتهاده حتىٰ كان سيدي يراجعه في ذلك أحياناً ، ويقول له : إنك أفرطتَ فيما أنت فيه ، فآرفق بنفسك إحساناً ، فآنظر إلىٰ هـٰذه النظرة الرحمانية ، والجذبة الروحانية ، كيف أثرت في قلبه في الحال ، وكيف بلغ بسببها غاية الآمال ، ولـٰكن ما خرج من القلب صادف القلب ، وما خرج من النفس لم يصادف إلا النفس ، والعمل الخالي عن النية الخالصة لا يُقبَل ، لأن النية الخالصة لا تبطلها الشوائب ، والأعمال قد تلحقها الشوائب وتبطلها .

ومن أخلاقه ـ رضي الله عنه ، ونفعنا به ـ : الزهد في الدنيا وما فيها ، إلا ما كان زاداً للآخرة ونعيمها :

كان ـ رضي الله عنه ـ يكره الدنيا ويستقذرها ، ويذمها ويجتنبها ، كما يجتنب الإنسان أن يصيبه الأذىٰ ، وهي من الداء الدفين الذي ليس له دواء ، وقد أعيىٰ أطباءَ الدينِ علاجُ حبِّ الدنيا ، وقد قال الشيخ الإمام الغزالي : (ولعل أن يُجدي في علاجه آنتظار الموت في كل وقت وحين) ، وكان سيدي يحب الفقر ويكره الغنىٰ ، إذا رآني في شيء من أمور الدنيا . . يقول لي : الحذر تَقْمُرَكَ[1] الدنيا ، وكان كثيراً ما يقول لي ـ وقد يقول لي في بعض مباسطاته ـ تريد الفقر أم الغنىٰ ؟ فأقول له :

---

(١) تقمرك : أي تخدعك .

أريد ما قال النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « اللهم . . اجعل قوت آل محمد كفافاً »[1] ، ويكرر عليّ ذلك ؛ لما يرىٰ من كراهتي للفقر ، لأني ضعيف اليقين ، حتىٰ قال لي يوماً هـٰذا الكلام برأسه ، فقلت له : ما تريده لي أريده ، الحمد لله الذي وفقني لذلك ، وهـٰذا أولىٰ من قولي له ما قاله رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ؛ لأنه أعرف بما يصلحني ، وأرحم بي أن يدعو لي بما يضرني ، وأعلم بحالي ، وذكري لذلك لذمه الدنيا وتحذيره لأولاده ، وناهيك في بغضه للدنيا أن أخدامه وكلَ من تَخَدّم له . . ابتلاه الله بالفقر ، وذلك لمحبته للفقر ، إن من محبته لأخدامه وشفقته بهم أنه خصهم بنيل الآخرة ، إذ الفقر شأن الصالحين وشعارهم ، وقد قال محمد بن عبد الله العيدروس في كتاب « إيضاح أسرار علوم المقربين » : قل أن تجتمعِ الدنيا والآخرة ، إلا لأقوام يقل عددهم جداً ، ولا شك أن الدنيا تُدخل عليك مصائبَ الدين ، من البخل ، وترك الحقوق ، وعدم أداء الزكاة علىٰ قانونها ، وإخراج أوقات الطاعة ، والركون إليها ، وتُلْهِيكَ عن الدار الآخرة ، وعن ما فيها ، مع ما فيها من الآفات والعوائق الصادة عن حُسْن الطريق ، وعن الإقبال علىٰ عبادة الخالق ، وإن رأيت فيها منافع أخرويه ، وفضائلَ عَلِيّه ، فهي بالتقريب إلىٰ الله حريه ، من التردد إلىٰ المساكين ، والتصدق علىٰ المحتاجين ، وأشياء من هـٰذا المنوال ، يطول في تعدادها المجال .

فاعلم أن ذلك أمر حقيق ، وحبل لمن تمسك به وثيق ، ولـٰكنه

---

(١) أخرجه ابن حبان في « صحيحه » (١٤/ ٢٥٤) بلفظ : « رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ » . والكفاف من الرزق : ما كف عن الناس وأغنى . قاموس .

صعب المنال ، عزيز الاتصال ، قل من يوفق للثبات معه إلا المفلحون ، وقليل ما هم ، وإن وفقك الله لذلك فضُرُّ الغنىٰ يكثر علىٰ آفة الفقر ، وتأمل النبيَّ سليمانَ بنَ داودَ ـ عليهما السلام ـ إذ كان آخرَ الأنبياء دخولاً الجنة ، وعبدَ الرحمن بنَ عوف ـ رضي الله عنه ـ إذ قال بالمال هكذا وهكذا وقد دخل الجنة حبواً ، فإذا كان هذان الشخصان العظيمان الكريمان . . فما تكون أنت أيها المسكين ؛ الذي لم يقدر علىٰ خصلة من خصالهم ، وأنت عاكف علىٰ شهواتك ، بل لا تقدر علىٰ هواك الذي هو فيك ، فمن لا يقدر علىٰ إزالة شيء من قبائحه . . فليكن الفقر أحبَّ الأشياءِ إليه ، وناهيك أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم خُيِّرَ في بطحاء مكة ذهباً فأبىٰ من ذلك ، وقال : « أجوع فأحمد ربي وأشبع فأشكر ربي »[1] . فإذا كان رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم آختار الفقر علىٰ الغنىٰ . . فما لنا أن نميل عن آختياره ، وإن ملنا . . فنحن في رِبقة الكفر ، نعوذ بالله من ذلك ، وقد ذكرنا ذلك لتعرف أحوال الصالحين ، وتعرف مقام سيدي ، وعلو شأنه ، ورفعةَ مكانه .

كان ـ رضي الله عنه ـ يحب الفقر ، ويقول لي : إذا جاءني رسول إلىٰ المسجد ، وقال لي : أهل الدار ما لهم عشاء . . أحس في قلبي آنشراحاً ، وأقول : الحمد لله إذ جعلني أهلاً لذلك ، وإذا وقع الزمان[2] والقحط . . كان في ضنك عظيم ، وكل ليلة من الليالي في آمتحان ، ويقول : الحمد لله الذي لم يجعلني معي شيء في يدي ، والناس في

---

(1) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧/ ٣١٠) بلفظ : « لاَ يَا رَبِّ ، وَلَكِنْ أَجُوعُ يَوْماً ، وَأَشْبَعُ يَوْماً ، فَإِذَا شَبِعْتُ . . حَمِدْتُكَ ، وَإِذَا جُعْتُ . . تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ » .

(2) الزمان : المقصود به المجاعة .

الموت والجوع ، فأنظر إلىٰ هـٰذا الرضىٰ ، والفرحُ به ، هو كمالُ الرضىٰ ، وقد حمد اللهَ عليه ؛ لأنه عالم ومتحقق أن ذلك مَنَّ اللهُ ـ سبحانه وتعالىٰ به عليه ، فمن الرعاية والعناية أن لا تقدر[1] ، فإن من ابتلاه الله بشيء من ذلك قل أن يخرج عنه معافىً ، وأن يسلم من الهلاك ، ومع ما منحه الله من العطاء المذكور والرضىٰ ، هو ثابت فيه لم يزلزله شيء من آفاته ، بل كانت القناعة زمامه ، يأكل في الصبح الدخنَ بالروبة ، ولا يأخذ من شهوات الدنيا شيئاً ، بل إن أخذ شيئاً لأولاده ، يقول : لأجلهم آخذ لا لأجل نفسي ، كما قال : دَيني ما أخذت منه شيئاً من شهوات الدنيا ، بل في مَحاب الله ، وكان لا يأخذ ثوباً ولا شيئاً يحبه ويفرح به ، معاملةً مع الله ، والقناعة هي دواء الفقر ، إذ كل علة من العلل المهلكة للدين لها دواء ، فكما أن لعلل الجسم دواء.. فالقناعة المذكورة هي دواء الفقر ، وهـٰذه العلة من العلل المزمنة ، إن لم تعاملها بدوائها.. أخذتك .

وكان ـ رضي الله عنه ـ يقول : ما عاد لي فرح بشيء من أمور الدنيا ، إلا ما كان من أعمال الآخرة ، وكان إذا أُعطي شيئاً من أمور الدنيا.. يضيق منه ويشتغل به ، ولا يسكن حتىٰ ينفقه في محاب الله تعالىٰ ، وقد أرسل إليه شخص بشيء من الدنيا ، فأخذ يوصل به كل ذي حاجة من أقاربه وغيرهم ، ومع ذلك وهو محزون حتىٰ أكمله بالمواصلة ، فرأيته مسروراً ، وقال : الحمد لله تِبَدَّيت[2] منه ، هـٰذا كلامه ، فتأمل الفرق بين من يجمع الدنيا وهو في فرح ، ومع ذلك يُكَثِّرُهُ

---

(١) بسبب حفظ الله لك عن الوقوع في المنهي عنه .

(٢) أي : تخلصت منه .

لأعدائه ، ولم يكن معه منه إلا إثمُهُ ووزرُهُ ، وبين من أُهدي إليه بشيء من الدنيا من غير سبب ولا ٱلتفات قلب ، وصار ينفقه في محاب الله تعالىٰ ، ومع ذلك هو محزون لما ناله من الدنيا ، فلا شك أن هـٰذا بالأرض وهـٰذا بالسماء ، ويُعرِّفُكَ أحوالَ الصالحين ، وتعرفهم بهـٰذا ، لا بما رأيته من التشبه بهم ، والتشدق بالكلام والدعاوي الباطلة .

ومن أخلاقه ـ رضي الله عنه ـ : عدمُ رؤية النفس محواً ، وصدقُ الافتقار إلىٰ الله :

وهـٰذان مقامان شريفان ، عزيزا الوجود يختص بهما أهل الأنس بالله والشهود .

أما عدم رؤية النفس محواً : فهو ثمرة المعرفة بالله وكبريائه ، فإن من عرف عظمته وسطوته وجبروته ، وأنه يفعل ما يشاء ولا يبالي ، ويكره العصيان ويجازي ، ونظر إلىٰ مجاهدات الصالحين ومعاملاتهم وإخلاصِهم في الأعمال ، ورأىٰ أن أول قدم لأهل الله . . التوبة الصادقة ، والزهد في الدنيا ، ونظر إلىٰ التوبة فوجدها لا تأتي لأحد ، إلا من سبقت له من الله العناية العظيمة ، وكذا الزهد في الدنيا عزيز الوجود ، أي : الزهد الحقيقي ، ونَظَرَ إلىٰ الأعمال كلها فوجدها مدخولةً ، وأيقن أنها تُعرض علىٰ رب الأرباب . . أيقن أنه أرذل عباد الله ، وأنه أخزاهم ، وعلم أنه ما أحد وقع مثله ، لأنه فعل ذلك وعنده من العلم ما أعلمه بحاله ، وأنه يتلو كتاب الله وهو غير قائم بحقه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة : ٥] ، فمن هو متصف بالأعمال الصالحة ، فلا بد وأن يتهم نفسه ، ولا بد له من خشية وتحرز من

المعاصي ، ورهبةٍ أن يقع في شيء منها ، مع معرفته بالله تعالىٰ أنه إن عصاه.. أدخله النار بعدله ، ولا يبالي ، فلا شك أن يثمر له ذلك عدمَ رؤيته نفسَه ، وأنه أجهل الخلق ، ولو كلمته الجمادات بلسان فصيح ؛ إنَّكَ من أهل الله.. لم يصدقها ، لأنه عالم بنفسه وبما ٱنطوىٰ عليه قلبه ، وما في القلب يخفىٰ إلا علىٰ الله ، فإن الباطن والظاهر عنده بمنزلة واحدة ، ومن ظن أنه عالم.. فهو جاهل ، ومن ظن أنه من أهل الله.. فهو بعيد عنهم ، ومن تفكر في أحواله كلها وأمعن النظر بعين البصيرة ، وصفاء السريرة.. وجد الأمر عليه ، وتحقق قول رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « رأيت ليلة أسري بي أقواماً تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : من أنتم ، قالوا : كنا نأمر بٱلخير ولا نأتيه ، وننهىٰ عن ٱلشر ونأتيه »[1] .

وكم من هـٰذه الوقائع التي يكثر تعدادها ، فأهل الله علموا ذلك ، وتحققوا به ، فأثمر لهم عدم رؤية الأعمال ، وٱستصغروا نفوسهم ، ونظروا إليها بعين الاستحقار والاستجهال ، وتكلموا بكلام يُخْجِلُ سامعه ، ويحققه أنه لا شيء معه ، فمنهم من قال : (ليت أمي لم تلدني) ، ومنهم من قال : (ليتني كنت حيضةً) ، ومنهم من قال : (إني لأنظر إلىٰ أنفي كذا وكذا مرةً ، خوف أن يكون قد تبدل) ، ومنهم من قال : (لولا أني في الموقف.. لغفر الله لأهل الموقف) ، فببركة العلم الذي عرفهم نفوسهم رجعوا إلىٰ مولاهم بطريق الاضطرار ، وصدق اللَّجا والافتقار ، وصار لهم ذلك حالاً ومقاماً ، وصلاةً وصياماً ، يطلبون ربهم ليلاً ونهاراً ، سرمداً ودوماً ، فأفاض عليهم

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في « مسنده » (٣/ ١٢٠) .

مولاهم من فيض جوده العظيم ، لاضطرارهم إليه ، وآعتمادهم عليه ، فإن المضطر لا تتخطاه الآمال ، ولا تتعداه لوامع الإنزال ، فإنه أهل للرحمة والفضل ، وقد حط بباب الكريم الرحل ، وقد ظفر بمفتاح الإجابة ، إذ علم أنه أفقر عباده ، وقد قال جل وعلا : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل : ٦٢] ، فالإجابة محققة عند صدق الاضطرار ، علىٰ ما فيك من عوج وآزورار ، وقد لجأتَ إلىٰ باب الكريم ، وآعتصمتَ بحبل الله العظيم ، ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١] ، أتُراك إذا وقف سائل تحت بابك راجياً معروفك وثوابك ، وهو رث الهيئة ، وعليه آثار الجوع والفاقة ، أنك لا تعطيه بل تعطيه ولا تسألُ عن حاجته ، وأنت عالم بحالته ، ومتحقق أنه مقصر في حق ربه ، رحمةً لحاله ، وتحقيقاً لرجائه ، فإذا كان هٰذا حالَكَ أيها الضعيف اللئيم . . فما بالُك بمولاك الكريم رب الأرباب ، المعطي بغير حساب ، أفتراه يترك التفضلَ علىٰ من هٰذا حاله ، وهو يحب السخاء وأمر به ، وهو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، وما خلق الخلق إلا لرحمته ، وغذاهم بإفضاله ونعمته ، فحاشاه أن يخيب راجِيَهُ ، ولا يجيب داعِيَهُ ، فإن خزائنه مملوءةٌ من رحمته ، كما قال الشيخ أبو بكر العيدروس في وسيلته :

خَـزائنَـك بَـالْجُـودْ(١) لا تَنتهِـي   لِكَثْـرةْ عطـايـاكْ للـراغبيـنْ

وسيدي الوالد من أهل هٰذين المقامين ، وقد يظهر من أحواله ذلك ، كما قال : إن ذنوبي تملأ البراري والبحار ، ولولا حسن ظني في الله . . لأيقنت أني من أهل النار ، ولعدم رؤية نفسه كان إذا رأىٰ

---

(١) أي : يا ذا الجود .

السُّؤَّالَ[1] المساكين.. يقول: أذكرونا في الجنة، فإن الصولة لكم هناك، ونحن إلا كالعبيد لكم، وكان يقول: إني متعجب ممن يحسن الظن بي، ويقول: ما أحد وقع له ما وقع لي، أنا أرذل الخلق، ويقول: يشق علي تقبيل يدي؛ لأني غير أهل لذلك، وله كلام أعظم من هٰذا ينبئ عن معرفته بنفسه.

وكان يكرر: ما لي غير ظني في الله، ولا تزال هٰذه الكلمة علىٰ لسانه، وكلامه هٰذا يدل علىٰ حاله، وأنه من أهل هٰذين المقامين، وقد تكلم بذلك فيه، وشهد له بذلك الإمام جعفر بن أحمد بن زين الحبشيُّ في ورقة، كتبها جواباً علىٰ الحبيب سقافِ بن محمد الجفري، في رؤيا رآها وكتبها للحبيب جعفرٍ، ومراده يفسرها، وذكر له في جوابه أن هٰذا حال مولانا الحبيب سقَّافِ بن محمد الصافي، أمده الله بالمدد الوافي، وسنكتبها تبركاً به، وليعلم حال سيدي الوالد بشهادة عارف لعارف، وهي:

بسم ٱلله ٱلرحمٰن ٱلرحيم، وبه نستعين: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، الحمد لله رب العالمين، حمداً به تبلغ وتتم المقاصد، ويهدي إلىٰ المراشد، وتَكْمُلُ الفوائدُ، ويُكبت المعاند والحاسد، وتزول العوائق والمراصد، وتُهدَىٰ به تحف سَنِي الموائد، وتعود بحسن العوائد، وتشهد به عوالي المشاهد، في مجالي المشاهد بمرآة المشاهد، بشهادة الشاهد، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد المحمود الحامد، محمدية

---

(١) جمع سائل وهو الذي يطلب الصدقة.

وحامديةَ رسولِ الأحد الواحد ، ومَجْلَىٰ الواحدية المشهود الشاهد ، وعلىٰ بابِ مدينة علمه ، وعلى آله سفنِ النجاة الروائد ، وسيوفِ الجاحد ، وحتوفِ ذي العوائد الجامد ، وعلىٰ الولد الحبيب المسترشد المترشِّفِ المتشوف ، المنيب عبدِ الرحمـٰن السقَّافِ بنِ محمد الجفري ، أكملُ السلام ، ورحمةُ الله وبركاتُه ، نسأل الله أن يبلغه النهاية ، مع اللطف والحماية والوقاية ، ويسعدَه ويُمدَّهُ في سير موائد سرايات مسرىٰ الهداية ، وطيران طير الرعاية للغاية ولا غاية ، وسبحان الله الصمد الواحد الأحد ، الذي لم يَلِدْ ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، الظاهرِ في جميع المظاهر ، الباطن بما به ظهر ، لا يتخيله عقل ولا وهم ولا فهم ولا كيف ولا أين ، ولا تحويه الأماكن ، جل ربنا عن أن يعرفه غيره ذاتاً ، وهو المعروف لعبده بتعرف وتعريفٍ ، وبمضمون المبشرات ، إن شاء الله صار بالبال ، وجامع الجمع علىٰ جامع الجمع في مظاهر الإفراد ، والجمع ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الرعد : ٤] ، والفقير المشار إليه بالإشارة هو حال مولانا الحبيب سقاف بن محمد الصافي ، ذي المدد الوافي ، من ربه الكافي ، لأن حاله ـ إن شاء الله ـ صدق الافتقار ، مع عدم رؤية النفس بالكلية محواً ، وهو حال أهل الولاية العظمىٰ ، بلغه الله وإيانا الجميع سولَنا في خير ولطف وعافية ، والرؤيا الثانية : أَفْهَمَتْكُمُ الإشارة بالبشارة لنا الجميع من فضله بفضله ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ ﴾ [يونس : ٥٨] ، فعسىٰ الله نرجو الله ، لا خيب الله حسن ظني ، وظنُّنا فيه سبحانه ، وأملنا طويل ، وإن الرجاء في الله أسنىٰ ذخائري .

والدعاء وصيتكم لنا ، الله الله وإنا ـ إن شاء الله ـ لكم داعون ، وبكم معتنون ، والأمل في الخير منا الجميع طويل ، والله علىٰ كل شيء

قدير ، وبالإجابة جدير ، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد البشير النذير ، وعلىٰ آله وصحبه ، ما سار سمير ، (يا سميري إن مَلَّ عني سميري . . . إلى آخره) ، والسلام ختام ، وهٰذه أحوالهم مع ربهم ، عرّفناك إياها ، وعرّفنا أنفسنا ، لأنا نحن أولىٰ بالتعريف ، لأنهم ـ رضي الله عنهم ـ ما لهم مراد إلا لقاء الله تعالىٰ ، وإن كانت أعمالهم لا يسعها البر والبحر ، وأما نحن فما لنا إلا الرجاء في الله وحسنُ الظن به ، وقد أوصىٰ به الرب تعالىٰ فقال : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، وقال : « أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء »(١) ، فعلىٰ كل من عرف نفسه أن يُحْسِن الظنَّ بربه ، قال عبد الله بن الحصين : والله ما أحد أحسن ظنه بربه . . إلا أعطاه ، لأن الخير كله بيده ، خصوصاً عند فراق الدنيا ، وعند رجاء الإجابة ، كما قال الشيخ عمر بامخرمه :

وليس معنا وعُدَّتنا لقوة الباس وَاوْزارَهْ
إلا انتظارُ الرجا مِنَّك فلا عُدِمْ مِنَّنَا انْظارَهْ
وحَسْبنا أن صَحَّ ذا مِنَّا هَذا حِمَىٰ بَخْتْ مَنْ زارَهْ

اللهم . . اجعلنا ممن أحسن ظنه بربه ، وأعطاه مقصده ومطلبه ، ومن عليه بالنظر إلىٰ وجهه ، بجاه محمد وحزبه .

ومن أخلاقه : أنه إذا جلس مع أحد من الخلق ، ورأىٰ أنه بايحدث(٢) عندهم شيء مثل ولادة ، أو رأىٰ أحداً به شيء ، يقول لأحد

---

(١) أخرجه ابن حبان في « صحيحه » (٢/ ٤٠١) .
(٢) أي سيحدث .

من الموسرين : شُفْنا لَقّيْتْ عليك[1] أمل قرش[2] أو زائد أو ناقص لفلان من السادة ، لا يزال علىٰ هـٰذا يخرج منهم علىٰ سبيل البَصَر[3] العجيب ، هـٰذا دأبه مع الخلق يرغبهم لفعل الخير أحسن من الدنيا ، وكان يقول : إذا جاء رسول أهل البيت بأن ماشي لهم عشاء . . أحس السرور يدخل في قلبي ، وأقول : الحمد لله الذي لم يجعلني من أهل الدنيا ، ولم أر أحداً أبغض للدنيا منه ، وذلك حال سيدنا علي رضي الله عنه ، كما وصفه ضِرار لسيدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ بعد ما مات ، حيث قال له : صف لي علياً ، فقال : كان إذا جَنّ عليه الليل . . أَراه يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء السقيم ، قابضاً علىٰ لحيته ، يقول : يا دنيا أَلِيَ تعرضتِ ، أم إلي تشوفتِ ، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد ، وبعد الطريق ، ووحشة السفر .

هـٰذا وصف سيدي ، إذا رأىٰ أحداً من أولاده في حوائج الدنيا ، التي لا عذر عنها . . يقول له : أحذر تقمرك[4] الدنيا ، يقولها لي مراراً ، ومن لم يزهد في الدنيا . . فهو بعيد عن مراتب الصالحين .

وكان كثيرَ الخوف من الله كثيرَ البكاء ، قد ينتحب كثيراً ، وقد رأيته مراراً وأنا أقرأ عليه ، لا يتمالك خوفاً من الله ، وهيبةً لجلاله ، وإذا رأىٰ المساكين المستضعفين أهل الثياب الرثة . . يقول : أذكرونا في

---

(١) شفنا : أي ترانا ، ولقيت : أي قررت عليك .
(٢) الأمل : هو شبه النذر يلتزمه الشخص لجهة معينة علىٰ سبيل التبرر ، والقرش : الريال .
(٣) البصر : أي السياسة والحكمة .
(٤) أي : تخدعك .

مجمع القيامة ، فإنا عندكم مثل الخدم ، الصَّولة لكم هناك ، ويبكي ، وكانت محبته للمساكين المستضعفين ما يقدر يصفها واصف ، ورأفته بهم ورحمته عليهم عظيمة ، ما ينظر إلا إليهم ، ولا يتأنس إلا بهم ، وأما بقية الخلق . . فليس معهم إلا علىٰ حسن الظن المأمور به ، وأما محبته وميل قلبه . . فإنما هو إلىٰ هٰؤلاء ، وأي وصف يزيد علىٰ قول الله تعالىٰ في الأعمال : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٢٨] ، فهٰذا خطاب من ـ الله تعالىٰ ـ لنبيه الكريم ، وحبيبه الفخيم ، عليه أفضل الصلاة والتسليم .

وكان ـ رضي الله عنه ـ يدور بالصبيان والمساكين في المقابر ، إذا حصل القحط والجدب في الأرض وهو في وسطهم ، ويقول نتوسل بهٰؤلاء إلىٰ الله ، ويحصل الفرج سريعاً ، هٰذا دأبه .

وكان ـ رضي الله عنه ـ سليم القلب ، طيب البال ، إذا رأىٰ المساكين الرثة هيأتهم . . لم يتمالك حتىٰ يقبلهم ، رحمةً منه وتحنناً علىٰ خلق الله ، ما رأيت رحمته في أحد ممن رأيت من الخلق ، وذلك لطيب ما منحه الله من صفاء السريرة ، وحسن الطوية ؛ لأن هٰذه الرحمة لا تقع في قلب مؤمن إلا لفيضانها من رحمة الله ، ولا شك أن الرحمة إنما تحصل من الرحمة ، كما في الحديث : « **ٱرحم من في ٱلأرض يرحمك من في ٱلسماء** »(١) ، « **ٱلراحمون يرحمهم ٱلرحمٰن** »(٢) ، ومن تأمل حاله رضي الله عنه . . وجده شعراوي زمانه ، والذي ظهر لي من طريق الاختبار والإنصاف أن حاله حال

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٧٧) .

(٢) أخرجه أبو داوود في « سننه » (٤/ ٢٨٥) .

الشيخ الشعراوي[١] ، لأني أراه يتحمل عن الناس ، ويظهر أثر ذلك في بدنه ، ولا تراه ساكن البال إلا إذا كان الناس في عافية من طريق دينهم ودنياهم ، فإن وقع شيء علىٰ الناس.. لم يتمالك ، ويفديهم بروحه وماله ، ولـٰكن مدة وقته والخلق في سرور وحبور ، وإن وقع شيء في الأرض آعتنىٰ به وانجلىٰ لوقته ، فكان ـ رضي الله عنه ـ متحملاً عن جميع أهل بلده بل أهل جهته ما كأنهم في الدنيا[٢] ، كما قال سيدنا الحبيب جعفر بن أحمد بن زين الحبشيُّ :

تلك الأُوَيْقاتُ التي سَلَفَتْ لنا فكـأنَّهـا سُـرِقَـتْ علـى رِضْـوانِ

وكلامه هـٰذا يحققه من حضر ذلك الزمان ، وحضر ما وقع بعده من تغير الزمان ، وآنقلاب أهله ، وغش القلوب ، كما قيل في بعض الصوفية ، والله لئن فقدت هاتان العينان.. ما آتفق منا آثنان ، وسيدي الوالد أعطي من حسن الخلق وراثة جده صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، حصل التآلف بين الخلق كلهم ببركة كمال خلقه ، وقد قال فيه سيدي الإمام جعفرٌ : بعد الحبيب سقاف تظهر في (سيون) أمور مستغربة ، فكان الأمر كما قال ، أخبرني بذلك بعض أولاد الحبيب عليٍّ بن عبد الله ، وقد قال لي الحبيب المذكور : ما عاد[٣] أحد في الوقت ـ أي في ذلك الوقت مع أنه ـ رضي الله عنه ـ في الوجود ، إلا أبوك ، وقد كان سيدي الوالد ـ رضي الله عنه ـ يقول لي : إذا وضعت جنبي للنوم.. نظرت إلىٰ قلبي ، هل فيه شيء علىٰ أحد من خلق الله ، فإن رأيت فيه

---

(١) يعني به الشيخ عبد الوهاب الشعراني من أعيان علماء القرن العاشر الأكابر مؤلف كتاب الميزان .

(٢) أي : أنهم في سعادة .

(٣) لم يبق من الأكابر أحد .

شيئاً. أزلته، وذلك أتهاماً لنفسه وتعليماً لغيره، وأما هو فما في قلبه غير الرحمة لجميع الخلق حتىٰ البهائم، من دعاه أجابه، يقوم من مجلسه مرات عديدةً، حتىٰ يَرْثِيٰ له مُجَالِسُهُ، لما يرىٰ من آمتحان الخلق له، وهو مع ذلك مستبشر بذلك؛ لما يرىٰ من ثواب الله تعالىٰ في الدار الآخرة.

وكان كثير الخوف من الله، ومتحرجاً من مقام القضاء، مع أنه ما تولاه إلا بإشارة شيخه عليِّ بن عبد الله السقاف، ولا تحمله إلا خوفاً من مخالفة شيخه، قال الحبيب علي: ما كلفنا على سقاف الدخول في القضاء إلا خوف الغيار عليه، فإنه تحمل من الأنوار ما يكاد روحه تفارقه، وهـٰذا حقيقة، فمن رآه.. حقق ذلك، لأن أنواره يكاد مجالسه أن لا يقدر علىٰ الجلوس معه، ولما تولىٰ القضاء.. مكث أشهراً يبكي ليلاً ونهاراً، حتىٰ خيف عليه الموت من شدة ما تحمله من خوف الله، وقد قال لي مرتين أو ثلاثاً كالمستشير: ما تقول أَدعو علىٰ نفسي بالموت؟ فأقول له: ما يجوز لك ذلك، بل يحرم عليك، وذلك كما وقع لعمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ مع آبن أبي زكريا، إذ قال له عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ: إن لي إليك حاجةً، فقال: مقضية يا أمير المؤمنين، فقال: أحب أن تحلف لي، فحلف له آبن أبي زكريا، فقال عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ: أدع لي بالموت، فقال: آعذرني يا أمير المؤمنين، إذاً أكون عدواً لأمة محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وبئس الوافد أنا إذاً، فقال: لا عذر، فدعا له بالموت وصبي بين يدي عمر بن عبد العزيز، فقال: وهـٰذا الصبي، فقال: وهـٰذا الصبي، وأنا لا تبقني بعدهما، فمات عمر بن عبد العزيز والصبي وآبن أبي زكريا في ثمانية أيام، وأهل الكمال يرون

ذلك خيراً لهم وأسلمَ لدينهم ، وسيدي الوالد محزون من تقلد تلك العهدة ، مع أنه وصل إلىٰ الرمي بالرصاص بسببها ، ولم تأخذه في الله لومة لائم ، فهل ترىٰ مثل هـٰذا يطلب الموت ، ولـٰكنه لكمال عقله آختار السلامة علىٰ الغنيمة .

ويقول مراراً : أعان الله رقبة القاضي ، لا تزال هـٰذه الكلمة معه ، ويقول : ما أحد وقع له ما وقع لي ، الناس في العافية والسلامة وأنا في الامتحان ، والناس في الجنة ، وأنا في موقف القيامة لحساب الخلق ، وما أحد وقع له ما وقع لي ، ويذكر هـٰذا الكلام وعيونه تفيض بالدموع ، وقد ينتحب آنتحاباً شديداً ، فآنظر أيها الناظر بعين البصيرة ، ذلك أن سيدي متعين عليه في ذلك الوقت ، والخلق معه في رضى ولا أحد من الخلق مختلف فيه وهو معهم علىٰ صورة الإصلاح ، وهو متبرم بما هو فيه ، وخائف من ربه ، وقد قال لي في وصية ـ في آخرها ـ وإن ذنوبي تملأ البراري والبحار ، ولولا حسن ظني في الله. . لأيقنت أني من أهل النار هذا خوف أهل الله فإن لم يكن فيك شيء من هـٰذه الأخلاق التي منحهم الله فجاهد نفسك ، فعسىٰ أن ينالك من فيض إمداده ما يدخلك في غمارهم ، وإلا فآعرف نفسك ، وآبك علىٰ ما فاتك من الدرجات العُلىٰ ، فإن البكاء مع معرفة النفس. . خير من الإفلاس .

وكان ـ رضي الله عنه ـ يزهد الناس في الدنيا دائم وقته ، ويذكر ذلك مع كثرة الخلق في مدرس الخميس ، ونيته سَرَتْ في جميع أهل بلده وكل من جالسه ، لو قال للإنسان أخرج من مالك. . لخرج ، والناس في مواصلة بعضهم بعضاً مواصلة أرحام ومراحمة قلوب ، لأنه ليس يغفل عنهم بل لا يزال يُذَكِّرُهُم ٱلآخرة ، بل لو رأىٰ أحداً من الخلق

يَحْرِمُ نفسه ويجمع الدنيا ، يقول : عندي أن المتنعم في نفسه خير ممن يَحْرِمُ نفسه وهو يقدر ، إذا لم يصرفها في محاب الله ، فلا يَحرِمُ نفسه ، ينام علىٰ شطفة[١] وهو يقدر علىٰ شراء خطة[٢] أو غيرها ، أخسُّ حالةٍ حالةُ من يكنز ويَحرِمُ نفسه ، ما المقصود من الدنيا إلا الانتفاع والشكر ، وكان يذكر في تذميم الدنيا في مدرسه يوم الخميس واقعةً وقعت لاثنين من أهل الضعف والمسكنة ، خرجا من (تريم) ومع أحدهما زِمالة[٣] مملوءة كراثاً ، فلما كانا بـ (الحُسَيِّسَة)[٤] . . ثار عليهم لصوص فطاردوهما مطاردةً شديدةً ، فجعل الخلي يقول لحامل الزمالة : أنذُقْ[٥] بها أنذُقْ بها شفهم لأجلها ، فلما نذق بها . . قال لهم اللصوص : اذلفوا[٦] لكم العذاب ، حين وجدوا ما في الزمالة كراثاً ، فسيدي الوالد لا يزال يذكر هٰذه القضية ويقول : أنذق بها ، وأخذ بها معنىً في الدنيا ، أن من نذق بها . . استراح ديناً ودنيا ، ومن لا نذق بها . . نَذَقَتْ به ، وأكثرهم قتلاها ، كما وقع لسيدنا عيسى عليه السلام ، حيث تصورت له الدنيا بصورة امرأة شوهاء ، فقال لها : هل لك من زوج ؟ فقالت أزواج كثير ، فقال لها : هل طلقوك أم ماتوا عنك ؟ فقالت : بل قتلتهم ، فقال : عجباً لأزواجك الباقين! كيف

---

(١) الشطفة : حصير من الخوص .
(٢) نوع من البسط الجيدة .
(٣) ظرف يتخذ من الخوص أو نحوه .
(٤) هي المعروفة حالياً بـ (شعب أحمد) كانت بلدةً عامرةً فخربت، وفي الجبل المطل عليها قبر الإمام المهاجر وتبعد عن (سيون) بحوالي عشرة كيلو شرقاً .
(٥) أنذق بها : أي أرم بها ، وشفهم : أي فإنهم لأجلها .
(٦) كلمة سب ودعاء عليهم؛ لأن اللصوص أصيبوا بخيبة أمل لما وجدوا الكراث فيها، وهم يؤملون أن يكون فيها شيء مثمن .

لا يعتبرون بالأزواج الماضين ؟ فمن أراد الدنيا للآخرة . . فلا يضره ذلك ، كما قال الشاعر :

أَرَىٰ ٱلدُّنيا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيهِ   هُمُوماً كُلَّما كَثُرَتْ لَدَيهِ
تُهِينُ ٱلمُكْرِمِينَ لها بِصُغْرٍ   وتُكرِمُ كُلَّ مَنْ هَانَتْ عليهِ
إذا ٱستَغْنَيْتَ عن شيءٍ فَدَعْهُ   وخُذْ ما أنتَ مُحتاجٌ إليهِ

فمن كان على هٰذا المعنىٰ وطلب الدنيا . . فلا بأس ، ولٰكن حال سيدي الوالد الزهد الصِرْف .

وقد أخبرني سيدي الحبيب محمد بن عمر بن سميط : أنها وقعت له همة لزيارة سيدي الحبيب عليِّ بن عبد الله السقاف وسيدي الوالد ، فمر علىٰ الحبيب جعفر بن أحمد ، وقال له : رتب لي الزيارة ، فقال له : أقصد بامخرمه ، وأرسل للحبيب علي ، لأنك تصل (سيون) قرب الليل . والحذر تقصد سقاف ، فإنه يمكن أن داره خلي ، ففعل ذلك وتعشىٰ عند الحبيب علي ، والوالد لقيه الصبح ، وأعلمه بكلام الحبيب جعفرٍ ، فقال : صدق ، البارحة لا شيء في البيت ، نفعنا الله بالجميع ، وَوَهَبَنا نصيباً من مواهبهم وأخلاقهم ، يا سعادة من نظروه بعين ودادهم ، ويا فوز من أحبوه .

وكان ـ رضي الله عنه ـ يزور المرضىٰ زيارة إيناس ، حتىٰ إن كان في أحدهم علة يخشىٰ غيره من عدواها ، أراه يمسح أبدانهم ويدنو منهم ، وقد رأيته يقبض أيدي أهل البرص ، ويصلي في مصلاهم ، ويتعجب ناظره من أموره ، لم يترك مريضاً إلا زاره ، ولا صاحب حاجة إليه إلا أجابه ، يدور علىٰ الأرامل والمساكين ، ويكلم الصغير ، يجيب من دعاه ويكرم من أتاه وينقذ المستغيث يفدي بحاله وماله في أمور خلق الله

من دعاه لِيُضَيِّفَهُ ولو علىٰ دجر أجابه ، ويقول : لا أحد يتكلف لي ، إنما الذي يدخل بطني شيء سهل ، من أراد أن يكرم أهل بيته طلب سيدي ، وقد رأيته يعطي سائلاً من الذين يدورون علىٰ الأبواب دخوناً[١] وطِيباً ، لأن معه زوجه ، فأنظر إلىٰ هـٰذا التفقد التام ، فما أحسن أخلاقه وما أكملها ، يحير من تتبع أحواله وأفعاله ، وإذا رأىٰ أحداً مقلاً من الدنيا تكلم مع الخلق لذلك المقل[٢] .

وقد رأيته زار شيخاً من أهل العلم ، فلم يَرَ تحته فرشاً ، فقال : من أراد أن أفعل له سبعين ألفاً من لا إلـٰه إلا الله وأُهديها لوالدَيهِ . . عليه قرش ونصف ، قيمة خطة[٣] لهـٰذا الشيخ ، فكلٌّ من أصحابه أراد ذلك حتىٰ حصل المقصود لذلك الشيخ من الفرش .

وقد كنت معه في (تريم) في بيت آل الهندوان ، ومعهم جابية كبيرة مَلَؤُوها ماءً لأجل الحبيب يغتسل فيها ، فخرج سيدي وٱغتسل ، وقال للحاضرين : من أراد قبول الزيارة . . فليغتسل أُنساً للسادة ، وٱعتناءً لجبر قلوبهم ، حيث جعل قبول الزيارة مترتباً علىٰ الغسل ، وذكرت له ذلك فأعلمني بنيته ، وقد أُعطي من الفهم في هـٰذه الأمور ما لا تراه في أحد ، يُخرج من هـٰذا لهـٰذا علىٰ صور عجيبة .

وكان ـ رضي الله عنه ـ كريم السجايا ، طيب الأخلاق ، أُعطي كمالها ، لا يُرىٰ له طبع[٤] ، ولا يتغير وجهه ، وإذا شغله إنسان وأراد

---

(١) دخوناً : هو عود البخور الذي يبخر به .
(٢) أي : حثهم على مساعدته .
(٣) خطة : من نوع الفراش .
(٤) طبع : أي حدة وغضب .

أن يدعو عليه.. قال: لك الساحق والماحق والفقر المتلاحق، ينوي به مقامات الصوفية، كذا أخبرني بنيته، ولا أراه يتغير إلا لأجل الله، أما لنفسه فلا، بل هو صبور رحيم حليم، وقد ذكرت وصفه في قصيدة امتدحته فيها، وذكرت في آخرها بعض أوصافه، فقلت:

وأوصافُهُ حِلمٌ وعفوٌ ورحمةٌ صبورٌ شكورٌ في الرخاءِ وفي الشِدّ[1]
رحيمٌ رؤوفٌ ذو انبساطٍ ورحمةٍ يُبادي لِمَنْ لاقاهُ مِنْ قبلِ أنْ يُبدِي
يُحب اليتامىٰ والمساكينَ جملةً وكلَّ فقيرٍ خاليَ الجَيبِ واليَدِ
ولا زالَ يَدعو للإلٰه وقُربه ويَمنحُنا طُرُقَ الهدايةِ والرُشدِ
فوالله ما شَاهَدْتَ في القطرِ مِثْلَه ولو طُفتَ في كلِ المغاربِ والهِنْدِ
فيا سيدي جُودوا ومُنّوا بنفحةٍ فإني علىٰ عهد المَحبةِ والوُدِّ
ولا أنثني عن حُبكم ووِدادِكُمْ ولو بَتَروني بالسيوفِ وبالحَدِّ[2]

وأوصافه ومكارم أخلاقه ومعاملاته مع ربه.. لا يصفها واصف، ومع ذلك هو مع ربه وَجِلٌ وخائف، فلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن يتفضل بالخير كله علىٰ عبدٍ من عبيده، فالكريم يعطي من غير حساب: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، والله يؤتي ملكه من يشاء، والله واسع عليم ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، وكان إذا عامل أحداً من أصحابه في أمر الدنيا، إذا أراد أن يوفيه.. يقول: كم لك، فيقول: لي كذا وكذا، فيقول لهم: إن أخفىٰ أحد شيئاً مما هو له.. ما يقع له خير، حتىٰ يحصل له معهم الخوف، يحاسب علىٰ الحبة الواحدة، وإذا أوفاهم.. يعطيهم الزيادة

---

(١) أي الشدّة حذفت التاء لترخيم الضرورة.
(٢) هذا مقطع من مديحة المؤلف لوالده وستأتي كاملة في الملحق.

منه تكرماً ، وقد لا يرضون بذلك ، ولكنه لا يطيعهم إحساناً ؛ لأن شأنه في أحواله كلها . . الإحسان لا تكثير الأعمال ، وهٰذا هو الشأن الذي عليه مدار أهل العرفان ، كما قال ربنا جل وعلا : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك : ١-٢] ، أنظر إلىٰ قوله : ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] ، ولم يقل أيكم أكثر عملاً ، ولهٰذا قال الشيخ عمر المحضار : لو علمت أنها قبلت لي تسبيحة واحدة . . لضيفت أهل (تريم) الجميع حتىٰ كلابَهُم ، وهٰذا لعلمه بأن الإحسان عظيم شديد ، وهو من أهل الإحسان ، ولٰكنه متهم لنفسه ، ومرشد لغيره ، أما ترىٰ من صلىٰ ركعتين ما خطر له فيها غيرُ ربه ، وهو خائف ذام نفسه ، وقلبه متصف بالأخلاق الحسنة ، وقام بمعاني الصلاة وسننها وجميع حقوقها ، وآخَرُ : الليلَ كلَّه يصلي ، وهو غافل غير متصف بهٰذا كله ، فانظر الفرق بين الفريقين ، وقس جميع الأعمال ، فهم ـ رضي الله عنهم ـ يلزمون في أمورهم حسن المعاملة في الأعمال كلها ، ومدارهم إنما هو علىٰ الإحسان ، لأنهم يرون أعمالهم تُعرَض علىٰ الله ، فكيف تعرض علىٰ مولاهم ، أعمالهم قاصرةً عن أعمال أهل الكمال ، لأن أعمال الخلق كلِّهم تعرض علىٰ رب الأرباب ، أيرضىٰ صاحب لب أن يكون عمله قاصراً عن أعمال المؤمنين ، كما قال الشاعر :

أترضَىٰ أن تكونَ رفيقَ قومٍ لهم زادٌ وأنتَ بغيرِ زادِ

قال الله تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] . وكان ـ رضي الله عنه ، ونفعنا بأسراره ـ يُهَوِّنُ نفسه ويلزمها الغض ، أراه في بعض الأيام حاملاً نصف

وَفعةٍ[1] عطب علىٰ ظهره ، وأراه في بعض الأيام حاملاً بيده اللخم ، ويسير به في البلد إلىٰ بيته ، وذلك لِيُقتَدىٰ به في هوان نفسه ، وذلك لنا ، وأما هو ـ رضي الله عنه ـ فلا نفس له ، وهوان النفس هٰكذا من أعظم القرب إلىٰ الله ، لأن النفس ما دام فيها شَوْب[2] من الترفع والاستعلاء . . فهو في نقص .

أما ترىٰ ما نقل عن سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين ولي الخلافة ، قال نساء الحي : إذاً لا يحلب لنا منائحنا ، فقال : بلىٰ أحلب لكم منائحكم ، إني لأرجو أن لا يمنعني ما دخلت فيه خلقاً كنت عليه مع رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، وكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يدور علىٰ نساء الحي ، ويقول : هل منكن من لها حاجة . . فأقضيها ، وكذا سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ حين ولي الخلافة . . حمل قربة ماء فصبها في بيت آمرأة أرملة ، فقيل له : ما يصلح ذلك يا أمير المؤمنين ، فقال : جاءتني وفود العرب سامعين مطيعين ، فدخلت نفسي نخوة ، فأحببت كسرها . هٰذه أخلاق من أراد الجنة ، وهٰذه الأعمال مغفول عنها في زماننا ما عاد تُعرف ، وطلبوا من الأعمال ما يقودهم إلىٰ عز الدنيا ، ولا علموا أن الطاعات كلَّها تدلهم علىٰ الانكسار والتواضع ، آنظر إلىٰ أسرار الصلاة والصوم والحج والزكاة ، إن كنت ذا بصيرة تأمَّلِ آلركوع والسجود ما المراد منه ، وكذا الصومُ من الجوع والظَّمَأِ ، هل يكون معك علو ، وكذا جميع الأعمال كلها ، وكذا الزكاةُ تضعها في أيدي المساكين المنكسرة قلوبهم ، الرثة

---

(١) الرفعة : كمية معينة من القطن .

(٢) أي : شائبة .

هيأتهم ، وتعظيمهم وأنت عالم ومتحقق أنهم أحسن منك حالاً ، وأكمل عاقبةً ، ما ذاك إلا للانكسار والتواضع ، الذي هو شأن العبودية المحضة ، التي هي مطلب القوم ومدار أمرهم ، وما رأيت خير هٰذه الدنيا وصفوة أحوالها الجميع . . إلا في الدون ، وتأمل في أبناء جنسها فمن رأيته أختار الدون في أمور الدنيا . . تجده في راحة ، والناس معه في راحة ، ما له حاسد ولا منازع ، في روح وريحان ، وسرور وأمان ، وبقية الخلق في مقام يتحاشاه أهل الهمم العلية ، كما قال الشيخ بامخرمه :

ومَنْ طَلَبْ جَاهْ وألقىٰ نُومَسِه[1] وأنْتَصَبْ   فَقُل لُه انَّ المَنَاصِبْ ما هِيَ ألاَّ نَصَبْ

هٰذه في الدنيا ، وأما طريق الآخرة فهي ألوف من الأنصاب ، فمن أراد السلامة ونيل الدرجات في الآخرة . . فعليه بالانقباض ، وترك معالي الأمور ، الدنيوية وأخذه الدون فيها ، والتقلل في أحوالها كلها ، مع القناعة التي هي كنز لا يفنىٰ ، فإن ظفر بشيء من ذلك . . فقد ظفر بالإكسير العظيم ، وحاز سلطنة الدنيا ومُلْكَها الهنيَّ ، وأماالآخرة فأنظر إلىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] ، وكل ما ليس بدون في الدنيا . . فهو كسب أهل العلو ، وهٰذا الكلام أطلنا فيه القول ، ليعرف سالك طريق الآخرة مَخادعَ الشيطان في الدنيا ، وقد قل الصالحون ، وقليل من أدركوا الوصول إلىٰ مراتب الصالحين ، إلا لشيء من هٰذه الأحوال ، فكل من ظهرت عليه مخايل الوصول ، وأعطي من الفهم . . جنحت به حاله إلىٰ معالي الدنيا ، فأخذته في حبائلها . أما تراهم

---

(١) نومسة : أي زعامة ورئاسة .

يقاسون الغربة من بر إلىٰ بحر ، وهم من أهل البيت النبوي يطلبون دنيا ، إذا ظفروا بها.. أهانتهم ، وقد كانوا أعزةً ، وضاعت عليهم بسببها الآخرة ، ومراتب الصالحين ، وقد كانت منهم قريبةً ، ونَسُوا سِيَرَ سلفهم الذين لو عرضت عليهم الدنيا عفواً.. لهربوا منها ، وإن وقع عندهم شيء منها ، من غير طلب.. صرفوها في ضرورات الخلق ، وجعلوها للآخرة ، ولم يأخذوا من هـٰذه الدنيا إلا القناعة ، كما ذكروها وأوصوا بها ، فقالوا :

إنَّ ٱلقناعةَ كنزٌ ليسَ بِـٱلفانِي ... فٱغنَمْ هُدِيتَ أُخَيَّ عَيشَها ٱلهاني
وعِشْ قَنوعاً بِلا حرصٍ ولا طمعٍ ... تَعِشْ حَميداً رفيعَ ٱلقدرِ وٱلشانِ

وكما قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ :

أَمَتُّ مَطامِعي فَأَرَحْتُ نفسي ... فإنَّ ٱلنفسَ ما طَمِعَتْ تَهونُ
وأَحْيَيْتُ ٱلقُنوعَ وكان مَيْتاً ... فَفي إحْيائِهِ عِرضي مَصونُ
إذا طَمعٌ أَلَمَّ بقلبِ عبدٍ ... عَلَتْهُ مَذَلَّةٌ وعلاهُ هُونُ

وكما قال القائل يوصي بالقناعة :

أُقسِمُ بِٱللهِ لَرَضْخُ ٱلنَّوىٰ ... وشُربُ ماءِ ٱلقُلُبِ ٱلْمَالِحَهْ
أجملُ للإنسانِ من حرصِهِ ... ومِنْ سُؤال الأوجهِ ٱلكَالِحَهْ
فٱستغنِ بِٱللهِ تَكُنْ ذا غنىً ... مُغتبطاً بِٱلصَفقةِ ٱلرابحَهْ
ٱليَأسُ عِزٌّ وٱلتُقَىٰ سُؤدَدٌ ... وشهوةُ ٱلنفسِ لها فاضِحَهْ
مَنْ كانتِ ٱلدُنيا لهُ بَرةً ... فإنها يوماً له ذابحَهْ

فٱنظر إلىٰ كلام أهل الله ، حيث جعل رضخ النوىٰ خيراً من الحرص علىٰ الدنيا ، وأحمدَ عاقبةً لسالك طريق الآخرة ، وأجملَ من سؤال

الأوجه الكالحة ، وإن كان شاقاً ، وهـٰذا كله حال سيدنا ومولانا سقاف ، فإنه بلغ في القناعة إلىٰ حد أنه دعا عند ضريح سيدنا نبي الله هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن نساءه لا عاد[1] يحملن ، ويقول : شغلونا عن الآخرة ، فأنظر إلىٰ قناعته من الأولاد لأجل الآخرة ، وقد ذكر للأخ محمد ـ حفظه الله آمين ـ حين أراد النفوذ إلىٰ الهند . قال له سيدي الوالد : إن أردت القرص والخرقة . . فلا تنفذ ، وإن أردت خلاف ذلك فلا نردك ، مع أنه شحيح به ، لأنه كافيه في أحواله من طريق التصدي ، ورأيته بعد نفوذه حزن عليه ، ورَأَيتُهُ ينتحب انتحاباً شديداً ، وكنت أنا متعجباً من سيدي الوالد ، حيث أطلق العنان للأخ محمد ، مع اختباري بحاله أنه ما يقدر علىٰ ذلك ، ويقول بعد ما نفذ الأخ محمد : يعلم الله عاد ولدي محمد أراه أم لا ، وأراه يأخذ شهرين هو وأهل بيته علىٰ الدخن ليلاً ونهاراً ، وهو في حيزهم ، مع أنه لو أراد الدنيا . . لتيسرت من غير مشقة ، ولو أراد قُوْتَهُ من أحسن ما كان . . لكان سهلاً عليه ، ولـٰكنه اختار ذلك طلباً للسلامة ، وإيثاراً للآخرة .

فهـٰذه أحواله ، رضي الله عنه ، ونفعنا بأسراره ، مطالعتها أنفع لسالك طريق الآخرة . . من قراءة كتب عديدة ، وكيف لا ونظر الزاهد في الدنيا . . أنفع وأجدىٰ من قراءة الكتب الكثيرة ، مع عدم النظر إلىٰ هـٰذه المواهب والمنح العظيمة ، التي هي عين السلوك وأصله ورأسه ، ومن أهمل ذلك . . فما معه من العلم إلا رسمه وصِيتُهُ ، وقد يظفر بذلك من لا مدخل له في العلوم ، ولـٰكنه ظفر بكل العلوم ، إذْ كان صاحب عقل ، فسبحان الوهاب المعطي بغير حساب ، وذكرت ذلك تذكرةً

(١) أي لا يحملن.

لي ، فأنا أولىٰ بالإيقاظ من غيري ، إذ أموري وأحوالي دخلها التخليط ، فعسىٰ بمنه وكرمه ووجاهة سيدي الوالد عند ربه . . أن يتداركني بعصمته ، فإنه رحيم بعباده .

وكان ـ رضي الله عنه ـ صاحب نية عظيمة ، ما نوىٰ شيئاً من أمور الآخرة . . إلا وجاد له مولاه بما نواه ، كانت نيته عمارةَ مسجد الجد طـه ، فجاد الله له بذلك ، وكانت نيته أن مسجد سيدنا الحبيب عليٍّ بن عبد الله . . يُخرب ويُعمر عمارةً كبيرةً ، ويقول : بخاطري أن أحداً من أهل (جاوة) يخرب مسجد سيدنا علي ويعمره ، حتىٰ وصل الأخ عبدُ الرحمـٰن بن علي وهدم ذلك المسجد ، وبناه وعمره عمارةً أكيدةً ، الذي خرج في إصلاحه ست مئة قرش أو سبعمائة وذلك ثمرة نية سيدنا الوالد ولا شك أن مراده أن يكون علىٰ يد الأخ عبد الرحمـٰن ، فوقع ما نواه ، وكذلك نيته في المسجد الذي تسببنا في عمارته ، أن البقعة التي بني فيها المسجد يكون فيها مسجد ، فوقع ما نواه ، حتىٰ إن البقعة المذكورة أراد أحد من المؤمنين أن يبنيها ، وهي بقرب داره درعاً[1] ، فاستأذن سيدي ، فقال له : مرادنا يكون فيها مسجد ، حتىٰ توفي سيدي ، وبعد مدة ذكر لي بعض المؤمنين أني رأيت مسجداً بني فيها ، وآخر رأىٰ كذلك وهو المعلم عبد الله بن عبد الرحمن بارجاء وكذلك رأى الولد سالم بن عبد الله خيله أنه بُنِيَ لبنةً بيضاءَ ولبنةً خضراءَ ، ومؤمن من الصالحين المنورين رأىٰ عيناً نبعت وفاضت من كل الجوانب في البقعة المذكورة ، فوقع بخاطري أن هـٰذه الرؤيا تدل علىٰ القبول في ذلك المسجد ، فتجدد العزم حتىٰ وقعت مني غفلة ، فرأيت سيدي

(١) كلمة درع : يطلقونها على المطبخ ، وعلىٰ المستودع .

الوالد ـ رضي الله عنه ـ يسير قدامي يدي بيده ، حتىٰ وقف بي في البقعة المذكورة ، يريد الهمة وتجديدها ، وأنا نائم ، فأيقظني من هـٰذه الرؤيا تَطْرُوبٌ[1] ، يقول لي : أعزم أو نحو ذلك ، فوقعت العزمة ، وحصلت الهمة ، فبني ذلك المسجد وحصلت المعونة من الله ، مع خلو اليد ، إذ ذاك من الشيء إلا نحو اثني عشر قرشاً ، فهي موجودة مع أن طينة الضرب والغُرَق[2] من باطبله ، (مكان سيدي الوالد) ، ولا شك أن هـٰذه نيته وكرامته ، وبئر المسجد المذكور كان قد أحدثها سيدي الوالد ، وهي به تعرف ، يقال لها : سقافة ، فهـٰذه نيات الأكابر تجدي حتىٰ بعد وفاتهم وهم في القبور .

وبهـٰذا يظهر لك معنىٰ قوله ﷺ : (نية المؤمن خير من عمله) ؛ لأن العمل لا يقع بعد الموت ، وانظر إلىٰ ما وقع من الإيقاظ فهو من قبل سيدي ، حتىٰ بلغ الرأي إلىٰ الحبيب الحامد ، فأبهم الأمر حتىٰ وقع الاتفاق به ، فذاكرني في ذلك فذكرت له ما ذكرت ، فقال : اعزم علىٰ ما أنت ناويه ، وذكرت للحبيب عمر بن سميط ، فسكت في حال الساعة ، فلما كان اليوم الثاني . . ذكر لي هو من نفسه ، وقال : اعزم ، ولـٰكن بشرط أن تنويه للتعبد ، مثل مسجد الشيخ عبد الرحمـٰن السقاف والشيخ عمر المحضار وبقية السلف ، فإنهم نووا أنه لخلواتهم لا للمخالطة ، وبشرط آخر لا يكون إلا علىٰ ساريتين ، فلما أردنا بناه . . أردنا التوسعة ، وأن يكون علىٰ ثلاث سواري ، فمنع بعض الجيران ، وقال : إن ذلك يضيق عليه وهو من أهل الصدق ، فامتثلت

---

(١) تطروب : أي نداء .

(٢) الضرب : اتخاذ اللَّبِن ، والغُرَق : المِلاط الذي يكون بين اللبنتين في البناء . وباطبلة اليوم : حي من أحياء مدينة (سيون) .

ذلك وأنا غير راض به ، ثم بعد ذلك ذكرت كلام سيدي الحبيب عمر بن سميط ، فعلمت أن ذلك من قبله ، فأنشرح لذلك صدري ، ورجوت ـ إن شاء الله ـ قبول ذلك ، وأنها نية سيدي الوالد رضي الله عنه ، لأن كل عمل يظهر علىٰ أعين الخلق فالأمر فيه علىٰ خطر ، والإخلاص فيه عزيز ، وكل عمل خفي عن أعين الخلق وصغر عندك ، فهو أكمل وأحسن ، وترجو الفوز فيه .

فعلىٰ كل مريد للآخرة أن يأخذ بإخفاء أعماله ، فإن فيه الفوز العظيم ، لأن الإنسان ضعيف تقمره[1] نفسه الخَؤُونُ ، وتطلب الصيت والخبر مع أنها متحققة أن الخلق كلهم لو اجتمعوا أن ينفعوك أو يضروك . . لم يقدروا علىٰ ذلك إلا بما أراده لك مولاك ، وهٰذا الريا ما يدخل إلا علىٰ ضعيف العقل ، الذي لا رؤية له في عواقب الأمور ، وأما أهل الكمال فإنهم يرون الصيت والرفعة مضرةً في أحوالهم ، ومن ذكرهم بمحاسن الأمور . . فقد آذىٰ قلوبهم ومَقَتَهُم ، فما مرادهم إلا الفرار من الدنيا وأهلها ، وأيقنوا أن البعد عن الخلق أحسن عاقبةً ، إلا من باب الإرشاد والتعليم والهداية فلا بأس ، فإن ذلك من أعمال الآخرة ، وهم بحر لا يتكدر ، وأما أمثالنا فلا لنا إلا إخفاء الأعمال حتىٰ يسلم لنا ديننا ، والسلامة عزيزة ، وأما مثل سيدي الوالد ـ رضي الله عنه ـ فهو من أهل الكمال ، الذين لا يرون إلا مولاهم .

فأنظر إلىٰ هٰذه النيات العديدة ، وقد بلغت نيته في أولاده أنهم يكونون من العلماء العاملين ، فحصلت له تلك النية حتىٰ في أولاد أولاده ، بلغوا في العلم إلىٰ سبعة عشر ، من أولاده وأولاد أولاده ،

---

(١) أي : تخدعه .

وكان مغتبطاً بذلك ، ويقول وقع لي ما وقع للفقيه المقدم ، من طريق أنه قرت عينه في حياته ، بما رآه في أولاده من العلم الذي هو بغية مراده ، وقد قال مرةً في بعض حالات البسط ـ وقد يخرج على العارفين كلام من غير اختيار ـ تاني[1] تعرف طرق السماء ، يعلم الله ما مراده هل هي نفسه المطمئنة التي قال فيها الرب سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر : ٢٧ـ٣٠] ، أو غيرها من المعاني التي لا يدركها إلا أهل الفهم ؟ ولا شك أن النفس المطمئنة التي رجعت إلىٰ ربها تعرف طرق السماء ، لأنها حقيقةً هي في السماء وإن كانت في الدنيا فهي في الدنيا مجازٌ وفي السماء حقيقة ، أو المراد تانه الظاهرة المعروفة ، فإن الرب ـ سبحانه وتعالىٰ ـ إذا رضي عن عبد من عباده . . لم يتقدر عطاه بمكيال ولا معيار ، كما قال الشيخ عمر : (خذ عطانا بلا مِنَّهْ فذا طَبعْ مَن حَبْ) .

رجعنا إلىٰ ذكر سيدي : إن نياته أعظم من أعماله ، كما قال سيدي الحبيب علي : إن الصوفية لم يبلغوا المنزلة إلا بنياتهم لا بأعمالهم ، لأن الأعمال حقيرة بالنسبة إلىٰ النية ، لأن النية بحر لا ساحل له وسيدي لا ينطق إلا بالنية ولا يأكل ولا يشرب ولا شيء من أحواله إلا والنية منطوية عليه ، ولأن نيته ـ رضي الله عنه ـ أن لا يدخل النار من أهل زمانه واحد ، ونيته أن روحه الكريمةَ يُفديها[2] لعباد الله ، وكانت دموعه لا تخرج إلا من فيضان رحمة الله ، ولو أن دمعةً من دموعه مسح بها

---

(١) أي : أتاني ، وهي في الأصل أنثى الحمار ، وقد شرح المؤلف المعنى المراد هنا .
(٢) أي : يجعلها فداءً .

إنسان نفسه . . لفاضت عليه تلك الرحمة ، وكيف لا ونظرهم يوصل ، أما ترىٰ إذا أنشد كلامهم بين يدي ٱلخلق . . سالت دموعهم ، مع أنهم في القبور ، ما هـٰذا إلا لأَنَّ الرحمة في كلامهم مثل السهام ، ولكنه إذا أدرك قلوباً لها اشتياق إلىٰ ذلك الجناب العالي ، وصارت منيرةً مبرأةً عن ٱلعوائق مثل الأرض إذا أحكمت . . تأهلت لنبات الزرع ، فكذلك قلوب الخلق المتأهلة للمواهب ، إذا أدركت كلام الصالحين . . خشعت ، وصار كلامهم فُخْطَه[1] يحصل به الإغلاق ، أو ما أروىٰ الأرض المنقاة ، فجدير لمثل هـٰذا أن يقال :

بُـروقَ الحِمىٰ أَبْـرُقِـي يَـا بُـروقْ ... عسى اللهُ يَسقي بِكِ المُجدبين
عَسَى ٱغصانُنا الذاوِيَهْ تَنْتَعِشْ ... وتُثمِـرْ مـعَ جُملـةِ المُثمـريـن

* * *

(١) أي : كالتأبير لطلع النخلة ، والإعلاق : اللقاح وصلاح الثمرة به .

الباب الثالث

في معاملاته

رضي الله عنه

الباب الثالث

في معاملاته رضي الله عنه

وهي من أعظم القرب إلىٰ الله ، وقد خص الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بعض عباده بها ، وهي العروة الوثقىٰ لا انفصام لها ؛ بل هي الصراط المستقيم ، ومن نالها فقد حَظِيَ بالفوز العظيم ، ونال من ربه المقام الكريم ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد : ٢١] ، وكيف لا يفوز من منح حسن المعاملة مع مولاه ، وقد قال في كتابه الكريم : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود : ٧] ، ونحن نشير إلىٰ البعض منها ، لأنا لو تتبعنا جميع معاملته . . لاستغرقنا العمر جميعه ، وإن القليل يعجز عنه الفحول ، ولكن لعل من يريد الوصول ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات : ٦١] .

فمن معاملته مع ربه ـ رضي الله عنه ـ صَدْعُه بالحق ، ولا تأخذه في الله لومةُ لائم ، وإن عَرَّضه ذلك لأذىٰ الخلق ، اعتصاماً بربه وثقةً به ، وتوكلاً عليه ، وإحلالُه من جنىٰ عليه ، وعفوُه عنه ، وإبراءُه مما أساء إليه ، رحمةً بعباد الله ، وشفقةً بخلق الله ، وادّخاراً للفضل عنده ورغبة في المزيد مما لديه .

فمن ذلك أن بعض وُلاة الأمر ـ يقال له : السلطان محسن بن عمر ـ امتحنه في أن يوليه علىٰ بعض اليتامىٰ ، فأبىٰ سيدي الوالد وامتنع من

ذلك ، فتوعد ذلك الشخص سيدي بالقتل ، وأمر عبده أن يضرب سيدي برصاصة ، وقال له : إن لم تقتله قتلتك ، فأخبر سيدي بعضُ أصدقائه بذلك ، فقرأ : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] ، حتىٰ عزم ذلك العبد علىٰ ما أمره به ذلك الشخص ، وبقي يسأل عن سيدي ، فذُكر له أنه خرج إلىٰ الخلاء[1] ، إلىٰ مكان بعض أصدقائه ، هو عمر الصبان ، فلما خرج سيدي من الدار .. ضربه بالبندق ، ولم يكن بينه وبين سيدي إلا نحو عشرة أذرع ، فأصابته تلك الرصاصة في رِقِّه ، ثم نَقَتْ[2] منه وصار أثرها كالمِخجَم في رقه ، وسقط علىٰ الأرض ، وذكر سيدي أنه لم يصل إلىٰ الأرض إلا وقد أحلَّ العبدَ المذكور ، خشية أن يعاجله الموت قبل أن يُحله ، ويعذبَ بسببه في الآخرة ، فأنظر إلىٰ هـٰذا المقام العالي ، هل يقدر أحد علىٰ هـٰذا أو قريب منه ؟ وهـٰذه المعاملة هي عين الفتوَّة ، وأنظر إلىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] ، ثم بيّن المتصف بها فقال : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٥] ، وهـٰذا في عدوك .

وأنظر إلىٰ مقام سيدي في عفوه وحلمه ، في هـٰذا الأمر الشنيع والخطب الفظيع .

ومن معاملته مع ربه : أنه كان له من الأولاد أربعة :

سيدي الأخ عبد الرحمـٰن وسيدي الأخ عمر والأخ محمد والأخ

---

(١) يعني به : الريف والمزارع .
(٢) رِقِّهِ : مَراقّ بطنه ، ونقت : أي نَبَتْ وارتدت .

علوي والفقير خامسهم ، فكان سيدي الأخ عبد الرحمٰن من العلماء العاملين ، بلغ في العلوم إلىٰ أن صار يعز أن يكون له نظير ، حفظ العلوم وهو ٱبن سبعَ عشرةَ سنة ، حتىٰ مرض في تلك السنة ، وٱشتد به المرض ، حتىٰ عاجله الموت ، فحين توفي . . ضجت عليه العباد والبلاد ، وكان سيدي عند ضجيجهم . . يبتسم ، ويقول عند موته : نزل علىٰ قلبي من الفرح أمر عظيم ، ويقول عند ضجيجهم : أنا راضي أنا راضي ، وبعد دفنه مكث وقتاً لا يخرج إلىٰ المقبرة ، ويقول : خفت إن خرجت أن أنادي علىٰ ولدي عبد الرحمٰن ، وأسأله عن حاله فيخبرني ، فأنظر في فرحه وٱستبشاره في هٰذه الداهية الدهياء ، والطامة العظمىٰ ، فهو ممن وصفهم ـ الله تعالىٰ ـ في كتابه العزيز بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦ـ١٥٧] .

ومن معاملته مع مولاه : أن إحدىٰ نسائه ٱمتحنته وقد تزوج علىٰ غيرها ، وشقت عليه مشقةً عظيمةً ، ففي بعض الأيام سُرق جميع ما مع المرأة من الخرش (١) ، فعلم سيدي صبيحة ذلك اليوم بسرقة ذلك ، ففعل لها تِنكاً (٢) وغيرها ، جبراً لقلبها وتسكيناً ، ومعاملةً مع مولاه ، وكان ٱقتداؤه في ذلك بجده محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، حيث خاطبه سبحانه وتعالىٰ في كتابه بقوله : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] ، حتىٰ قال بعد أن أخذ بالرفق : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٧ـ١٢٨] ، فتفكر ـ إن كنت

---

(١) أي : الحلي .
(٢) نوع من أنواع الحلي في ذلك الوقت .

ذا بصيرة وفطنة - في قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] ، تعلمْ أن معاملة سيدي في صبره على الأذىٰ ، ومجازاته بالسيئة الحسنة ، هو عين التقوىٰ وعين الإحسان .

ومن معاملته مع ربه : أني رأيته صائماً أياماً ، فلما كان ذات ليلة عند إفطاره ، وضع له طعام مليح ليأكله ، فقال : ٱحملوه إلىٰ عَبْدون ماشِغ ، رجل صالح ، فآثره به علىٰ نفسه معاملةً مع ربه ، وكان كثيراً ما يفعل ذلك ، فهٰذه صفة عظيمة من صفات الصوفية ، وصفها الله في كتابه إذ قال فيمن وَصْفُهم كذلك : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] ، ومِن حُسن تدبيره في معاملته مع ربه : أنه إذا أعطاه أحد عُطُباً زكاةً . . يضع مع العطب دراهم، ويعطي الحِرَم[١] الفقيرات ، فإذا أعطىٰ أحداً رطلي عطب مثلاً . . أعطاها فوقه أُجرةَ النِّدْفاة[٢] ، وشرط عليها أن تغزله وتبيعه ، ليتوفر لها هٰذا الشيء الحقير ، ويسد فاقة تلك الفقيرة ، وقد جوز إخراج الزكاة بضاعةً بعض العلماء ، فإن الصوفية لم يتجاوزوا حدود الشرع[٣] .

ومن معاملته مع ربه - رضي الله عنه - : أنه إذا أراد أن ينام بالليل

---

(١) الحِرَم : أي النساء .

(٢) الندفاة : معالجة القطن بالمِنْدَف .

(٣) هكذا كان فقهه وعمله رضي الله عنه، ينظر إلى ما هو الأصلح للمستحقين في مسائل الزكاة. فكان يقبل من المزكين في زكاة التجارة إخراج الزكاة بضاعة بدل القيمة، فيقبض منهم القطن ويصرفه للنساء المستحقات، ويدفع لهن أجرة الندف، ويشترط عليهن أن يغزلنه ويبعنه، يرشدهن إلى ذلك ليتجهن إلى العمل فيتوفر لهن بتصنيعه الشيء الكثير . وممن قال بجواز إخراج البضاعة الإمام أبو حنيفة اهـ ونقل في بغية المسترشدين عن صاحب المناقب جواز إخراج الرُّطَب في زكاة الثمار اهـ.

يتفكر في نفسه ، وينظر في قلبه هل فيه علىٰ أحد من الخلق شيء من عدو أو ظالم ، فإن رأىٰ في قلبه شيئاً من ذلك نزهه عنه ، وعامل اللهَ بضده ، ولا ينام إلا وهو علىٰ أحسن الأحوال ، خوفاً أن يعاجله الموت ، وكان هـٰذا دأبَهُ كلَّ ليلة ، وذلك لكثرة آختلاطه بالخلق ، لأنه في مقام لا يثبت فيه إلا الأبطال ، فآنظر في هـٰذه المعاملة إن كنت ذا نظر ثاقب ، وقد أخبرني بذلك رضي الله عنه .

ومن معاملته ـ رضي الله عنه ، ونفعنا به ـ : أنه كانت له كريمتان[1] ، العمة سلامة وهي من الصالحات القانتات ، باعت نفسها لله ، ملبسها قميص ، جالسة في مصلاها ، وخرشها[2] كالصدقة علىٰ كل فقيرة من فقراء السادة في جميع النوائب ، مُطلَّقة للدنيا بقلبها وقالَبها ، لم تكن لها علاقة من الدنيا إلا شيء من الحرث قليل ، قاصدةً به التقرب إلىٰ الله ويحصل عليها بسببه دين فإذا تدينت وكثر عليها الدين . . أغلقت آلباب ، وتظهر عليها شغلة[3] خوفاً من تعلق الذمة ، فإذا علم بذلك سيدي الوالد من غير علمها . . قضىٰ ما عليها من دينها ، وكان ذلك مراراً عديدةً .

وكانت آلعمة أُم هاني من المؤمنات الصالحات ، ولها أولاد ، ولما مرضت مرض الموت . . حملها سيدي الوالد من بيتها إلىٰ بيته ، ومرضها أشهراً ويطببُها كل يوم ، وقام بها المقام العظيم حتىٰ عاجلها الموت ، وقسم خرشها ومالها بين أولادها ، فآنظر ـ أيها السالك ـ

---

(١) أي : أختان ، يطلقون كلمة كريمة علىٰ الأخت ، والمشهور في كتب اللغة أنها البنت .

(٢) الخرش : الحلي .

(٣) أي : انشغال بال .

طريق القوم إلىٰ هٰذه المعاملات الخالصة ، مع أن فعله في ذلك وهو فقير يتدين ويصرفه فيما يرضي مولاه .

ومن معاملاته ـ رضي الله عنه ، ونفعنا ببركاته ـ : أن رجلاً ٱشترىٰ مالاً[1] علىٰ نظر سيدي ، وأطلق الدراهم علىٰ سيدي ، وبقيت عنده من قيمة المال عشرة قروش ، فٱدعىٰ الرجل المذكور أنه خلص العشرة القروش الباقية عنده ، وسيدي لم يقبض ٱلعشرة ، وهو علىٰ يقين ليس عنده تشكك في ذلك ولا توهم ، حتىٰ أكثر البائع علىٰ سيدي الكلام فأطلق عليه العشرة المذكورة ، فقيل لسيدي : ما يكون ذلك وأنت عالم أنك لم تقبض منه شيئاً ، فٱعتذر لأولاده ليسكتوا عن الكلام قائلاً : إن الله عالم بحالي ومطلع عليه . . إن كانت عندي . . فما أحسن من براءة ذمتي ، وإن لم تكن عندي . . فالله معوضي ولا يتركني ، فعن قريب ٱفتقر ذلك الشخص ، وباع المال الذي ٱشتراه الجميعَ ، وحصل لسيدي العوض الكبير ، فٱنظر إلىٰ هٰذه المشقة العظيمة ، والهمة الجسيمة ، وأَنَّهُ لم يُحَلِّفْهُ وأعطى للبائع الدراهم ، وليست موجودةً بل أخذها ديناً وأداها لذلك الرجل .

وكان ـ رضي الله عنه ـ يحاسب المرأة علىٰ مئة قرش تكون عنده ، تأخذ منه الخمسة والعشرة والقرش والقرشين إلىٰ أن تستوفي ما هو لها ، ويقول آخذ علىٰ حسابها[2] ، وذلك في أشخاص متعددة[3] ، وذلك لقلة ٱكترائه بالدنيا .

---

(١) مالاً : يعنون به النخيل ، وأطلق : أي دفع .

(٢) أي : يأخذ بقولها ويصادق على ما تقدمه من الحساب .

(٣) أي : أن ذلك حصل مرات عديدة .

وله في ذلك معاملات خفية لا يطلع عليها أحد :

منها : أنه يأخذ بالأحوط في جميع أموره ، ومن قال له : عندك كذا أعطاه خوفاً من تعلق الذمة ، وثقةً منه بربه ، وما أداه وفيه زيادة ينوي به الصدقة ، وهٰذه من الصدقات الخفية التي لا يطلع عليها إلا الله سبحانه ، ولا يدخلها المن ، كما قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧١] ، وناهيك في إخفائها أنه لم يطلع عليها الآخذ ليسلم المعطي من المنة ، وهٰذه أمور لا يعقلها إلا من بلغ مقامهم ، وأما من لم يبلغ مقامهم فقد يظن أنه قد أدىٰ جميع حقه وهو ظالم له ، ويظن بذلك ظن السوء ، فَمِثْلُنا ومِثْلُ من هٰذا حاله . الواجبُ عليه أن يقرر حسابه ولا يتهاوَنَ في مثل ذلك ، فيصير في الحرج العظيم ، فهٰذه أمور لها رجال نفعنا الله بهم . آمين .

ومن معاملته ـ رضي الله عنه ـ : إذا صافحه شخص مبتلىً بجذام أو برص ، وقد صار الناس يهربون عنه ، إذا صافحه ذلك المجذوم أو الأبرص . . يقبض يده ساعةً ، ليدخل علىٰ ذلك الشخص الفرح والسرور ، ولا يزال علىٰ هٰذا الحال مراراً عديدةً معاملةً مع ربه ، وهٰذا شأن الصالحين ، إذ ما عُبِدَ الله بشيء أفضلَ من جبر القلوب ، فما ظنك بإدخال السرور علىٰ هـؤلاء المنكسرةِ قلوبُهم ، الذين صاروا في عزلة من الناس ، وفي تعب مما هم فيه ، فليس شيء أفضلَ عند الله من تفريحهم والرحمة بهم ، وهٰذا شيء يَصعب علىٰ النفس وتأباه النفس القوية ، فما شق علىٰ النفس فرضىٰ الله فيه ، فعليك بمعالجته وتذكر ثواب الله عليه ، فإنه يهون عليك علاجه .

ومن معاملته ـ رضي الله عنه ـ : وذلك في القيام بحق والديه وأقاربه ، أنه كان يقول : ما أعلم أن والدتي قالت لي شيئاً يشق عليّ مدة حياتها ، لقيامه بحقها ، حتىٰ بلغ في القيام بحقها بعد وفاتها أن له بنتاً تسمىٰ سلمىٰ تشبه والدته في لونها[1] ، فكان يكرمها غاية الإكرام ، ويحترمها نهاية الاحترام ، زيادةً علىٰ أولاده لأجل الشبه المذكور .

ومن معاملته مع خالقه : أنه إذا حصل زمان[2] في الأرض ، وقد اشتد القحط ، ويقع بسببه هلاك ، فإذا وقع الزمان الشديد ـ يمتحن غاية الامتحان[3] ، ويصير كالمتلهف العطشان ، لِتَحَمُّلِه من أجل عباد الله ، فإذا اشتد الأمر . . يتدين ويستقرض من أهل الدنيا ، ويضع في المخازن[4] ، كل ما رأىٰ مُدنفاً . . أرسله إلىٰ ذلك الشخص الذي في المخازن ، وبعض أناس يرتب لهم القوتَ مدة القحط يريد إحياء نفس ، ليدخل في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] ، ويتودد إلىٰ النساء الأرامل والمستضعفين ، الذين اجتاحهم الزمان ، وكان كل من له تعلق به من أقاربه وأرحامه . . يعتني به غاية الاعتناء ، وذلك دأبه حتىٰ في الرخاء ، ولا رأيت مثل رحمته بالضعفاء والمساكين ، ولا مثل شفقته باليتامىٰ والفقراء المحتاجين ، ولا شك أن هـٰذه صفة القطب ، فالله يجعلنا من أهل حزبه وأهل دائرته وقربه ، وكانت رحمته بالخلق لا يصفها الواصفون .

---

(١) أي : في ملامحها وشكلها .
(٢) أي : مجاعة .
(٣) أي : يشتد به الحال ، كالذي تنزل به المحن والشدائد لاهتمامه بشأن الأمة .
(٤) أي : الدكاكين ، يضع تلك المبالغ عند أصحاب تلك الدكاكين ويحول عليهم المحتاجين ليصرفوا لهم منها .

ومن معاملته ـ رضي الله عنه ـ : أنه إذا حصل على الناس أذىً من ظالم ، أو شيءٌ من أمور الدولة ، يَفدي الناس بحاله وماله ومقاله ، وإن بعض الناس ـ بل كلهم ـ لهم به محبة وتعلق ، ولكن سيدي من حزمه وورعه . . لم يأخذ من أحد شيئاً ، ولا يتضيف في بيت أحد . . إلا وقد أكرمه في أموره عند الشدائد والاضطرار ، يبذل ماله في أغراضهم ، كما قال سيدي حسينُ بن علوي : (تودد الخلق ما يصفو إلا لأبيك) ، لعله من ذا القبيل .

وكان في معاملته لمولاه : يشقُّ عليه تقبيل يده ، ومَن قَبَّل رجلَه منعه وزجره ، وقال : تكفي اليد ، يَكْره التقبيل ، وله في ذلك ـ أي تقبيل اليد ـ معاملة ، يُطيّب نفسه ويكثر الطيب في يده اليمنىٰ ، ويقول : لعل أن يكون في ذلك مكافأة من قِبَل التقبيل ، وإذا أدخلتَ السرور على المسكين . . خف عليك حَرَجُ التقبيل ، فأمعن النظر في حقائق هٰذه الأمور ، إن كنت من أهل السر والنور .

ومن معاملته ـ رضي الله عنه ـ : صرف أموره إلى الآخرة ، كان جُل وقته ـ بل كلُه ـ في عمارة المساجد ، عمر مسجد القرن ، بنىٰ قبةً[1] متصلةً بقبة أبيه سيدنا محمد بن عمر بن طٰه ، وقد قال له والده من طريق الكشف ـ حين بنىٰ قبته ـ : أنت توسعها يا سقاف ، فبنىٰ بقربها مع الاتصال ، وصار مسجداً واحداً ، وهو معمور بالطاعات .

وقد عمر مسجد الجد طٰه بن عمر ، الذي لا يكاد يكون له نظير ، مسجد أسس على التقوىٰ ، اجتمعت فيه من الخيرات ما لا يكون لها

---

(١) المراد بالقبة هنا : التي تكون في بناء المسجد . والمسجد المذكور بناه والده وزاد هو في بنائه ، والقرن من ضواحي (سيون) وصار اليوم من أحيائها كما سبق .

منتهىٰ ولا قصوىٰ ، هٰذه خصلة من فضائله ، وهي : أنه لا تنقطع منه القراءة في رمضان ساعةً من الساعات ، لا ليلاً ولا نهاراً ، وكم فيه من الفضائل والمكارم ، ولما عزم علىٰ تجديده . . مكث سنةً يركع الاستخارة كل ليلة آخر الليل في قبلته القديمة ، المعروفة بالقبول والإجابة ، فلما مضت عليه السنة . . آستشار سيدنا الحامد ، فأشار عليه بذلك ومعه بعض خوف ، حتىٰ عزم علىٰ تجديده وهَمَّ فيه ، فأخذ في هدمه وإصلاحه سبعة عشر يوماً ، وما عزم عليه إلا ومعه قطعة[1] رهنها لأجل ذلك في مئة وعشرين قرشاً ، وببركته ما خاب أهل عصره ، كل أدخل يده في ذلك المسجد ، حتىٰ النساء بالليل يحملن المَدَر[2] ، ولا بقي صغير ولا كبير حتىٰ الجند . . إلا وأخذ قسمه وبذل جهده ، ولا شك أن ذلك من سعادة أهل زمانه ، وفضل الله كالغيث الماطر ، وكم ترك الأول للآخر .

وجدد ذلك المسجد الجميع ، ما خلا محراب الجد طٰه الأصلي ، الذي بين الحمام والضاحي[3] ، أمرهم أن يتركوه ، فعزم علىٰ البناء في المسجد المذكور أحمد بانافع من (شبام) ، علىٰ أن يَخْرب ذلك المحراب ، فلما قرب منه . . حصلت عليه نفضة ، وآمتنع من ذلك وعرف أنه من قبل الجد طٰه ، وذلك دليل علىٰ الرضىٰ بعمارة المسجد ، من قبل سيدي حيث أمرهم بإبقاء المحراب ، فعُمِرَ ذلك المسجد وشوهد فيه ناس من أهل البرزخ بالليل يقرؤون فيه ، وذلك

(١) أي : قطعة أرض مغروسة نخلاً ويسمونها حِيلة .
(٢) أي : اللَّبِن الذي يبنى به .
(٣) الحمام : هو الجزء المسقوف من المسجد ، والضاحي : الجزء المكشوف منه وهو الصحن .

لا شك فيه ، فما يمكن صلاحه في ذلك الوقت ، إلا والمعونة حاصلة ، وبعد أن من الله بعمارته . . قال سيدي جعفر بن أحمد وسيدي الحبيب الحامد : أنظروا إلىٰ سقاف وعزمِه ، ولـٰكن ما تُعمَر المساجد إلا بالنيات الصالحة ، وعمر مسجداً بمكانه المعروف بـ (عِبِيدان) ، وقد جعل فيه مدرس الربوع ، وعمر مسجداً خارج البلاد أيضاً ، بمكان يقال له (باخضير) ، لما رأىٰ أناساً من الحَرْثِة[1] عليهم أثر الطاعة . . بناه لأجلهم ، وكلما رأىٰ شيئاً من أعمال الآخرة . . بادر إليه ، واغتنم الفرصة .

وعمر جملة سقايا ، منها السقاية التي في (وادي جَثمة) ، تسمىٰ سقاية بازياد ، وكان إذا علم شيئاً من المساجد والوظائف خارباً . . سارع إليه بالصلاح ، بل رأيته إذا خف الوقود في الشتاء في الجوابي . . يتغير حاله ، ولا يسكن حتىٰ يِحِرّ[2] الماء ، ويقول : كيف يكون حال الضعيف إذا توضأ بالماء البارد .

وكان دأبه الخوفَ من الله ، ويقول : عان الله رقبةَ القاضي ، وكان لا تمر له ساعة من الأوقات . . إلا وهو ساع إلىٰ الله بالأعمال الخالصة الموصلة إلىٰ النعيم المقيم .

وكان ـ رضي الله عنه ـ : بعد أن عمر مسجد الجد طـٰه ، عمر القبة التي بجانبه النجدي القِبليّ[3] ، ومراده تكون للنساء ، وقد كان قليلاً من تصلي منهن قبل زمانه ، فلما حصل الاتصال بسيدي . . أمر أهل كل

---

(١) أي : أصحاب الحرث والزرع .

(٢) أي : يصير حاراً .

(٣) أي : الشمالي الغربي .

بيت بجنبه بالصلاة ، فما بقيت امرأة في وقته إلا وأخذت في الصلاة ، فعمر القبة المذكورة عمارةً أكيدةً ، وكان يحبها ويميل إليها ، وقد جعل القراءة آخر الليل فيها ، وكذلك الجابية التي في الجانب القبلي ، التي تسبب فيها بعض محبيه وهو عبد الله بانجار ببركة سيدي ، فكان في السنة التي توفي فيها اجتهد في الجابية المذكورة حتىٰ صلحت ، وجُعِلَ لها وقف آخر من المحب المذكور ، حتىٰ بلغ صلاحها ، ووقفها نحو مئتين أو ثلاث مئة قرش ، فلما رآه سيدي . . استكثر صلاحها ، قال : لا يستكثرْ ما مَدَّه[1] فيها أنا ضامن ، والجابية تكون في صحائفه إلىٰ يوم القيامة[2] ، فمات بعد تمام صلاحها بشهر أو شهرين ، حتىٰ لما كان قبل موته بيوم أو يومين بعد صلاة الجمعة ، والسادة مجموعون ، قال : شونا معاد لي حول[3] في المسجد ، كأنه يعني أنه ميت ، رضي الله عنه ونفعنا الله بأسراره وأنواره .

ومن معاملاته ـ رضي الله عنه ، ونفعنا به ـ : أنه إذا أبلىٰ شيئاً من ثيابه . . أعطاه أحداً من النساء تصدقاً منه ، ويقول : اجعلوه قميصاً للصلاة ، وقد يفعل ذلك مراراً عديدةً ، وذلك لدقة نظره ، ليبلىٰ ذلك الثوبُ كلُه في ذات الصلاة .

وكان ـ رضي الله عنه ـ له إمامة مسجد الجد طٰه ، ولا يأخذ شيئاً علىٰ الإمامة المذكورة ، بل يأخذ شيئاً من التمر ، ويتصدق به علىٰ فقراء المسجد ، لاسيما من له تعلق بخدمة المسجد ، فانظر إلىٰ دقائق هٰذه

(١) مدَّه : أي بَذَلَه .
(٢) أي : يجد ثوابها يوم القيامة وقوله قبل موته أي الحبيب سقاف .
(٣) أي : أنني لم يبق لي تصرف استشعارا منه بقرب الأجل .

الأمور ، التي لا يدرك خصائصها إلا من كان ذا بصيرة ونور .

وكان ـ رضي الله عنه ـ يعطي من صدقة المسجد[١] كل ذي خدمة في ذات المسجد ، مَن يضع ماءً للوِرد له شيء ، ومَن يعملُ القهوة له شيء علىٰ طبخها ، ومَن يعتني بالقِرْبَةِ بعد المغرب له شيء ، ومن ينظف المسجد يعطيه ، وقد جعل للمسجد ترتيب في قهوته ، قهوة لمدرسه الذي في المسجد يوم الخميس والإثنين ، وقهوة آخر الليل في قراءة الربع ، وكانَ لا يضم شيئاً من وقف المسجد ، بل يجعله كلَه في عمارته ، ويقول : مساجد السلف ما لها رَبَاثْ[٢] وينهىٰ عن ذلك ، وإذا بلغه أن أحداً من السادة يبخل في عمارة مسجد . . ينهاه ، ويقول : إيش[٣] البخل علىٰ مساجد السلف ، آخرها مضرة خصوصاً في هـٰذا الزمان ، إذا ترطبت[٤] مساجد السلف جعلوها مالاً[٥] ، ودخلت عليهم بالمحقة الكبيرة ، ورجعت مصيبةً في الدين ، نعوذ بالله من جهل الجاهلين ، وكان يقول : أنظر إلىٰ كل من يقف علىٰ المساجد ، هل مراده توسعة الوقف وعمارته ، فحاشا وَكلاّ أن يكون مَقصَدُهُ مُشترىٰ نخل ، بل خصلة تُعْمَرُ في ذات المسجد خير من مُشترىٰ نخلة ، وسيدي نائب عن الواقفين علىٰ عمارة المسجد ، فأمعن بعين قلبك إلىٰ ما رأيتَه من نظر سيدي ، إلىٰ ما هو أكثر نفعاً من أمور الآخرة .

ومن معاملاته ـ رضي الله عنه ـ : أنه كان يحب ويعظم ويَوُد من له

---

(١) أي : من غلة أوقافه كالتمور .

(٢) رَبَاث : أي أدخار وتخزين .

(٣) أي : ما هذا .

(٤) أي : كثر أموالها .

(٥) أي : أكلوها كأنها ملك لهم .

محبة في والديه ، ويواصله كثيراً ، وذلك محبةً وإكراماً لوالديه ، بل رأيته في خاله أبي بكر يكثر المواصلة والمحبة له ، ويقول : إن والدتي كانت تحبه ، وهـٰذا مقام الصالحين العارفين ، وٱنظر إلىٰ قول رسول ٱلله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « من أبر ٱلبر أن يصل ٱلرجل أهل ود أبيه » ، وقد كان في مواصلته لأقاربه وأقارب أهله .. لا يغفل عنهم ، وذلك لم يُعلَم به إلا بعد موته ، وذلك لشدة إخفائه لأموره والتسترِ بها ، لتكون خالصةً لله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر : ٣] ، هـٰذا وكم له من هـٰذه القُرَب لله ، بل رأيته في بعض أقاربه من النساء ممن لها أحد غائب ، إذا جاءت ٱلرسائل [1] إلىٰ ناس ولم يجيء لتلك المرأة شيء من غائبها .. يرسل لها شيئاً له قدرٌ على قدر الرسائل ، لئلا تشتغل وتتحسر ، وليكون قلبها راضياً وهـٰذه أعمالٌ القليلُ منها خيرٌ من الكثير من غيرها ، بل هـٰذه أعمال أهل السعادة ممن قد سبقت له من الله السابقة الحسنة ، والرعاية الجميلة ، ٱنظر إلىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥ـ٧] ، والمتصف بهـٰذه الأعمال الخالصة هو الجامع لما في هـٰذه الآية ، فمن كانت له هـٰذه السابقة ، فلا يطرقه خوف ولا ريب ، إنما قطَّعَ قلوب العارفين خوف السابقة ، فمن تأمل القرآن العظيم ، وأمعن النظر فيه .. عرف ما يهلكه وينجيه ، وكان من شدة ٱعتنائه بأهله وأقاربه ومحبيه إذا مات منهم أحد .. يعتني به غاية الاعتناء ، لا يسكن حتىٰ يعلم إما برؤيا أم بشيء آخر أنه من أهل الجنة ، والذي أدراني بذلك أن الأخ حسين بن علوي بعد ما توفي .. بقي سيدنا الوالد مجتهداً في

(١) المراد بها هنا : المرسل من الدراهم والهدايا .

التطلع علىٰ حاله ومقامه ، حتىٰ قال لي يوماً : أنا متعجب مَا بَعَادْ[1] ظهر لي حال حسينِ بن علويٍّ في البرزخ ، مع أنه من العارفين ، فلم يلبث إلا وقتاً قليلاً ، فإذا المحب عبد الله بن أبي بكر باناعمه. . يخبر سيدي أنه زار الأخ حسيناً ، وبقي قائماً عند قبره حتىٰ قبض رجله ، فلما أخبر سيدي. . قال : هـٰذا لي حتىٰ أسكن ، أو كما قال رضي الله عنهما ، فانظر إلىٰ هـٰذه الكرامة لسيدي إذ أعلمه الله بحاله ، وأنه من الذين قال الله تعالىٰ فيهم : ﴿ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] ، وإلىٰ مقام الأخ حسين ، وهـٰذا الاعتناء من سيدي في المحبة والشفقة ، إذ كان يعتني بأقاربه بعد مماتهم ، وهـٰذا أعظم من الاعتناء بهم في حياتهم .

ومن معاملته ـ رضي الله عنه ـ : أنه إذا أساء إليه إنسان أو آمتحنه أو شغله ـ عامله بالإحسان ، وإذا جاء لينطرح[2] عليه. . يأبىٰ ، ويقول : أنا أنطرح ، ويقول : لا أُعوِّد نفسي أن أحداً من خلق الله ينطرح عليّ ، وقد أخبرني أن بعض المتقربين إليه من الناس كان يَنِمُّ عليه عندَ شيخه الحبيب عليِّ بن عبد الله السقاف ، وسيدي عالم بهم وقادر عليهم ، ولا راجع شيخَه فيما يقولون ، وذلك لصلاح سريرته وقوة عقيدته ، ورسوخه وتثبته ، فحصل علىٰ المذكورين عقوبة في دينهم ودنياهم ، أما عقوبة الدنيا آبتلاهم الله بالفقر ، فكان سيدي يحسن إليهم ويواصلهم كثيراً ، وكان خاطره طيباً عليهم ، والحبيب علي عرف أن ذلك منهم من قِبَل الحسد ، فلم يدخل في قلبه شيء ، فانظر إلىٰ هـٰذا الشأن العظيم ،

---

(١) مابعاد : أي لم يحصل ذلك بعدُ .
(٢) أي : ليعتذر له .

وإلا فمن أراد لك السخط عند شيخك. . كيف لا يكون أَعْدَىٰ الأعداء ، وهٰذا الخُلُق قلّ أن يكون عند أحد ، أو يقدر عليه أحد ، إلا من جاء له مولاه بالنصر والتثبيت والمعونة والتأييد .

ومن معاملاته ـ رضي الله عنه ونفعنا به ـ : أنه رهن إلىٰ العم عبدِ اللاه حِيلةَ[1] نخل بستين قرشاً ، حتىٰ غلي ذلك النخل ، وكان يساوي مئةً وعشرين قرشاً ، فذكرنا له في بعض الأيام ، لعلك تفك تلك الحيلة ، فقال : هي نذر لله له[2] ، وذلك لئلا تقع في خاطر العم عبدِ اللاه مشقة منه ، ومراعاةً لحق الأخوة ، وكنت يوماً أسير معه فمر علىٰ نخلتين أو ثلاث ، فقال : هٰذا حقي تركته صيانةً مني ، وهو مع بعض أقاربه ، وقال لي يوماً : هٰذه نخلتي بسط عليها فلان وتركتها صيانةً لمروءتي ، وذلك لأن الدنيا ما لها عنده قدر ولا محل ، وأعماله هٰذه خالصة لوجه الله سبحانه وتعالىٰ ، ولو قصدنا أن نعدد من هٰذه الوقائع. . لطال علينا التعداد ، وإنما أخذنا من كل شيء من هٰذا ما يكفي السالك ، ويسترشد به الطالب الناسك .

ومن معاملاته ـ رضي الله عنه ، ونفعنا به ـ : أني رأيته يَرُوحُ بنفسه ويحمل بيده شيئاً من المعائش ، ويأخذ جفلْ[3] وسكرْ إلىٰ عند بعض السُّؤَّالِ الذين يتكففون الأبواب ، ويجلس عندهم إيناساً لهم ، وجبراً لقلوبهم ، وهم من الذين لا تقدر أن تجلس معهم ساعةً واحدةً ؛ لما ترىٰ عليهم من المستقذرات ، وسيدي يجلس معهم ، ويشرب تلك

---

(١) الحيلة : قطعة أرض تحتوي علىٰ أشجار النخل ، كجزء من الحديقة .

(٢) نذر لله : أي نذر تبرر له ، أي : لأخيه عبد اللاه المرهونة عنده .

(٣) الجفل : هو البُن ما دام في قشره .

القهوة معهم ، مع أن نفسه لا تقدر علىٰ ذلك ، ولـٰكن كان ذلك معاملةً لله ، ليُدخل عليهم ٱلأنس التام ، وليعظمهم كافةُ الخلق ، وهـٰذه منه غاية التكلف للمساكين ، وقد كنت كثيراً ما أجلس معه ، ما رأيته تفل في مجلس هو فيه ، بل يقوم مراراً عديدةً ، ولا يتفل في ذلك المجلس ، مع أنه لو أصاب إنساناً شيء من تفاله . . لفرح ، ولـٰكنه عود نفسه الإحسان في جميع أموره ، إلا أحوال الدنيا فإنه لا يكترث بها .

ومن معاملاته : أنه إذا حصل بين أحد من أقاربه فتنة يشتغل بهم كثيراً وتظهر عليه تلك الشغلة ، ولا يسكن ويطيب قلبه حتىٰ يُصلح شأنَهم ، ويقول : أخسر العشرة والخمسةَ عشر وأتدين ذلك ، ولا أقول لأولادي ، حتىٰ لا أحد يُعَوِّقُ علي ، يفعل ذلك مراراً عديدةً ، وأخبرني ـ رضي الله عنه ـ قال : إذا جلست عند قبر والدتي . . أستغرق ولا أقوم إلا وأنا كاره للقيام ، وذلك دأبه ، ولا شك أن إعلامه ذلك لي لعلي أن أذكر ذلك بعد وفاته ، فأفعل ما كان يفعله في حياته رضي الله عنه ونفعنا به ، وهـٰذا منه من تمام البر بوالديه ، إذ بلغ في برهم مقاماً ما بلغه غيره .

ومن معاملاته ـ رضي الله عنه ، ونفعنا به ـ : تصغيره لنفسه ، وعدم أكترائه بها وبالخلق ، كان في آخر عمره قبل وفاته بثلاث سنين ، رأيته يحمل العطب بيده وعلىٰ ظهره ويأخذ اللَّخَمَ(١) من الدكان ويحمله بيده ، رأيته علىٰ ذلك مراراً عديدةً ، مع أنه في مقام عند كافة الخلق من الإجلال ، والتعظيم ما لا يدخل في حصر .

---

(١) هو سمك القرش المجفف .

وله في ذلك معاملات ، منها كسر نفسه ، كما كان عمر ـ رضي الله عنه ـ حين وُلّيَ الخلافة حمل قربة ماء وصبها في دار أمرأة أرملة ، فقيل له : ما يكون ذلك يا أمير المؤمنين ، فقال : جاءتني وفود العرب سامعين مطيعين ، فدخلت نفسي نخوة فأحببت كسرها ، ومنها أنه يفعل ذلك ليقتدي به كافةُ الخلق ، خصوصاً أولادَه وأقاربَه ، وقد كان سيدنا الفقيه المقدم يحمل اللَّخَمَ من السوق بيده إلىٰ داره رضي الله عنهم .

ومن معاملاته ـ رضي الله عنه ـ : أنه إذا حصل في الأرض جدب يشتغل ويحزن لذلك حزناً عظيماً ، ويجمع أهل العُلْمَة[1] وكل صغير وشائب ، ومن رآه من المساكين والضعفاء ، وأهل الصلاح ، ويسير بهم في المقابر والمساجد والمآثر ، يفعل ذلك على سبيل الاستسقاء ، لأن آخر الزمان أنعدم الاستسقاء الذي ذكره الفقهاء ، لعدم أجتماع شروطه ، فإذا فعل ذلك سيدي . . أكرمه الله في الحال ، وكان كثيراً ما يفعل ذلك إذا حدث في الأرض ذلك .

ومن معاملاته ـ رضي الله عنه ـ : أنه إذا حصل عليه أذىً من ظالم ، أو حصل علىٰ أحد من أولاده أو أقاربه وأهل بيته مرض . . عاملَ اللهَ بالصدقة الجامعةِ شروطَها ، فيأخذ من أحسن مايكون عنده ، ومن حلاله وطيّبه ، ويعطيه الفقراء الكاملين العاملين الصالحين ، ومع ذلك فلا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، فتقضىٰ حاجته في الحال ، وكان يوصي بذلك ، ويقول : من أراد أن تقضىٰ حاجته . . فعليه بذلك ، فإني قد جربت ذلك ورأيته من أحسن ما يكون في معاملة الله ، هـٰذا كلامه ، وهـٰذا لا شك فيه ، وقد ذكر ذلك الشيخ محمد بن عبد الله العيدروس

---

(١) العُلْمَة : اي الكُتّاب .

في كتاب « إيضاح أسرار علوم المقربين » قال فيه : وإن أخطأتَ الغرضَ فذلك لعدم ٱلتزامك شروطَ الصدقة ، كأن تكون من حرام أو شبهة ، أو أعطىٰ الفقير ومَنَّ عليه أو غيرَ ذلك من الشروط ، وأما من قام بشروطها . . فلا يكاد يخطىء الغرض ، فتفطن لذلك ، وٱعمل عليه ، فإنه أنفع لك من الدعاء ، إلا أن ترجع إلىٰ الصالحين والمؤمنين ـ الذين لا ينظر إليهم أهل الدنيا بعد عملك لهٰذه المكرمة ـ وتطلبَ منهم ٱلدعاء ، فهو أولىٰ وأحسن .

وحَسِّنْ نيتك مع مولاك ، فإن الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً . والإحسان جمعك الشروط فيما تريد به التقرب من طاعة وصدقة ، وغير ذلك من الأعمال المقربة إلىٰ الله تعالىٰ ، والأعمالُ كلها لا بد من إكمال شروطها وأركانها ، فلا يصح الصوم أو الصلاة أو الزكاة أو الحج من غير شروط وأركان مع الاستكمال ، وٱنظر إلىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٣٠] ، فٱفهم أن من لم يحسن العمل . . ضاع أجره ، بل لا يبعد أن يثبت وزره ، فإذا أردت أن تفعل أمراً . . فٱجتهد في قواعده ، ولا تفعله إلا بعد نظر وفكر صحيح ، وٱلتزم ذلك في أمورك كلها ، والله المعين ، هٰذا وصفه ـ رضي الله عنه ـ في أعماله ، لأن الأعمال تعرض علىٰ الله تعالىٰ ، فمن وجدت بضاعته كاملةً . . نفقت ، ونفاقها قبولها ، وفاز عاملها ، ومن وجدت بضاعته ناقصةً . . ردت عليه ، وٱفتضح ، وخسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

ومن معاملاته ـ رضي الله عنه ـ : أنه إذا رأىٰ أحداً من بنات السادة لم تتزوج بل بقيت بكراً وتأخرت عن أقرانها . . يعتني بها غاية الاعتناء ، حتىٰ يتسبب في أحد من السادة يتزوجها ، ويعطي مؤونة الزواج منه نحو

خمسة عشر قرشاً ، ويستدين ذلك لله تعالىٰ ، فعل هٰذا مراراً ، وهٰذا من الأعمال الخالصة التي هي أفضل الأعمال ، وأي عمل يزيد علىٰ هٰذا ، بل لو وُزِنَتْ أعمال الإنسان ووزن هٰذا . . لرجح بها .

ومن معاملاته ـ رضي الله عنه ـ : أنه إذا كان أحد من أقاربه ـ أو من يُنسَبُ إليه ـ بينه وبين أحد مشاجرة في شيء من أمور الدنيا . . يأمره بالعفو والمسامحة ، وبردِّ الحق عليه وإن كان له ، وذلك بطريق الرضىٰ ، وهٰذا حاله في نفسه ، ويقول : لو خاصمني أحد في مالي . . أعطيته إياه بلا منازعة .

ومن معاملاته ـ رضي الله عنه ـ : أنه يؤثر بناته علىٰ أولاده الذكور ، بل يؤثر أولاد أولاده علىٰ أولاده ، بل الخلقَ كلَّهم علىٰ أولاده ، وهٰذا كله من اتصافه بالإنصاف الكامل ، كما قال سيدنا عبد الله بن علوي الحداد :

وانصِفْ ولا تَنتَصِفْ منهم وناصِحهم ... وقُـمْ عليهـمْ بحـقِ اللهِ وانتَـدِبِ

وأما في حقه مع الخلق فلا أعلم أنه أرضىٰ نفسه في خصلة واحدة ، إلىٰ أن لحق بربه ، ويقول : قلبي إلىٰ بناتي أكثر من أولادي ، بل يستخف مجالسة الإناث[1] ويستريح بها ، وهٰذا الإنصاف من أعز مقامات الصوفية ، ولا تراه في غالب الخَلْق إلا عزيز الوجود ، إلا من أمده الله بتوفيقه .

ومن معاملاته ـ رضي الله عنه ـ : أخبرني بعض المؤمنين : أنه وقع في بعض السنين زمان ، فكان يأخذ من الناس دراهم كثيرةً ، ويجعل عند كل شخص دراهم معروفةً ، يفرقها كل يوم علىٰ كل شخص

---

(١) أي : من بناته ومحارمه لحاجتهن لمزيد الشفقة والعطف .

ما يكفيه ويسد فاقته ، ولا أحد يعلم بذلك ، وإذا قيل له الدين الذي وقع عليك ما هو في نفسك ولا علىٰ عيالك . فيقول : عليكم بكتم حالي علىٰ أولادي ، حتىٰ بلغ من كرمه ورحمته أن فعل للكلاب قوت مُسْتَبَرٍ[1] مدة الزمان ، عند شخص كل يوم ، فإذا كان كرمه ورحمته بلغت إلىٰ الكلاب . . فكيف يكون كرمه علىٰ المساكين المحرومين كما ذكرناه لك ؟ مع أنه يتدين ذلك كله بل قوْتَهُ وقوت أولاده يتدينه .

فأنظر إلىٰ هٰذه المعاملات العظيمة ، وإلىٰ هٰذا التفقد التام ، الذي لا يقع لغيره ، فهٰذه المعاملات تثمر للعبد القربَ إلىٰ الله ، وهٰذا الذي دعاه لا يُرَدّ ، وهٰذا هو الذي سقاه مولاه من عين الرحمة ، وهو الذي يكون خليفةً في هٰذه الأمة ، وأما من أهمل هٰذه المعاملات ، وأكثر من الطاعات . . فإن بناءه علىٰ غير ثبات ، وهٰذا إلىٰ الانحطاط أقرب ، فإن لكل وقت عمل ، فالفقير عمله الصلاة والقيام ، والغني عمله التفقد للمساكين والبذل ، وصاحب الجاه فك المأسورين ، ونُصرَة المظلومينَ . كما أن طاعة البخيل البذل ، حتىٰ يزول عنه البخل ، وصاحب الرياء إخفاء الأعمال وإخراج الخلق من قلبه ، وتشنيم[2] حاله ليزهد الخلقُ فيه ، وكذا صاحب الجاه يداوي نفسه بما ينفر الناس عنه بأي ممكن ، وكذا صاحب الكذب ، يتعود صدق اللسان ليُرزَقَ صدقَ القلب ويزولَ عنه الكذب وصاحبُ النفاق إظهار ما في قلبه حتىٰ تكون سريرته مثل علانيته ، وصاحب قل الورع عدم التساهل ، والاحتياط في معاملته ، حتىٰ يأخذ بالأحوط في حق غيره ، وفي نفسه

---

(١) مسبر : أي مرتب ما ينقطع والزمان المجاعة .

(٢) تشنيم : أي تشويه .

يحاسبها حساباً شديداً ، ويخاف أن الخُمْسِيَّةَ[1] إن وقعت في ماله وليست له.. تمحق حلالَه ، وهٰذا شيء مجرب ، ولقلة الورع في غالب الناس.. قلت البركات ، وكثرت المصائب والآفات في الأموال ، وإذا أطلقت التقوىٰ.. فهي الورع ، وكيف والعلماء أجمعوا علىٰ أن من صَرَطَ[2] خُمْسِيَّةً في بطنه حقَّ غيره ومات ودفن وطلب صاحب الخمسية حقه.. نبش وأخرجت من بطنه ، وقد مات رجل وعليه درهمان ، فأبىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم أن يصلي عليه ، وقال : « صلوا علىٰ صاحبكم » ، حتىٰ أداها عنه رجل من الصحابة ، فصلىٰ عليه رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم[3] .

وهٰذا يعلمك الورع إن لم تكن من أهله ، وأما الآخرة فلا يخفىٰ حال من لم يكن له من الورع نصيب ، وكما قال صاحب الزبد :

وطاعةٌ مِمَّنْ حَراماً يأكلُ ... مثلُ ٱلبناءِ فوقَ مَوجٍ يُجعَلُ

وكذا صاحب الهوىٰ ، دواه أن يتكلف تعود كظم الغيظ ، وعدم الانتقام من أعدائه ، والرحمة والحلم والصفح والعفو عن ظالمه ، وأن يتفكر في خصائصه ويتغافل عن مساويه التي فعلها فيه عدوه ويذكر أن نُصرة الله له خير من انتصاره لنفسه فبذلك يزول عنه الهوىٰ ، وصاحب الحسد[4] ينبغي له التودد إلىٰ من أضمر في قلبه الحسدَ عليه ، ويذكرُ نعمَ الله علىٰ عبده ، وكيف حسده علىٰ عطاء الله ، ويعلم أنه ينازع ربه

---

(١) هي الفلس كما سبق .
(٢) أي : بلع فلساً .
(٣) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٤/ ٧) بلفظ : « ديناران » بدل : درهمان .
(٤) أي : الحاسد .

في ملكه ، ولا يقدر علىٰ منازعة رب الأرباب ، ومن نازع الله في ملكه.. مقته ، ومع ذلك هو ممقوت دائماً ، والمحسود في راحة عن ذلك ، ونعم الله دائمة علىٰ عبيده ، فالناس في راحة وهو في الهم والغم والمقت والبعد ، ولو زالت نعمة محسوده.. ماذا يصل إليه من تلك النعمة ؟ وبعيد أن تزول نعمة الله علىٰ عبد من عبيده ، بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء أن يزيلوا نعمةً واحدةً ما قَدَروا ، ومع ذلك كله اذكر قول رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « **ٱلحسد يأكل ٱلحسنات كما تأكل ٱلنار ٱلحطب** »[1] . هـٰذا يخرج منك نار الحسد ويطفيها .

وكذا الكبر اذكر أنك عبد ضعيف ، المصائب تزورك والأوجاع ، وأنت حامل عَذِرةً ، وفيك من المستقذرات ما شاء الله ، وأنت من طين ، وآخِرُ أمرك إلىٰ الطين ، ومع ذلك أنت ملابس للمعاصي ، وأمرك علىٰ خطر ، إما الجنة أو النار ، ولا تقدِرُ علىٰ نفع نفسك من ألم واحد ، والعبودية التي هي الأصل لربك ، التواضع والذل والانكسار ، وفوق ذلك أن الرب ـ تعالىٰ ـ يقول : « **ٱلكبر ردائي فمن نازعني فيه.. قصمته** »[2] .

فهـٰذه بعض الأخلاق تقاس علىٰ هـٰذا المنوال لكل خلق غير صالح فيك ، فإن ألهمك الله لذلك.. فقد وفقت لسعادة الأبد وصدق فيك قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

---

(١) أخرجه أبو داوود في « سننه » (٤/٢٧٦) .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (١/١٢٩) بلفظ : « ٱلْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي فَمَنْ نَازَعَنِي رِدَائِي.. قَصَمْتُهُ » .

وهٰذا حال سيدي الوالد ، ألهمه الله أموراً عجيبةً في مجاهدة نفسه وتزكيتها ، وتعديل الأخلاق ، حتىٰ بلغ ما بلغ ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨] ، وذكرنا ذلك ؛ لتعرف أحوال الصالحين ، وجهادهم لأنفسهم ، هٰذا كلامهم للخلق ، وهٰذا حال سيدي الوالد مع الخلق ، إلا أنه لا يتكلم إلا بإشارات فهمتها منه علىٰ هٰذا المنوال ، لا يزال يذاكِرُ بالمداراة رضي الله عنه .

ومن معاملاته ـ رضي الله عنه ـ : أنه إذا جلس مع أحد من الخلق ورأىٰ أنه بايحدث[١] عندهم شيء مثل ولادة وغيرها من المفرحات ، أو رأىٰ أحداً به شيء من أذىٰ . . يقول لمن رآه : لَقَّيْتُ[٢] عليك أملاً لفلان من السادة أهل الحاجة ، قرش أو زائد علىٰ حسب نظره ، والخلق يفرحون بما فعله من أجلهم ، ولا يزال علىٰ هٰذا الحال علىٰ سبيل البَصَرِ[٣] التام ، هٰذه معاملته علىٰ الدوام .

ومن معاملاته ـ رضي الله عنه ـ : إذا طُلب في ضيافة أو وليمة عرس . . لم يحضر إلا إن رأىٰ فيها من المساكين المستضعفين المؤمنين المبخوصين[٤] ، وقد يشترط عليهم ذلك لحضوره ، وقد خرج مراراً عديدةً في ضيافات من البيت الذي فيه الضيافة كالنافر عليهم ، حتىٰ يراجعونه في ذلك ، ويقولون له هات من أردت ، وآرجع ولا تكسر همتنا ، فيرجع ويطلب من أراده ، فإذا آنقضت الضيافة . . قال لهم :

---

(١) أي سيحدث .
(٢) لقيت : جعلت ، والأمل : التزام كالنذر والقرش هو الريال كما سبق وقوله لمن رآه أي من الموسرين .
(٣) أي : السياسة والحكمة .
(٤) أي : المُعْدَمين والمحرومين .

أعطوا السُّوَّالَ ، ولا يخرج من البيت إلا وقد أخرجوا للسُّوَّالِ ما هو لهم ، هٰذه أحواله ، لا يزال مع الخلق علىٰ هٰذا المنوال حتىٰ فارق الدنيا وأهلها ، ووصل إلىٰ مولاه ، ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٥] ، فهنيئاً لمن عامل مولاه أن يكون له ذلك ، وقد عمت الغفلة في هٰذا الزمان ، ولم يعلموا بالمساكين وما هم فيه من البخص والجوع الذي عم في (حضرموت) ، فيمر الإنسان علىٰ أخيه وهو في النزع ، ويموت وهو ينظر إليه ، وقد ماتوا جملةٌ من الجوع ، وهم بين أظهر الخلق الذين وسع الله عليهم ، هٰذه الدنيا ، ولا رَقَّت قلوبهم علىٰ هٰؤلاء المساكين المحرومين ، الذين هم أحباء الله في أرضه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون من هٰذه القلوب القاسية ، التي رماها مولاها بمنجنيق الغفلة ، وحجبها بحجاب التيه والشهوة ، فلو علم المسكين ما يؤول إليه حاله . . لَبَكَىٰ علىٰ نفسه ، ولٰكن السبب في ذلك فقد الصوفية الذين ذكرناهم ، فما لهم عمل إلا في إرشادهم ٱلخلقَ إلىٰ سبيل النجاة والفوز بنعيم الأبد ، ونيتهم ذلك ، ولو وقعوا في النار . لِمَا منحهم الله من الأخلاق السنية ، والرحمة الربانية ، فبذلك صرنا حيارىٰ لا نعرف أين نهتدي ، وصار المساكين كما قال سيدنا عبد الله الحداد :

فَبَقِيْ أهلُ الضروراتِ بها ... مِثْلَ حوتٍ بَحرُه قد نَشِفا

وهٰذا لا شك أنه من قلة نصيب من وقع في هٰذا الزمان ، الذي قل الصالحون فيه ، وسُتروا عن أعين الخلق ، فالله المستعان ، ونرجو من كرم جوده أن لا يجعلنا من أهل البعد والحرمان ، وأن يقابلنا بعفوه فإنه الرحيم المنان ، العظيم الإحسان .

ومن معاملاته نيته العظيمة : التي هي غير المعاملات الباطنة في كثرة تزوجه والأكثر بالعقد فقط من غير دخول ، وذلك لأجل ٱتصال الخلق

به ليقربهم إلىٰ الله ، ويدعوَهم إلىٰ المواصلة للأرحام والجيران ، والإحسان إلىٰ المساكين ، ويُرشِدَهُم إلىٰ السخاء ، وينهاهم عن البخل ، ويدعوَهم إلىٰ كل ما يقرب إلىٰ الله من الصلاة وغير ذلك من الأعمال المرضية عند الله ، هـٰذا مقصده في ذلك ، والدليل علىٰ ذلك أن أكثر نسائه لا يدخل عليهن ، ومع ذلك ينهىٰ عن ٱلاقتداء به ، ولا يرضىٰ بفعل ذلك من غيره أصلاً ، ورأيته يتغير حاله إذا علم بمن فعل ذلك ، ويقول : ٱقتدوا بي في أحوالي كلها دون ولاية القضاء والزواج ، وكثرةُ التزوج في هـٰذا الزمان ـ خصوصاً (حضرموت) ـ من المصائب العظيمة ، التي لا يكاد المكثر يسلم له دينه ولا دنياه ، أما دينه فيضيع وقته الذي هو عين سعادته في أمر معاشه ، وإذا ٱتسعت عليه الدائرة . وقع في الشبهات وفي الالتفات إلىٰ المخلوقين ، وصار قلبه وبدنه في عناءٍ وتعبٍ ، لا يكاد يصفو له وقت من أوقاته ، إذا رضي هـٰذا . سخط الآخر ، وٱتصف بعدم الإنصاف بينهم ، وهم غير راضين عنه ، وزرع شجرة الحسد في أولاده ، وصار هو كالحيران لا يدري كيف يفعل ، ولا يفرج عليه مما هو فيه إلا كثرة التناهيس[1] ، فأين من هـٰذا حاله من الدين والدنيا ، والناس في راحة هم وأولادهم إذا اجتمعوا ، وهو في بلاء عظيم عند ٱجتماعهم ، وقد أنشد بعض الشعراء أبياتاً في ذلك ، فقال :

تَـزَوَّجْـتُ ٱثنتيـنِ لِحـظِّ نفسـي ... وقـد حـازَ ٱلْبَـلاَ زوجُ ٱثنتيـنِ
رِضَىٰ هَـٰذِي يَجُرُّ لسُخطِ هـٰذي ... وضـاعَ ٱلعمـرُ بيـنَ ٱلسَخْطتيـنِ

ولقد أجاد هـٰذا الشاعر ، وقد وقعت لي هـٰذه الوقائع وذقت

---

(١) هي الآهات والتنهدات .

مرارتها ، حتىٰ أني تزوجت في بعض السنين ، وحصل معي تشويش عظيم ، ولي في زواجي نية من طريق الأولاد وإشارة من بعض الصوفية لأجل ذلك ، فعزمت علىٰ زيارة الشيخ سعيد بن عيسىٰ مستغيثاً به مما حصل معي ، فتعديت[1] إلىٰ مكان[2] الحبيب علي بن حسن العطاس ، واتفقت بأحد أولاده في البيت ، وذكرت له المبادرة بالقهوة ، ورأىٰ عَلَيَّ الضجر ، وظن أنه من الجلوس في مكانهم ، فقال لي : إن والدي يقول ما تقولون : لو أني وقعت سلطاناً وأردت أن أعذب من فعل فعلاً يوجب الأدب والمقت ، ماذا أفعل به ؟ فقلنا : الله أعلم ، فقال : آمره أن يتزوج زوجتين يمر عمره وهو في عناء ، وإذا فعل مثل ذلك . . آمره بأخذ فرس ، الناس يسعون علىٰ أولادهم وهو في محال ، وإذا فعل فعلاً ثالثاً مثل هـٰذين . . آمره أن يستوطن في هـٰذا المكان يشير إلىٰ مكانه ، المشهد حتىٰ قال : (يصف قول أَبيهِ) القوت الدِّجْر والخمير ، ولا يدرك من يصلي معه لا دِيناً ولا دنيا ، فوقع في قلبي أن هـٰذا حالي في زواجي ، وكان سيدي الوالد لا يزال يكرر لبعض الخلق قول القائل :

قَـالَ الشُّـوَيْعِـرْ سِعيـدَ احْمَـدْ مـا لـيْ سَبَبْ غيـرْ مَعْقـولـي[3]
كَمْ لِي مِنِ النَّوْفْ[4] وَنَا اتْبَعَّدْ حَتَّـى وَقَعْتِـهْ عَلَـى طُـولـي

ويكرر هـٰذا البيت كثيراً لما وقع فيه من التشويش من هـٰذا القبيل ،

---

(1) أي : مررت .
(2) المسمىٰ بالمشهد وكان يسمى الغيوار .
(3) فسر المؤلف المعقول بما كان من قبيل حظ النفس الأمارة بالسوء والعقل بخلافه .
(4) النوف : موضع الخطر مثل شفا جرف .

حتىٰ أنه دعا عند نبي الله هود أن نساءه لا يحملن ، فقبل الله دعاه ، مع ما وصفناه من نيته الكبيرة ، وهـٰذا البيت له وقع في القلب إذا تأملت بعين البصيرة ، فما بالناس إلا معقولهم ، وٱنظر إلىٰ إلهام هـٰذا الشاعر التعبيرَ بالمعقول لا بالعقل ، الذي هو من قبيل النفس الأمارة بالسوء ، وهل كثرة النساء إلا من حظها .

وقد كتب سيدنا الإمام عبد الله الحداد ورقةً إلىٰ سيدنا علي بن عبد الله السقاف في كثرة تزوجه ، وعاتبه عتاباً عنيفاً لا يكاد يقع منه ، حتىٰ قال له : إن هـٰذا من حظ نفسك ، وتب إلىٰ الله من فعلك ، وغير ذلك من عتاب محب مشفق علىٰ محبوبه ، مع أن سيدنا عليًا من العارفين بالله ، الواثقين بحبله المتين ، حتىٰ أنه في آخر عمره ـ أو وسطه ـ هَدَفَتْ[1] له ثلاث بنات من نسائه ، فقال له بعض الناس : ثلاث في يوم واحد! فقال له : يا ضعيف اليقين ما تكدر قلبي ، وأنا أبيت بلا عشاء ، فكيف اليوم ومَخشي[2] ـ يعني الطِّيْبَ ـ بربع قرش كل يوم ، وقد رأيت كلاً من سيدنا الإمام الحامد بن عمر والحبيب عمر بن سميط يتغير حاله عند الخوض في مثل ذلك ، حتىٰ أنه ٱتفق في بعض الأيام أن أحداً من السادة آل العطاس جلس مع سيدنا الحبيب عمر بن سميط ، فسأله الحبيب عمر قد تزوجتم ؟ فقال : زوجتين ٱقتداءً بسيدنا عمر العطاس ، فغضب سيدنا الحبيب عمر ، وتغير حاله وخرج منه كلام يفجع ، حتىٰ قال : من هو أرذل الناس بغا نفسه مثل أحسن الناس ؟ وينهىٰ عن ذلك كل من رآه لا يليق بحاله ، ومن تأمل كلام

---

(١) أي : وُلِدت له .

(٢) أي : طيبي الذي أستعمله في كل يوم بربع قرش ، أي تساوي قيمته ربع ريال ويعتبر في ذلك الوقت شيئاً كثيراً .

الرب ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في سورة النساء في قوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ [النساء : ٣] . . كفاه ، فأنظر إلىٰ عدوله إلىٰ الخوف في قوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ [النساء : ٣] ، شفقةً منه سبحانه وتعالىٰ ، ورأفةً ورحمةً ، وهـٰذا الإرشاد العظيم الذي يغفل عنه الآباء وأولادهم ، فمن تأمل ما في هـٰذه الآية . . كفاه ، ولـٰكن لأهله ، ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

وذكرنا ذلك لتعلم أحوال الصالحين ونيَّتَهُم ومقاصدهم ، لتكون علىٰ حذر من ذلك ، ولا تقتديَ بهم إلا في معاملاتهم مع ربهم ، فإنها العمدة في طريق القوم ، وعليها مدار الأمر كله .

وأحذر النفس إنها قمارة[1] غدارة ، وهي أعظم من الشيطان في غدرها ، فإن الشيطان لا يخدعك إلا من قبيلها ، فكن علىٰ حذر منها ، وهـٰذه أمور قد وقعنا فيها ، ولا نرضىٰ لكل سالك إلىٰ الله أن يقع فيها ، ومع وقوعي في ذلك ما فعلت إلا بعد سنة ، وأنا أستخير الله كل يوم خوفاً من الدين أن يفوت ويضيعَ ، وتفوتَني الآخرةُ ، والعياذ بالله ، فالحذر الحذر والسلامة السلامة .

وَمَنْ رَعَتْهُ العناية في المَجِيْ والذَّهابْ فلا يُبالي وَمَنْ خانَتْه[2] لَقْدار خَابْ

وهـٰذا لأهل الله :

وسَلِّمْ لأَهلِ اللهِ في كُلِّ مُشكلٍ لَدَيكَ . . . لَدَيهِمْ وَاضِحٌ بِالأدِلَّةِ

---

(١) قمارة : أي خداعة .

(٢) أي : لم يقدر الله له التوفيق .

فالله يسلمنا من آفات هٰذه الدنيا وأولادنا ، برعايته وعنايته وتوفيقه ، فإنه ولي التوفيق .

كما قال سلطان الأولياء عُمَرُ بامخرمة :

وسَلِّمْنا مِن آفاتْ ذي الدنيا وَلَوْهاقْ وجَنِّبْنا الرَّدَىٰ واْحتَمِلْ عَنَّا العَنَا اَلشَّاقْ
بلى مَن كُنتْ لَهْ عَوْنْ يا ربَ السَّمَا طاقْ[1] ولا يُبالي بِشَيْ لو طُرِحْ ما بينْ لَذْلاقْ

* * *

(١) أي : أطاق الشدائد والمحن ، ولوهاق جمع وهقة وهي الورطة ، ولذلاق جمع ذُلُق وهو المحدد كالرماح والسهام .

الباب الرابع

في نقل شيء من كراماته

رضي الله عنه

الباب الرابع

في نقل شيء من كراماته رضي الله عنه

وهي تشبه معجزات جده رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، إذ هو المتصف بسنته ، والحامل لها ، وهي ليست كالكرامات التي تشاهد مثل المشي علىٰ الماء والطيران في الهواء ، أو شيء من خوارق الدنيا ، بل كانت كراماته سيراً إلىٰ الله وإلىٰ ما يوصله إلىٰ رضاه ، ورعايةً وعنايةً من مولاه ، بل هو التوفيق الذي لا يقع إلا لمن نظر الله إليه بعينه ، إذ الطيران في الهواء والسير علىٰ الماء يشاركك فيه الطير والحوت والجن ، وما كان من خوارق الدنيا يشاركك فيه أبناء الدنيا ، وأما كراماته ـ رضي الله عنه ـ فلا يشاركه فيها إلا الخواص من الصالحين ، الذين قد ذبحوا نفوسهم وباعوها لله عز وجل .

فأول كراماته ـ رضي الله عنه ، ونفعنا به ـ : أنه عزم علىٰ زيارة الشيخ سعيد العمودي والشيخ محمد بن ياسين ، كان إذ ذاك في الوجود ، فلما عزم علىٰ تلك الزيارة ، كان يتفق له كل يوم نحو أربعة أيام أو زائد ، الآية[1] : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنفال : ٤٧] ، فانظر إلىٰ هـٰذا التثبيت والتأييد والحراسة والعناية ، فلما وقع له ذلك . عرف أنه من عناية ربه به ، فأخذ في

---

(١) أي : يحصل له سماعها ، فيستوحي منها العظة ، ويعتبر الخطاب موجهاً إليه .

تصحيح مَقصَده ومطلبه ، ليحصل له الفتوح والمنوح ، والمعارف والعوارف ، والعلوم اللدنية والمواهب الغيبية ، وكان الأمر كما كان ، أخذ في الزيارة من بلد (سيون) ، وكلما مر علىٰ بلد . . زار علماءها وأوتادها وصالحيها ، وٱلتمس منهم ٱلدعاء بالقبول ، وزار أحياءها وأمواتها ، مثل الشيخ عبدِ الرحمـٰن الجفري ، والحبيب أحمد بن زين ، والشيخ عبد الله القديم ، ومولانا الحبيب جعفر بن أحمد ، والحبيب عمر بن سميط من الأحياء ، حتىٰ وصل إلىٰ (الهجرين) ، وقصد بيت السيد حسين الكاف ، رجل من الصالحين ، وزار تربة (الهجرين) ، وبات في بيت السيد المذكور ، وكان ذلك ليلة الجمعة ، وأصبح في بيت السيد المذكور ، وأخذوا في المذاكرة في العلوم ، حتىٰ كان وقت الجمعة ، ففطن سيدي للصلاة ، وعرف أنها تفوتهم الصلاة وهم سائرون إلىٰ (قيدون) ، ولم يفطن سيدي إلا وهم في بعض الطريق ، فحزن لذلك ، وقال للسيد حسين : كيف الغفلة منك ؟ فقال : لأجل ٱغتنامك ، فلما وصل إلىٰ (قيدون) آخر وقت الظهر والخطيب منتظر لسيدي ، فتعجبوا من ذلك ، وقال الحبيب : كيف تخلفك لنا ؟ فقال لهم : جاءت لي ٱمرأة ، وقالت لي : يقول الحبيب سقاف : توقف له إنه واصل ، فقال سيدي : هـٰذه الصلاة تصورت في صورة ٱمرأة ، فٱنظر إلىٰ هاتين الكرامتين ، موافقة الآية عند عزمه ، وتصور هـٰذه المرأة عند تخلفه .

وقد أخبرني الشيخ عبد القادر بن محمد بن ياسين : أنه أراد أن يستخلف[1] من أبيه الشيخ محمد وهو سائر إلىٰ « الشحر » فلما أراد أن

---

(١) أي : يستودع ؛ أي : يطلب الدعاء عند الوداع .

يستخلف . . قال له والده : أخلفْ ، الحبيب سقاف واصل إلينا ، وذكر أنه لم يكن عندنا علم بالحبيب ، فلم يلبث ساعةً إلا وسيدي واصل إليهم ، فتعجب الشيخ من أبيه ، وقد وقعت له زيارة مثل هٰذه إلىٰ (دوعن) ، وزار الشيخ سعيداً ، ومع سيدي أهل السماع ، فلما وصلوا إلىٰ قبة الشيخ معروف . . دخل سيدي علىٰ الشيخ معروف وسلم عليه ، وقال له نوينا ما قاله فيك الشيخ عمر بامخرمة .

واقصدِ الشيخَ معروفَ الذي العصرْ عَصْرَهْ   مَنْ تِنوَّىٰ إليه أحرَمْ بحَجَّهْ وعُمرهْ

فجلسوا عند الشيخ وأخذوا في السماع ، فأخذتهم سنة نوم من غير آختيار ، فناموا جميعُهم ، فلما آنتبهوا . . أخبرهم آثنان منهم ـ أو ثلاثة ـ أنهم رأوا أنهم يطوفون بالكعبة ، فأنظر إلىٰ هٰذه النية ، وهٰذا إكرام من الشيخ ، وتصديق لما قاله الشيخ عمر بامخرمة فيه ، وإشارة إلىٰ هٰذه الكرامة لسيدي ، فهنيئاً لهم بماأتحفهم به مولاهم .

اللهم . . خذ بأيدينا إلىٰ هديهم ، وآجعلنا من حزبهم .

ومن الكرامات العجيبة : أنه ابتلاه السلطان محسن بن عُمَرَ الكِثِيريُّ في شيء من أموال اليتامىٰ ليتولاها ، فأبىٰ سيدي من توليتها ، حتىٰ توعده بالقتل ، فأُخبر سيدي بذلك فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] ، فأمر محسن المذكور عبده بقتل سيدي ، وقال له : إن لم تقتله قتلتك ، فعزم العبد علىٰ ذلك ، فلما خرج سيدي إلىٰ الخلا[1] ذلك اليوم إلىٰ مكان بعض محبيه ، فلما مر سيدي . . ضربه

(١) الريف .

العبد برصاصة وقعت في رقه[1] ، ولم يكن بينه وبين العبد إلا نحو عشرة أذرع ، فَنَقَتْ[2] تلك الرصاصة من رقه ، وصار مكانُها كاثر المِخجَم ، فشاع الخبر في كل البلاد ، ولم يبق في الأرض أحد إلا خرج إلىٰ سيدي ، والناس في بكاء وعويل ، ولم يلبثوا إلا والحبيب ينادي العافية العافية ، ثم طلع سيدي إلىٰ البلاد ، وقصد بيت سيدنا عليٌ بن عبد الله السقاف ، ودار علىٰ بيوته الجميع ، وشاع الخبر إلىٰ جميع النواحي ، حتىٰ وصل الخبر إلىٰ (تريم) بأن الحبيب سَقّافْ ضربه عبد محسن بن عمر برصاصة ومات ، ثم نفذ رسول يخبر أن الحبيب سَلِمَ وهو بخير ، فذكر سيدي الحبيب حامد : أني بقيت متفكراً في ذلك ، فقلت : كيف الحياة بعد ضرب الرصاص ؟ فقال : فبقي عندي الخاطر في أضطراب ، حتىٰ وصلت ورقة سيدي المُعْلِمَةُ بالسلامة ، وكانت القراءة عند الحبيب الحامد في « الإحياء » عند قوله : (فكمالا يخلو الأنبياء من الابتلاء بالأذىٰ ، فلا يخلو الأولياء من الابتلاء بضروب من الأذىٰ) .

أو كما قال ، فأنظر إلىٰ هٰذا الشاهد الكبير ، إذ جعله بعد رتبة الأنبياء ، وأنظر إلىٰ هٰذه الكرامة العظيمة ، هل رأيتها وقعت لأحد من الأولياء من زمان رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم إلىٰ وقتنا هٰذا ، أو قريب منها ، فهٰذه نتيجة المعاملات الخالصة الكاملة ، كما في قصة أهل الغار ، إذ الأعمال الخالصة التي تنجيك من أهوال الآخرة كيف لا تخلصك من أهوال الدنيا ومصائبها ؟

---

(١) مراق بطنه .

(٢) نقت : أي نبت كما ينبو الحديد من الحجر الصلب أي ارتدت .

وأنت قد آثرت الآخرة علىٰ الدنيا ، فأمور الدنيا كلها نموذج لما هو مُعدٌ لك في الآخرة ، فمن أحسن معاملة الله . . كان الله متوليَهُ .

اللهم . . إن لم نكن منهم فلا تحرمنا محبتهم ، فإن المرء مع من أحب ، وهم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم .

ومن الكرامات الشاهدةِ لكماله ، الدالةِ علىٰ علو مقامه : أنه خرج هو والحبيب الحسن بن علي الصادق الجفريُّ للزيارة بتربة (تريس) ، فإذا هما بقبر صاحبه يعذب ، والنار فيه تلهب ، فقاما فوقه فأخذا في القراءة عليه فخمدت تلك النار ، وهـٰذا دليل علىٰ أن الله أكرمهم بالشفاعة بخمود تلك النار ، والحبيب حسن عرف صاحب القبر ، وقال لسيدي الوالد : هـٰذا فلان من أعوان الدولة ، فأنظر إلىٰ قبول الشفاعة لذلك الرجل ، وسيدي في الوجود ، فكيف في البرزخ ويوم القيامة ؟ فهـٰذا دليل علىٰ أن سيدي من أهل الشفاعة ؟ فإذا كان ذلك في حياته فكيف بعد وفاته ؟

ومما وقع لسيدي : أنه ليلةً من الليالي . . نام في بيته القبلي[1] ، فطلع السَرَق إليه ، وفتحوا غالب الأبواب ، ووجدوا الخرش[2] وجميع ما في الدار ، ولم يقدروا علىٰ شل[3] شيء من ذلك ، وأتفق أن سيدي تلك الليلة والسَرَق في البيت . . رأىٰ في النوم أن أحداً أراد أن يأخذ شيئاً مما معه ، فبقي ضاماً لذلك الشيء ، ولم يقدروا عليه ، فأنتبه سيدي ، وخرج علىٰ عادته إلىٰ المسجد ، فوجد الدار مفتوحاً ، وقد خرج السرق

---

(١) أي : الذي يقع جهة القبلة .

(٢) أي : الحُلي .

(٣) أي : أخذ .

ولا أخذوا شيئاً من البيت ، ثم إن السَرَق المذكورين أخبروا وقالوا : إننا كلما أردنا أن نأخذ شيئاً . . لم نقدر عليه .

ومما قد وقع له ليلةً أخرىٰ في البيت المذكور : رؤيا كأنه وثلاثةً من آل كِثِيرٍ بدر بن عمر بن عبدات وٱثنين ، فإذا هو في الرؤيا في ضجيج وصياح ، وكأنه في الرؤيا يتضارب هو وهم ، وكان تلك الليلة بدر المذكور هو وأصحابه وقعوا في محب لسيدي هو عمر بن عوض طرموم ، وضربوه بسبع نِمَشٍ[1] ، شيء في عَصَبهِ وشيء في بدنه ، ولا شيء طرَّقَ[2] فيه إلا شخطة في أذنه ، فٱنظر إلىٰ هـٰذه الرؤيا والمحبة لمحبيه ، وهو يكف عنهم ، والواقعة بالغرفة وهو بـ (سيون) وهو عليهم حجاب ، وكانت الرعاية من سيدي عليهم الجميع علىٰ محبه طرموم من أن يناله شيء من ذلك ، وعلىٰ الجند أن يقعوا في معاصي الله ، فهـٰذه شفقة ورحمة علىٰ الجميع ، لأنهم كلَّهم ، الفاعل والمفعول به[3] لهم به تعلق .

وقد أُخبرتُ أن الأخ محمد بن سقاف ـ حفظه الله ـ وقعت عليه ضربة[4] في البحر لما سافر من (حضرموت) إلىٰ (الهند)، وحصلت شدة عظيمة فٱستغاثوا بسيدي الوالد ، فإذا هو حاضر عندهم فشوهد بالعِيانِ ، فحصل لهم ٱلفرج .

ومن المكاشفات من سيدي : ما أخبرني به الولد شيخ بن عبد الرحمن أنه قبل وفاة سيدي بيوم عزم علىٰ شيء في قلبه ، ولعله

---

(١) النمش : جمع نمشة ، نوع من السيوف مستقيم الشكل .

(٢) طرَّق : أي أثر فيه ، والشخطة : جرح بسيط لا يتجاوز الجلد .

(٣) أي : الجاني والمجني عليه .

(٤) أي شدة لاضطراب السفينة بالأمواج الشديدة .

اراد أن يفعل شيئاً فيه تكلف منه ، فكاشفه سيدي ، وقال : شُفِ الْمِتْعِرِّضْ[1] ما أدري إيش بايفعل ونهاه ، وقال له : إن الله ما بغا[2] منك إلا طاعته ، وقد وقع له في بعض الليالي أنه خرج هو والحبيب حسنُ بن علي وهما بـ (تريم) يزوران التربة ، فلما أصبحا . . خرجا للزيارة أيضاً ، فإذا هما بأحد من السادة مجذوب منور ، فاستحضر الحبيب الحسن كلام الشعراوي[3] ، أخذ علينا العهد أنا إذا رأينا أحداً من أهل الجذب قبل أن يرانا . . أن نختفي منه ، فأرادا أن يختفيا عنه لأنه لم يرهما ، فكاشفهما ، وقال : لا تختفوا عني ، قد أخبرني بكم أهل التربة ، فإنكم زرتم البارحة ، وأنت يا سقاف ؛ حالك حال فلان من أهل البرزخ ، وأنت يا حسن ؛ حالك حال فلان منهم ، غير أني لم أتيقن من ذات المذكورين من أهل البرزخ ، فأعطى الحبيب حَسَنٌ السيد المذكور أوقيتين أو ثلاثاً[4] فرحاً بذلك ، وأما سيدي الوالد فلم يكن معه شيء من الدنيا ، بل كان بعض أصحابه يصرف عليه .

ومن كراماته بعد وفاته ـ رضي الله عنه ـ : ما أخبرني به رجل من أهل الصلاح والنور ، أنه كان ساكناً في بيت من بيوت والده ، ففي بعض الأيام جاءه والده ، وقال له : اخرج من البيت ، فاستمهل أياماً لِيُدَوِّر[5] له بيتاً ، وحزن وخرج إلى ضريح سيدي وأعلمه الخبر ، ففي تلك الليلة

---

(١) شف المتعرض : أي الفضولي ماذا يريد أن يفعل، وشف : أي انظر إيش با يفعل أي ماذا سيفعل؟

(٢) أي : ما طلب .

(٣) أي الشعراني مؤلف العهود والميزان .

(٤) الأوقية عندهم : جزء من الريال ، ويساوي الريال سبع أواق ونصفاً (وهي تفاريق الريال) .

(٥) لِيُدَوِّر : أي ليبحث ويُحَصِّل .

رأىٰ المذكور سيدي طلع إلىٰ بيته ، وقال له : تَرَبَّصْ[1] لا تأخذ داراً ، فلم يلبث بعد الرؤيا المذكورة إلا قليلاً وتوفي أبوه فجأةً بلا ألم .

ومن كرامات سيدي ـ رضي الله عنه ـ : أنه يجلس لقراءة القرآن بالليل في رمضان الليل كله ، وكان ينام في المسجد ، فإذا وصله المُقْرَأُ[2] . . ثار له ، وقرأه من غير أن ينبهه أحد ، كان ذلك دأْبَهُ في كل وقته ، لا يمر عليه المقرأ ، ولا شك أن ذلك لكون عينيه نائمتين وقلبه غير نائم ، إذ قل أن يمر عليه المقرأ ، فرعاية الله ترعاه حتىٰ في نومه ، هـٰذه عناية الله ، ورعايته كانت ترعاه في يقظته ونومه ، بل كان مع الله في مخالطته مع الخلق ، لا يأخذون منه شيئاً ، بل لا تراه معهم إلا وهو مع ربه ، فإنه ـ رضي الله عنه ـ ما يكون مع الخلق إلا وهو آخذ في إرشادهم ونصحهم وتعليمهم ، وهـٰذا أمر قل أن يثبت معه إلا الأبطال ، كما قال الشيخ أبو بكر العيدروس :

وكَـمْ شَخْـصٍ تَنْظُـرُهُ حَـاضِـرَاً   وَرُوْحُـــهُ فِـــيْ ٱلْعُـــلاَ تَجُـــوْلُ

فكان سيدي لا يُرىٰ مع الخلق إلا وهو آخذ بزمامهم ، وإرشادهم إلىٰ مولاهم ، لا ترىٰ له بسطاً[3] إلا إن غلبت عليه الأحوال والمواهب ، ينبسط ويبتسم لذلك ، كما في قصة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم إذا سر . . يقول : « يا حُمَيْرَا » ، ولا يصلح لمخالطة الخلق إلا من كان علىٰ منواله ، وإلا أخذ في أَغراضِهِم وأحوالهم ،

---

(١) أي : تريث وتأن .

(٢) المُقْرَأ : نصف ثمن الجزء من القرآن ؛ أي : إذا وصله الدور ليقرأ المقرأ ، ثار له : أي استيقظ لقراءته .

(٣) بسطاً : أي انبساطاً .

ويصير كالسراج[1] يضيء للناس ويحرق نفسه ، فالحذرَ الحذرَ والمفرَّ المفرَّ من الناس ، فإن الناس أعظم حجاب بينك وبين ربك .

وسطرنا ذلك في كرامات سيدي ؛ لأنه من أعظم الكرامات أن يكون مع الخلق كائناً بائناً ، وذلك عزيز جداً ، وقد أخبرني بعض المتعلقين بسيدي : أنه وقع في خاطره أن سيدي لا يجيء إلىٰ بيته إلا نادراً ووقع في خاطره أنه يختلف إلىٰ بعض الناس ، حتىٰ وافقه في ساعة ، وقال له : لا يقع في خاطرك أنا نختلف علىٰ بعض الناس ، أنت محبتك في القلب ، وهـٰذا من شدة شفقته علىٰ محبيه لئلا يقع في خاطره ، ويتمكنَ ذلك الخاطرُ فيهلكَ ، وشفقته علىٰ محبيه في الدين أكثر من الدنيا .

ومن أعظم الكرامات التي لا تقع إلا لمن بلغ أقصىٰ مقامات الصالحين ، أنه كان ـ رضي الله عنه ـ ممن لا تُردّ دعوته ، إذا دعا بأمر . . حصل في الحال ، ولو مما لا يخطر علىٰ البال ، أخبرني ـ رضي الله عنه ، ونفعنا به ـ : أن السادة آل طـٰه كانوا لا يزيدون علىٰ سبعة ذكور ، حتىٰ قال : إن والدتي إذا أحست بالحمل تشتغل وتحزن ، ويكون معها الخوف الكبير أن تلد ذكراً ويموت واحد من الكبار ، ويتمكن منها الخوف والفزع حتىٰ تلد أنثىٰ ، وهـٰذا منذ ثلاث مئة سنة[2] ما زادوا علىٰ سبعة ، والظاهر أن ذلك لِعُظْمِ مقامهم وصفاء أحوالهم ، إذ العزيز يعز وجوده ، أما ترىٰ الصالحين في خلق الله لم يبلغوا عُشرَ العُشر ؛ لعز ما آكتسبوه وما جاهدوه ، والسادة آل طـٰه من

---

(١) كالسراج : أي كشمعة السراج .
(٢) لعله خطأ من الناسخ وإن الصواب مئتا سنة تقريباً لأن مدة آل طه آنذاك لا تزيد على المئتي سنة .

ذلك الوقت إلىٰ وقت سيدي الوالد ، ما خرج أحد منهم عن رتبة الصالحين ، إلىٰ أن من الله عليهم بمن لا يسمح أن يأتي بمثله زمانٌ قبله أو بعده ، فتوجه سيدي إلىٰ زيارة نبي الله هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، ودعا عنده بثلاث دعوات ، إحداها[1] : أن السادة آل طٰه يَكْثُرون فٱستجاب الله دعاءه في ذلك ، وسيدي في الوجود قارب عددهم ٱلثلاثين ، فٱنظر إلىٰ هٰذا الاعتناء العظيم بأقاربه وأهل دائرته ، وهٰذه الخاصية التي ٱختُصَّ بها من بين أسلافه الماضين ، وٱنظر هٰذا التفقد التام .

ومن كراماته ـ رضي الله عنه ـ : أن بعض محبيه قَبَضَهُ بعض الظلمة ، وقاده إلىٰ حصن خارج البلاد ، وأَخذَ نحو نصف شهر ، فلما كان صبيحة بعض الليالي . . أَخبَرَ سيدي أن فلاناً يِفْتَكْ[2] في هٰذا اليوم ، وفي ذلك اليوم الذي أَخبر فيه أنه يِفْتَكْ ، رأىٰ الرجلُ المقبوضُ عليه أنه في بئر ، وأن الحبيب سقاف شَلَّه[3] من تلك البئر ، فلما ٱنتبه . . خرج من الحصن ، وثلاث قواليد[4] مغلقة عليه في الحصن ، فأخذ يدور عليهن فكلما جاء إلىٰ واحدة . . ٱنفتحت بلا مفتاح ، حتىٰ كَمُلْن مع أنها قواليد محكمة ، وأغفل الله أهل الحصن فلم يعلموا إلا والرجل خارج الحصن ، فضربوه بالبنادق ، فلم يصله الرصاص ،

---

(١) لم يذكر المؤلف هنا بقية الدعوات ، ولعل الدعوتين الأخريين :
١ ـ إنزال الغيث بعد انقطاع دام سنين وسبّب القحط .
٢ ـ وأن لا تحمل زوجاته وكان عنده عدد من الأولاد والزوجات كما هو مذكور في موضع آخر من المناقب .
(٢) أي : يحصل له الفكاك ، ويفرج عنه .
(٣) انتشله منها .
(٤) أي : مغاليق .

فتأملْ هٰذه الكرامة ، وما وقع فيها من العجائب ، والإعلام والرؤيا ، وهٰذه كرامة جمعت فك المسكين والظلمة من السخط العظيم ، فهو رحمة منه علىٰ الجميع ، لأن حالَه رحمة علىٰ خلق الله ، وصار أهل وقته محفوظين ببركته نفعنا الله به ، ومثل هٰذه الحكاية : أن بعض الظلمة تعدىٰ في ظلمه ، فجعل يقبض من ظفر به وينهب ، ففي بعض الليالي عقر مواشيَ علىٰ بعض الناس ، فأُعلم سيدي بذلك ، فأطرق ساعةً ، ثم قال للمخبر : الرَّجَّالُ أخذ قسمه[1] ، فآخِرَ تلك الليلة قتل المؤذي ، والظاهر أن ذلك من قبل التصريف ، لأن المؤذي قُتِلَ مظلوماً وإن كان ظالماً ، ولٰكنه وصف الأولياء وأهل الكمال ، فيكون رحمةً وغَيرةً علىٰ عباد الله ، لا علىٰ نفسه فقد ضرب بالرصاص ، وأعطىٰ الضاربَ الحِلَّ خوفَ أن يعاجِلَهُ الموت قبل الحِلّ ويدخلَ النار بسببه ، هٰذا حاله في نفسه ، وهٰذا حاله مع خلق الله ، ورحمتُه وتحننُه عليهم ، وشفقتُه بهم ، فما أسعدَ أهل زمانه به ، فقد ظفروا بأسرار النبوة ، فهٰذه الرحمة هي أخص أسرار النبوة ، كما قال ربنا [ـ سبحانه وتعالىٰ ـ] : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، فهو ـ رضي الله عنه ـ علىٰ إِثرِ أهل ذلك المقام .

ومن كراماته ـ رضي الله عنه ـ التي لا تقع إلا لمثله : كان ـ رضي الله عنه ـ يقول : إني إذا تعشيت عند إنسان ، وكان فيه بخل . . أرىٰ آخر الليل عدم النشاط ، وأعرف ذلك ، وإن كان حلالاً ، وإن كان ذا سماحة . . أرىٰ انشراح قلبي ، وأعرف ذلك في نفسي ، هٰذا كلامٌ من طريق الأسرار ، التي ينبغي إخفاؤها ، ولٰكن ذلك يُعرّفك داء البخل ،

(١) الرَّجَّالُ : أي الرجل الظالم. أخذ قِسْمَهُ : أي نال نصيبه وجزاءه ، أي: انتقم الله منه .

الذي يؤثر في أهل الله وأهل الكمال ، وقد قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « طعام ٱلبخيل داء »[1] ، لا تظن أن ذلك في البدن ، بل ذلك في القلب ، يظهر أثره عليه ويغطيه ، ويفتره بإيلام باطني يعرفه أهل النور والبصيرة ، كيف والبخل شجرة في النار ، وأغصانها متدلية في الدنيا ، فمن قبض بغصن منها . . قاده إلىٰ النار ، فصار طعام البخيل يكسب القلب ظلمةً ، لقوده إلىٰ مغرسه وهي النار ، وطعام السخي يكسب القلب ٱنشراحاً ونوراً ؛ لأن منبعه الجنة ، ولا تقل : كيف هـٰذا أو تستبِعدْه ، اجلس حول عطارٍ من غير مماسة ، فتراه يعلوك ما هو عنده من غير مماسة لك ، وهـٰذه الأمور متقاربة ، والغالب تَجَلِّي حقائق الأمور أكثر في الصور .

فهـٰذه هي الكرامة لسيدي علىٰ الحقيقة ، هـٰذا الباطن الذي يظهر عليه الآثار لكماله وصفاته ، فتعجب من هـٰذه القلوب إذا رأيتَ قلبك ، فإنك تأكل الحرام الصِرْف ولا تعرف ذلك ، وهـٰذه القلوب هي التي تأهّلت لنظر الله الذي ما وسعه سماؤُهُ وأَرضُهُ ، وتأهلتْ هـٰذه القلوب التي هي خزائن الله في أرضه ، أما تراها إذا نظرتْ إلىٰ عاص . هَدَتْهُ بأمر الله ، وهـٰذا ببركة تنزيه قلوبهم من الأخلاق الذميمة ، وتحليته بمكارم الأخلاق ، التي ما مدارُ طريق الآخرة إلا عليها ، والأعمال تابعة لها ، وقد وقع الانعكاس ، وظنوا أن الوصول بالأعمال والباطنُ مملوءٌ من القبائح ، التي ما ترتفع الأعمال إلا بصلاح الباطن ، وقد أنجر الكلام علينا ، ومرادنا معرفة مقام سيدي ـ رضي الله عنه ، ونفعنا ببركاته في الدنيا والآخرة ـ .

---

(١) أورده السيوطي في الجامع بلفظ طعام السخي دواء وطعام الشحيح داء . وقال حسن .

وقد أخبرَ بعضَ نسائه وهي حامل : بأن الذي في بطنِكِ ولد ، وفي الحمل الثاني أخبر كذلك ، وهـٰذا من طريق الكشف ولا تستبعد ذلك ، فإن الله يطلع بعض عباده علىٰ بعض الغيب ، كما قال [ـ سبحانه وتعالىٰ ـ] : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : ٢٦-٢٧] ، والأولياء ورثة الأنبياء ، وقد تزوج علىٰ بعض النساء بنية الاتصال بأهل البيت النبوي ؛ لأن سيدي صاحب نية في جميع أحواله ، فلما أراد أن يفارقها . . قال لهم : مرادكم بأولاد ما يكون من عندي ، ولـٰكن بنتكم يتزوجها أحد من أهل البيت ، ويلحق[1] له أولاداً ، فكان كذلك ، وكذلك تزوج بنت أحد المحبين ، وقال لوالدها : مرادي لكم بأولاد ، ولـٰكني دعوت الله عند نبي الله هود [ـ عليه الصلاة والسلام ـ] أن نسائي لا يحبلن ، ، فقبلت الدعوة ، ولـٰكن ـ إن شاء الله ـ يكون لكم أولاد من أولادي ، فوقع ذلك ببركة نيته ، وهـٰذه وقائعُ من طريق الكشف ، وقد ذكرنا أن شيخه عليَّ بنَ عبد الله قال : سقاف ينظر في اللوح المحفوظ ، فهـٰذه الوقائع دالة علىٰ ما ذكره سيدي الحبيب علي ، وذلك نتيجة حسن المعاملة ، وبعض نسائه اللاتي توفي عنهن . . خطبها جماعة ، فأبت ٱختياراً منها ؛ لتكون زوجته في الآخرة ، ولها عنده محل ، ثم إنها قُهِرتْ[2] علىٰ الزواج ، فلما تم الكلام . . رأت سيدي أقبل عليها برمح ليطعنها ، رأته يقظةً فأبدت ما حصل عليها ، وعلمت صدق نيتها ، وهـٰذا شأن الأكابر قد يتصرفون ، وقد وقع ذلك لجماعة .

(١) يلحق له : أي يَحصُل له أولاد منها .
(٢) أي : أُخْبِرَتْ .

ومن كراماته العظيمة : أنه أتفق معه حضور سماع ، فأخذته من طريق الأحوال غيبة غاب عن حسه ، حتىٰ دخلت حية في ثوبه ، وجعلت تدور حول بطنه ، وتسير في بدنه ، وخرجت منه ولم يعلم بها ، حتىٰ رآها المُسمِّع فأخذها بيده ، ونكَسَها ، وهي ترفع رأسها تريد اليد ، وسيدي الوالد يقول له : أطرحها حتىٰ ماتت حصل هٰذا رأي عين في السماع .

ومن كراماته العظيمة : أني بعد ما توفي سيدي ـ رضي الله عنه ـ وما ترك إرثاً من الدنيا إلا شيئاً قليلاً وفىٰ بغالب دينه ، ففي بعض الليالي طرقتني هواجسُ عند النوم ، وأنا في منزل عال ، فدخل علي طائر أكبر من الدجاج ، وقصدني وضرب بأجنحته علىٰ السِتْرة[1] التي أنا نائم تحتها ، من الجانب القبلي ضربةً عنيفةً ، أزعجتني عن تلك الخواطر ، ورجع من الخَلْفَةِ[2] التي دخل منها ، فعلمت أنه سيدي الوالد ، فأنظر إلىٰ هٰذه الكرامة ، أنه بلغ في أعتنائه بأولاده إلىٰ هٰذا الحد ، الذي ما سبق لغيره ، لتعلم أن أمور أهل الدنيا غير خافية عليهم ، وأنهم يتأذَوْنَ بأفعالك القبيحة ، كما قال بعض الصوفية : اللهم لا تؤذهم بما يسوؤهم من أعمالنا في البرزخ ، فإذا كان ذلك علىٰ خواطر . . لا تضر ، وإن ضرت فهي قليلة ، فكيف بالمعاصي والقبائح التي تسوؤهم ، فأولاد الصالحين عليهم نظر خاص من سلفهم ، وقد يقع من سلفهم تصريف بموت إذا رأوهم غيرَ صالحين ، وقد وقع في زمان سيدنا الإمام جعفرٍ في حياته أو بعد وفاته علىٰ القرب ، أن بعض أقاربه

---

(١) السِترة : هي الجدار .

(٢) الخلفة : النافذة .

خطب بنت أحدٍ من يافع ، ومراده يكون الزواج في الحوطة بمَحَلِّهِ ، فلما تم الكلام أصطاب[1] السيد المذكور في حال الساعة ، وأَخذَ أياماً وتوفي ، ولا شك أن ذلك تصريف الحبيب أحمد بن زين ، صيانةً لولده أن يكون أولاده من محل الظلم ، هٰذه أمور ينبغي إمعان النظر فيها ، وهي تبصرة لمن أراد الاستبصار ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] ، ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر : ١٣] .

* * *

(١) أصطاب : أي أصابه مرض .

الباب الخامس

في نقل شيء من كلامه ومواعظه وإرشاده
وتعليمه ودعوته إلى الله في سرّه وعلانيته
ووصاياه الجامعة لكلّ خير الدافعة لكل ضير
الفاتحة لأقفال القلوب
المبلغة لمن تبعها غاية المقصود والمطلوب

الباب الخامس

في نقل شيء من كلامه ومواعظه وإرشاده وتعليمه ودعوته إلى الله في سرّه وعلانيته ووصاياه الجامعة لكلّ خير الدافعة لكلّ ضير الفاتحة لأقفال القلوب المبلّغة لمن تبعها غاية المقصود والمطلوب

فكلامه ـ رضي الله عنه ـ دعوة إلىٰ الله وإلىٰ رسوله ، وكل كلمة من كلماته تشتمل علىٰ معانٍ كثيرة ، يفهمها أهل النور والبصيرة ، وسنختم كلامه بوصية له جمعت كل العلوم والمعارف ، بل ٱلعلمُ كلُّه . وأحوالُ الصالحين فيها ، منطوقاً ومفهوماً ، ومن تأملها وأمعن النظر فيها كفته عن مطالعة الكتب الكثيرة ؛ لأنها زبدة الكتب ، مع إيجاز وٱختصار ، وذوق وأنوار .

فمن كلامه ـ رضي الله عنه ـ : في مدرسه يوم الخميس والناس مستمعون ، وهو يعظهم ويوصيهم بالورع ، قال ـ رضي الله عنه ـ اتقوا الله في بيعكم ، إذا جاءت إليكم ٱمرأة بِنَصْبَة[1] ما صَدَّقَتْ[2] أنها تغزلها ، أخذتموها بفائدة وبعتموها بفائدة ، وبخس جمعتم مصلحتين

(١) أي : لفة من الغزل .

(٢) أي أجهدت نفسها في غزلها .

في مسكينة ما حصلت ذلك إلا بتعب ، فأنظر إلىٰ هـٰذا الكلام ، وإلىٰ إرشاده إلىٰ ما لا يقع لأحد علىٰ بال ، وذلك لكثرة شفقته علىٰ المساكين المحتاجين ، وأعتنائه بالورع ؛ لئلا يقع في الهالكين ، فيبيع آخرته بقليل من الدنيا ، فأَخذُهُ لذلك الشيء الحقير مَحْقَةٌ لما معه من الدنيا والدين ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] .

ومن كلامه وفهمه في الحديث : « حُمَّىٰ يَوْمٍ كَفَّارَةُ سَنَةٍ »(١) ، قال سيدي ـ رضي الله عنه ، ونفعنا به ـ : إن الإنسان له ثلاثُ مئة وستون عضواً كلها متألمة ، فكل عضو حاز فضيلة يوم ، فأنظر إلىٰ هـٰذا الفهم الذي يقذفه الله في قلوب عباده الصالحين ، وهـٰذا الفهم الكامل من العلم الذي هو أعز العلوم ؛ لأنه يكون من الله إلىٰ العبد من غير واسطة وتعلم ، اللهم . . آرزقنا العلم اللدني ، والمشرب الصافي الهني ، بجودك وكرمك ، إذ ليس لنا من الأعمال إلا ما يوجب مقتاً ، ولـٰكنْ مغفرتُك أوسع من ذنوبنا ، ورحمتُك أرجىٰ لنا من أعمالنا .

وكان إذا جلس في مدرسه المذكور . . يذمم نفسه ، ويقول : لا تظنوا أن تذميمي لنفسي مدحٌ لها ، بل هـٰذا شيء أعرفه من نفسي ، ويقول : إن بعض الناس إذا أراد مدح نفسه . . يأخذ في تصغيرها ، وهـٰذا عين الرياء ، أنظر إلىٰ هـٰذا التفتيش العظيم ، ومعرفتِه بخدع الشيطان ، وذلك الكلام من سيدي هو حقيق في بعض الناس ، قد ترىٰ بعضهم يمدح إنساناً يقول : عافاه الله وهو يذمه .

ومن كلامه ـ رضي الله عنه ـ : إنَّ الحبيب محمَّدَ بنَ سميط يقول : النظر في بيوت الدولة أنفع من قراءة سبعة كتب ؛ أي : لما كانوا عليه

---

(١) « شعب الإيمان » : (٧/ ١٦٧) ، بلفظ : « حمىٰ ليلة كفارة سنة » .

من القوة ورغد العيش ، ثم صارت خراباً بعد تفرق أهلها .

ومن كلامه ـ رضي الله عنه تحذيراً لخلق الله ، وذلك في مدرسةِ صبح الخميس ـ: أُحذِّركم من عقوق الوالدين ، فإن سخطهم عقوبته معجلة لا تتأجل ، ولو شئتُ أن أعدد لكم عشرين بيتاً من بيوت الذين عقوا الوالدين ، وما حل بهم من الهوان.. لعددت لكم ، ولا يزال يكرر ذلك مراراً عديدةً ، ويقول : من أراد سعادة الدنيا والآخرة.. فليبر بوالديه ، فإني قد جربت ذلك ، ويعدد جملةً من الخلق من الذين قاموا بحق والديهم ، فهم في هناء ، ما شغلتهم أهوال الدنيا ولا ذاقوا مرّارتها ، ويقول : ما فعله الإنسان بوالديه يجزىٰ به من أولاده من خير وشر ، ويقول : والله إني قد شاهدت ذلك ورأيته عِياناً ، وكان غالب مجالسه في المدرس مع كثرة الخلق.. يحذر من عقوق الوالدين ، وكان يقول : الطمع في الوالدين عقوق ، وكان يقول : البر في الباطن خير من البر الظاهر ، يعني : الجبر باللسان والقلب متبرم عليهم ، والذي أفهمه وأدينُ الله به أن البر الحقيقي أن يكون والدُك أعظمَ من نفسك ومن أولادك ، ولو خُيرتَ بين موت ولدك أو أحد والديك.. لكان موت ولدك أحبَ إليك من موت أحد والديك ، فهٰذا هو البر الحقيقي ، ولا تستبعد ذلك فإن صاحب البصيرة الثاقبة.. يعلم يقيناً أن السعادة الأبدية في بر الوالدين ، وأما الأولاد فإنما هم كما قال الله : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٦] ، وبر الوالدين من أعظمها ، وانظر إلىٰ أمر الرب بتبجيلهما والرحمةِ بهما في قوله [ـ سبحانه وتعالىٰ ـ] : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣ـ٢٤] ، حتىٰ قال [ـ سبحانه

وتعالىٰ ـ] : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٥] ، فلعل هٰذا الخطابَ منه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن الإنسان إذا كان صالح السريرة ، متصفاً بالرحمة عليهم ، والمحبة والمودة ، وجرت منه هفوات من صفة طبع البشرية ، ورجع إلىٰ ربه بقلبه ، وأخذ بخاطر والديه ، وأبدل ذلك بإرضائهما والمحبة والود ، وٱستغفر ربه. . فالرجاء في الله أن لا يُكتَبَ من أصحاب العقوق ، ولهٰذا عقب الآية بقوله [ـ سبحانه وتعالىٰ ـ] : ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٥] ، ومن كان بضد ذلك ، كأن يكون قلبُهُ غيرَ راضٍ من والديه ، ولا شفقة ولا محبة لهما ، وكان يظهر بلسانه الجبر وهو طامع فيهم. . فهو إلىٰ أهل العقوق أقرب ، ويشهد بذلك قوله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ [الإسراء : ٢٥] ، والله أعلم بحقائق الأمور ، وما تكنه الصدور .

وقد رأيت سيدي ـ رضي الله عنه ـ يقول في شخص بر والديه وأخوه غير بار بوالديه ، ويقول : أنا متعجب من فلانٍ ومن أخيه ، وعندي أنهما بخلاف ذلك ، فبعد برهة من الزمان ٱنقلب الشخصان ، فصار المسخطُ باراً والبارُ مسخطاً ، فٱنظر إلىٰ هٰذه الفِراسة المحمدية ، وٱرجع إلىٰ قلبك ، فإن الله لا ينظر إلىٰ الصور ، ولٰكن ينظر إلىٰ القلوب ، كما في الحديث الصحيح .

رجعنا إلىٰ ذكر بر الوالدين ، وٱنظر إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان : ١٤] ، عقب بواو المعية ولم يعقب بـ(ثم) ، وٱنظر إلىٰ قوله [ـ سبحانه وتعالىٰ ـ] : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان : ١٥] ، ولعل ذلك ـ والله

أعلم ـ لكونهما من طريق السبب في الإيجاد ، لا من طريق التربية وحدها ، ولعلها تابعة لذلك ، والله أعلم بخفايا الأمور .

فمن تأمل القرآن العظيم ، وأمعن النظر فيه . . تحقق أن بر الوالدين عين السعادة ، وأنه من أفضل الأعمال ، وأنظر في قصة أهل الغار الذين دعوا اللهَ بخالص أعمالهم ، وإلىٰ الذي دعته أمه وهو في الصلاة ، وهو يقول : أمي أو صلاتي ، حتىٰ وصلته دعوتها ، وقد نقل الإمام القشيري [ـ رحمه الله تعالى ـ] في رسالته : أن إنساناً جنىٰ علىٰ نفسه وأكثر المعاصي ، فلما مرض . . قال لوالدته : إذا أنا مت . . فلا تُعلِمي أحداً بموتي ، فإنهم يَسبوني أو يَشْمَتون بي ، وإذا مت فأدحقي[1] علىٰ صماخي ، وقولي : هـٰذا جزاء من عصى الله ، وآستأجري لي أربعةً يغسلوني ويخرجون بجنازتي ، فإذا دفنوني وفرغوا من دفني . . فقومي ونادي ثلاثة أصوات ، وقولي : يا رب ؛ رضيت عنه فأرض عنه ، ففعلت ذلك كله ، حتىٰ سمعت صوتاً من السماء يقول : رضينا عنه ، وهـٰذه القصة ذكرها القشيري [ـ رحمه الله تعالىٰ ـ] في رسالته ، وإن شيء[2] تقديم أو تأخير . . فإنه مني ، وذكرت ذلك كلَه لطالب الآخرة ، فإني رأيت جملةً من أهل الدين وغيرهم ـ وأنا منهم ـ غافلين عن ذلك ، ورأيت أكثر المصائب وقعت من ذلك ، وصار الزمان زمان عقوق ، ولا ظفروا بآخرة ولا دنيا ، ولا شك أن الآية تلحقهم ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف : ١٠٤] .

وليعلم الإنسان أن العقوق من الكبائر العظام التي لا تكفرها إلا

---

(١) أي : دوسي برجلك .
(٢) أي: إن حصل شيء .

التوبة الصادقة ، فإني أحذر نفسي ومن بعدي من العقوق ، وليبلغ جهده في البر ، فإن الفراق حاصل ، لا بد لواحد أن يتقدم علىٰ صاحبه ، ولا يزال يذكر فراقهم حتىٰ يغتنم الفرصة ويفوز بسعادة الدنيا والآخرة ، وقد كنت يوماً أسير خلف سيدي الحامد بن عمر ، فذكر بر الوالدين ، حتىٰ قال : إن أخوين كانت لهما والدة ومعها مال كثير ، وهي عند أحدهما ، فقال لأخيه : لك الخِيرةُ ، إما والدتك عندك ومالها لي ، وإلا تكون عندي وخذ ٱلمال ، فقال ٱلآخر : خذها ، ومالُها لي ، فقال : نعم وكرامةً ، فأخذها وترك للآخر المال ، فلم يزل صاحب المال يفتقر وأخوه يشتري المال منه حتىٰ أكمله ، فقال له أخوه : المال وأمي ، وأنت لا مال ولا أم ، فأنظر إلىٰ البر وبركته ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] ، وإن قُدِّر علىٰ أحد عقوق حتىٰ مات والداه فليصل أرحامهما وأهل ودهما ، ويتصدقْ عنهما ، ويهدي ثواب ذلك إليهما ، ويكثر الاستغفار لهما ، ولا يزال يبكي علىٰ فعله من التقصير في جنابهما ، فلعل الله أن يطلع علىٰ سريرته ويعلم صدقها ، فإن الله لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فيقبله الله ويكتبه من البارين .

ومن كلامه ـ رضي الله عنه ـ : ثلاث خصال العقوبة فيهن معجلة في الحال ، عقوق الوالدين ، والدخول في البناء في حرم المسلمين ، وإيذاء الجار ، ويقول : إني شاهدت ذلك مراراً في جملة من الخلق ، فهٰذا الكلام الذي صدر منه يُكتَبُ بماء العيون ، الذي جرىٰ من خشية الله ، فالله يوفقنا لذلك ، ونُكتَبُ من البارين ، الذين سقاهم ٱلله من عين رحمته ، حتىٰ جعل قلوبهم مقراً لفيض رحمته .

ومن كلامه ـ رضي الله عنه : يخبر عن والده الجد محمد أنه يقول ـ:

يا أولادي . . ما معي لكم إلا النية ، لا ضرب ولا زجر ، من بايصلح يصلح ، وإني لا أقول لأحد منكم أسقني ماءً ، خوفاً عليكم وشفقةً ؛ لئلا يقوم أحد وهو كاره فيصابَ ، أنظر إلىٰ هـٰذه الرحمة والشفقة عليهم ؛ لئلا يقعوا في العقوق ، مع أنهم ليسوا من أهل ذلك ، وإنما ذلك تعليم لهم ولغيرهم ـ رضي الله عنهم ، ونفعنا ببركاتهم في الدنيا والآخرة ـ ؛ ولقول رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « رحم الله والداً أعان ولده علىٰ بره » . فينبغي للوالدين أن يتجاوزوا عن أولادهم ، فإن العقوق راجع عليهم ، ولِيَشملَهم دعاءُ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم .

وليعلمْ أنه معاقب علىٰ ذلك ، ويلحق العقوقُ أولادَ أولاده ما تناسلوا ، فإذا صبر عليهم وعفا عنهم ، ودعا لهم . . انعكس الأمر ، وانظرْ إلىٰ الرب ـ تبارك وتعالىٰ ـ ورحمته لعبيده مع العصيان له ، وأنظر إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورىٰ : ٤٠] ، ولا أحدَ أحق بالعفو من أولاده .

ومن كلامه ـ رضي الله عنه ـ : يشدد في التحذير من الهوىٰ ويبالغُ فيه ، حتىٰ قال في بعض كلامه : لا أخاصم أحداً من خلق الله ، ولو أخذ ما أخذ ما خاصمتهُ ، وقد أُخذتْ عليه قطع من المال[1] وتركَها ولا نازع فيها ، هـٰذه صفة الأكابر أهلِ الله ، فإنهم رفضوا الدنيا ، ولو عُرِضتْ عليهم من غير تعب . . ما نظرتْ أعينهم إليها ، إشفاقاً علىٰ أنفسهم منها ، وقد أقبلوا علىٰ الله بقلوبهم ، فهم في نعيم الجنة وإن كانوا في الدنيا .

وأعلم أن الهوىٰ الذي حذر منه سيدنا الوالد هو أعظم حجاب عن

---

(١) قطع أرض مغروسة بالنخيل ، وكانت أعز الأموال في تلك الأزمان .

الوصول إلىٰ الله ، ويدل علىٰ خراب الباطن ؛ لأن الهوىٰ مقترن بالكِبْر ، ولا ينفك عن صاحب الهوىٰ أصلاً ، ونفس صاحب الهوىٰ شيطانية ، وهو في بلاء عظيم ، وقته في عناء ، ولا يصفو له وقت ألبتة ، ومع ذلك فقلبه جامع للصفات الذميمة . مثل الحسد والحقد والكبر وإيذاء المسلمين ، ولو كشف له حالُ قلبه.. لرآه مسوداً مظلماً ، ووقته منقضي في نكال أبداً ، وآخر أمره يصاب بعلة الدِق[1] ؛ لأن صاحب الهوىٰ لا يبلغ مراده ، كما قال بعضهم :

وما مِنْ يدٍ إلا يدُ ٱللهِ فوقَها ... وما ظَالِمٌ إلا سَيُبْلَىٰ بظالِمِ

وكما قال الشيخ أبو بكر بن عبد الله العيدروس في بعض قصائده :

كُلُّ مَنْ لَيسْ يَمنعُ نفسَهُ ... عن حَضِيضِ الهوَى ذاقَ الهَوانْ

حتىٰ قال :

لا تُغَالِبْ زمانَك يَغلِبَكْ ... كُنْ مُسايِرْ يُسايِرْكَ الزَّمَانْ[2]

ولقد قال الشيخ عمر بامخرمة في بعض قصائده لبعض المتسلكين ، الذين ظنوا التصوف : لبس الثياب البيض ، وحمل السبحة والقراءَةَ ، من غير رياضة نفس ، وأصلُ رياضتها إخراجُ الهوىٰ منها حتىٰ قال :

فَأنَّ ذَا وَقتْ مَجْرانا على خَسٌ مَجْرىٰ ... مَنْ حَمَلْ سُبْحَتُهْ وَاقْبل يِبِسْبِسْ وِيقْرا

أو لِبِسْ مَلْحفِهْ بِيضا فَرا الغَرْبْ وَافْرا ... قالْ لي مَنزِلِهْ دَاخَلْ وهو قِيمْ بَرَّا

مِثِلْ مَنْ قَدَّمِ الْجِرْبة على دَيْدْ كَعْرَا[3]

---

(١) يعني به السل .

(٢) أي كن حكيماً حليماً تجن ثمرة ذلك .

(٣) الجربة : الإناء ، والديد : الضرع ، والكعرا : الشاة التي يبدو ضرعها ، وكأنه ملآن=

حتىٰ قال في آخرها حاكياً عن حال أهل الهوىٰ :

لاَ دُرَكُوْا لِذَة الدُنيا وَلاَ فَوْزْ لأُخْرَى

وفي الأخرىٰ :

ما التصوُّفْ بِعُكَّازٍ ولا حَملْ رَكْوَهْ ما هُوَ الأَ بِذبحِ النفس - يا ناسْ - عَنْوَهْ

وكلام الله هو الأصل ، فلا يرجع إلا إليه ، حيث قال [- سبحانه وتعالىٰ -] : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠-٤١] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩-١٠] ، والهوىٰ منبع الأخلاق الذميمة كلها ، بل لا يخرج خُلُق ذميم عن الهوىٰ ، ولا تظن أن صاحب الهوىٰ يضم قيراطاً من الدين ، وقد رأينا ذلك وشاهدناه ، وقد عم في زماننا وظنوا بعقولهم القاصرة أن المجازاة غير معاقب عليها ، وأخذوا بظاهر الآيات ، وأحسنوا ظنهم بأنفسهم بأنها علىٰ الصواب ، وأن غيرهم المخطىء ، ولا نظرتْ بصائرُهم إلىٰ قول يوسف - عليه السلام - : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٣] ، ولم ينظروا إلىٰ أخلاق الصوفية وهم ممن وصفهم الله تعالىٰ بقوله الكريم : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٥] ، فتأمل هذه الآية ، فهي تغنيك إن كنت من أهل التوفيق ، والظاهر أن الحظ العظيم هو صفاء الباطن والله أعلم ، وذيلنا علىٰ هـٰذا الكلام الذي صدر منه ،

= باللبن وهو خال ، ضربه مثلاً لمن مظهره غير مَخْبَرِهِ ، وقيم : أي قائم و برّا : أي خارج .

لِما رأيناه في زماننا من العقوبات التي أصابت ٱلمسلمين ، والسبب أهل الهوىٰ ، حتىٰ وقع التباغض والتحاسد ، حتىٰ عمت ٱلمصائب الجميع ، فنعوذ بالله من مضلات الفتن ، فإن الإنسان مُعرَّض لذلك ، فالله يحفظنا وأولادنا من ذلك ، ولا يجعلنا من المغضوب عليهم ولسنا ممن يوصي ويحذر ونحن متصفون بذلك فالله يعاملنا بكرمه وفضله ، ولا يؤاخذنا بما ٱقترفنا من الذنوب والأوزار ، وقد ٱنجر بنا الكلام مع أن قصدنا الإيجاز ، ولا مرادنا في الأصل إلا نقل كلامه من غير تدنيس بكلامنا ، ولٰكن الخيرة لله .

ومن كلامه ـ رضي الله عنه ـ يثني علىٰ أهل الورع ويعظم أمرهم ، ويقول : ما عندي أحد كبير إلا صاحب الورع ، ولا يزال يقول : كبير عندي فلان ؛ لما أعطي من الورع ، فالورع هو أصل التقوىٰ ، وقد ذكر الشيخ عبد القادر الجَيلي في كتابه « الغنية » : « أن رد درهم إلىٰ صاحبه أفضلُ من سبعين حجةً مقبولةً » ، وإذا أردت أن تختبر أحداً . فلا تنظر إلىٰ أعماله ، فإن وجدتَه متصفاً بالورع . . فهناك يدعىٰ سيداً ، وإن رأيته غير ورع فلا تعبأ به ، وقد ذكر الإمام الغزالي [ـ رحمه الله تعالىٰ ـ] في الإحياء أبياتاً ، فقال :

لا يَغُرَّنْكَ مِنَ ٱلمَرْ ءِ قميصٌ رَقَّعَهْ
أو جَبينٌ لاحَ فيهِ أثَرٌ قد قَلَعَهْ
أَرِهِ ٱلدِرْهَمَ تَعرِفْ غَيَّهُ أو وَرَعَهْ

إلىٰ آخر الأبيات ، فتفقدها فإنها نافعة .

ومن كلامه ـ رضي الله عنه ـ إذا رأىٰ المساكين . . يقول لهم : أذكرونا هناك إذا كنتم في الجنة ، فإن الصولة لكم هناك ، ونحن إلا

كالعبيد عندكم ، وقد ذكرنا ذلك في عدم رؤيته لنفسه واحتقاره لها ، فمن عرف نفسه . . فقد عرف ربه ، واحذر تخدعك النفس ، وتظن أنك من أهل هٰذا المقام ، فأين الثريا من الثرىٰ ، هٰذه أحوالهم وأخلاقهم ، ولا يظهر منها إلا النزر ، وانظر إلىٰ أحوالك فإنك إن أنصفت . . فلا ترىٰ لك خلقاً واحداً من أخلاقهم ، وترىٰ نفسك بضد ذلك ، ولٰكن ٱلزم حسن الظن بالله ، وألزم قلبك الحسرة والبكاء علىٰ عدم الاقتفاء لأخلاقهم والاقتداء بهم ، وقد رأيت أبياتاً للأخ عمر ـ حفظه الله ـ ووقعت في قلبي موقعاً وهي :

يَا لَهْفَ نفسي إذا كاس المُحبينْ دارْ ... ولستُ فيهم على نفسي طَرَحْتِ الغبارْ
ولكِنِ ٱلظنْ في المولَى نُوافِي المَزارْ ... ونأخذِ الدَّيْر[1] باليمنى وشِيْ باليَسارْ

اللهم . . إني أسألك بمعاقد العز من عرشك ، ومنتهىٰ الرحمة من كتابك ، وبٱسمك الأعظم ، ومجدك الأعلىٰ ، وكلماتك التامات ، التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، أن تصلي على محمد وأن تَرزقني النصيبَ الأوفرَ من أخلاقهم وإن لم نكن أهلاً ، فإنك أَهلُهُ بمنك يا أرحم الراحمين .

وقد قصدنا الإيجاز في كلامه ـ رضي الله عنه ـ وإلا فكلامه لا تسعه المجلدات ؛ لأن كلامه كله إرشاد للخلق ، وما ذكرناه كفاية .

ثم نختم كلامه ـ رضي الله عنه ـ بوصية صدرت منه ، نافعة كافية ، وفيها جُل أخلاقه ، وحالُهُ يلوح لك كأنك تراه إذا تأملتَها بعين البصيرة ، ولٰكن بالتفكر فيها وإمعان النظر يظهر لك حاله وصفته ، وهي قد طلبتها منه حين نويت زيارة الشيخ محمد بن ياسين ، وهو في

---

(١) ما يدار على الحضور من شراب أو نحوه .

ذلك الوقت في الوجود ، وقد فعلها مطابقةً منه لي ؛ لأنه يؤثر الخمول ، ولا يحب أن ينسب إليه شيء من ذلك ، ويقول : لست أهلاً للإيصاء ، تذميماً لنفسه ، وتحقيراً لها ، ونرجوا أن يرزقنا الله الانتفاعَ بما فيها والعملَ بها ، وتشملَنا بركةُ دعائه وهي هٰذه :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وهو الفتاح العليم ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة : ٣٢] ، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف : ١٧٨] ، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر : ٢٢] ، والنور هو العلم ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وهي الجهل ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود : ١٧] ، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، والحمد لله حمداً يوجب المزيد ، وأشكره شكراً ؛ لأكون لبقاء نعمه مستفيد ، والصلاة والسلام علىٰ من ٱصطفاه وٱختصه من سائر العبيد ، وعلىٰ آله وصحبه ، ما تكرر جديد بعد جديد ، وعاد عيد بعد عيد .

أما بعد: أيها الأولاد ، السادة الأمجاد ، الطالبين للهدىٰ والرشاد ، الراغبين في مسلك أهل النور والسداد ، حقق الله لكم نجح المطالب ، وحماكم عن ٱلنقائص والمثالب ، وصرف عنكم ٱلآفاتِ والمعاطبَ ، وجعلكم من السادة القادة ، الحائزين لقصب الفوز والسعادة ، فإنكم ٱلتمستم مني مع تجرد الهمة المصحوبة بالقبول ، البالغة نهاية السؤل والمأمول ، لقصد زيارة الأولياء ، والالتماس لبركة الأموات والأحياء ، والاقتباس من أنوارهم ، والالتماس من أسرارهم ، أن أسعفكم بوصية تنتفعون بها ، وبصيرة قد تستبصرون بها ، ولستُ بأهل

لذلك ، وإنما أنا جدير بالالتماس والاستبصار من أهل النور والهدىٰ ، والجود والندىٰ ، وإنما مَثَلي في ذلك مَثَلُ من قيل فيه :

تَصفُ ٱلدواءَ لذي ٱلسَّقَامِ وذِي ٱلضَّنا كيما يَصِحُّ بهِ وأنتَ سَقِيمُ

وكما جاء في حديث الإسراء ، قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « مررت بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، حتىٰ قالوا كنا نأمر بٱلخير ولا نأتيه ، وننهىٰ عن ٱلشر ونأتيه » ، أو كما قال القائل :

يا أيها ٱلرجلُ ٱلمعلمُ غيرَه هَلاّ لنفسِك كان ذا ٱلتعليمُ
إبدأ بنفسك فٱنهَهَا عن غَيِّها فإذا ٱنتهتْ عنهُ فأنتَ حكيمُ
لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلَه عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

إلىٰ آخر الأبيات .

ولكن بحسَب نيتكم ٱلصالحةِ ، وحسن ظنكم بي ، وسترِ الله الجميلِ عليّ . . أوجبَ الإشفاقَ والمساعدةَ والمعاونةَ علىٰ البر والتقوىٰ بحسب الإمكان ، وإرشاد الطالبين ، والاستمداد بالفتح من رب العالمين ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، ومنه أستمد ، وعليه أعتمد ، في نجح المطالب ، لي ولكم ولكل راغب .

أما بعد : فأول ما أوصيكم به في سفركم هٰذا ، ونرجو أن يكون سفراً إلىٰ الله . . أن تصححوا النية ، وتتحرَّوْها بالصدق والإخلاص ، وأن يكون منتهىٰ قصدِكم طلبُ الاستفادة والإفادة ، والتعرض للنسمات والنفحات ، والنظر والاعتبار ، وطلب المزيد من العلم والعمل ، وترك الفضول والتُرَّهات والبطالات ، والرسوم والعادات ، والقيل والقال ، والمراء والجدال .

وأوصيكم بأن تحافظوا علىٰ الصلاة أول وقتها مع الجماعات ،

والأذان برفع الصوت إذا كنتم بغير بلد ، والمحافظة على الأوراد مع الحضور ، وصدق الرغبة ، وحسن الظن بالله ، والاعتماد عليه ، والثقة بما لديه ، والإياس مما في أيدي الناس ، ورفع الهمة والغنى بالله ، وإن ساق الله إليكم رزقاً من غير إشراف نفس . فاقبلوه ، واشكروا الله عليه والواسطة ، ولا يكون همكم التفكُّرَ في الرد والقبول ، وأحسنوا الظن بالله وبعباد الله ، واجتنبوا مواضع الريب ، والتمسوا ما عند الله ، وابحثوا عن أهل الخير ، والتمسوا منهم المصلحة ، وتذللوا ، وأحسنوا الأدب ، وجانبوا الهوى والصخب ، وأشعروا قلوبكم خوف الله ، ولا تأمنوا مكر الله ، وتَحَلَّوْا بمكارم الأخلاق وتخلقوا بها ، وجانبوا سَفسافَها ، وطهروا قلوبكم من الرياء والنفاق ، وسوء الأخلاق ، والعُجُب المحبط ، والحسد المهلك ، وكونوا كما وصف الله أهل الجنة إخواناً . ﴿ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢-٣] ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٤] ، ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٤] ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] ، والحذرَ الحذرَ كلَّ الحذرِ من الاختلاف فيما بينكم ، والمجادلة والخصام ، اجمعوا قلوبكم ، واهضموا نفوسكم ، واستعينوا بالله ، وانتصروا بالله عليها ، بالعلم وبتوفيق الله ، بارك الله لكم في القرآن ، ورزقكم فهم معانيه ، والعملَ بما فيه ، وجعلكم من العلماء العاملين ، وفتح لكم فتوح العارفين ، ونور قلوبكم ، وشرح صدوركم ، وما ذلك على الله بعزيز .

واللهَ اللهَ ثم اللهَ اللهَ في الدعاء لنا في الأماكن المأثورة ، وعند ضرائح الأولياء بحضرة الشيخ سعيد ، فواللهِ ثم واللهِ إني لأحوج الناس إلى

الدعاء ، وأفقرهم إلىٰ ذلك ؛ لأن ذنوبي تملأ البراري والبحار ، ولولا حسن ظني في الله . . لأيقنت أني من أهل النار ، وإنما رحمته وسعت كلَّ شيء ، وعفوه شامل .

اللهم . . مغفرتك أوسع من ذنوبنا ، ورحمتك أرجىٰ لنا من أعمالنا ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] ، ويا غافر الذنوب . . اغفر ذنوبنا ، ويا ساتر العيوب . . استر عيوبنا ، يا الله . . ما لنا غيرك ، ولا غير بابك باب ، وإذا لم تقبل إلا المخلصين . . فمن للمخلطين ؟ ، وإذا لم تغفر إلا للقائمين . . فمن للمقصرين ؟ ﴿ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، رزقنا الله ـ وإياكم ـ التوبة الصادقة الخلصاء ، وأنقذنا ـ وإياكم ـ من بحار الذنوب المغرقة ، بجاه النبي المختار ، وآله وصحبه الأطهار ، والأولياء الأبرار ، وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمد نور الأنوار وسر الأسرار ، وبجاهه تمحىٰ الذنوب والأوزار ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولىٰ ونعم النصير ، أستغفر اللهَ لي ولكم ، ولوالدينا ، وجميع المسلمين . والحمد لله رب العالمين .

انتهت الوصية بحمد الله ، وهي من أعظم الوصايا وأنفعها في سلوك طريق أهل الله ، وقد أظهرت حاله ـ رضي الله عنه ـ وأخلاقه ، التي خصه الله بها ، التي ذكرناها سابقاً ، من الصدق مع الله ، وحسن النية والإخلاص ، والإفادة والاستفادة ، كما هو حاله مع الخلق ، والتعرضِ لنفحات الله ، والنظرِ والاعتبارِ ، وطلبِ المزيد من العلم والعمل ، وترك الفضول والترهات والبطالات ، والرسوم والعادات ، والقيل والقال ، والمراء والجدال ، والمحافظة علىٰ الصلوات أوائل الأوقات مع الجماعات ، والمحافظة علىٰ الأوراد مع الحضور ، وصدق

الرغبة ، وحسن الظن في الله ، والاعتماد عليه ، والثقة بما لديه ، والإياس عما في أيدي الناس ، ورفع الهمة ، والغِنَىٰ بالله .

وأنظر إلىٰ قوله : وإن ساق الله إليكم رزقاً من غير إشراف نفس. . فاقبلوه ، وآشكروا الله والواسطة ، أي : الواسطة من حيث كونُهُ واسطةً لا غير ، وقوله : وأحسنوا الظن بالله وبعباد الله ، وآجتنبوا مواضع الريب ، وآلتمسوا ما عند الله ، وآبحثوا عن أهل الخير ، وآلتمسوا منهم المصلحة ، وتذللوا ، وأحسنوا الأدب ، وجانبوا الهوىٰ والصخب ، وأشعروا قلوبكم خوف الله ، ولا تأمنوا مكر الله ، وتَحَلَّوْا بمكارم الأخلاق ، وتخلقوا بها ، وجانبوا سفسافها ، وطهروا قلوبكم من الرياء والنفاق وسوء الأخلاق ، والعجب المحبط ، والحسد المهلك ، وكونوا كما وصف الله أهل الجنة ، إلىٰ آخر ما أورده فيها ، حتىٰ قال في آخرها ، ووالله ثم والله إني لأحوج الناس إلىٰ الدعاء ، وأفقرهم ؛ لأن ذنوبي تملأ البراري والبحار ، ولولا ظني في الله. . لأيقنت أني من أهل النار ، وأنظروا إلىٰ قوله : يا الله ؛ ما لنا غيرك ولا غير بابك باب ، وإذا لم تقبل إلا المخلصين. . فمن للمخلطين ، وإذا لم تغفر إلا للقائمين. . فمن للمقصرين ، ثم عقب كلامه ـ رضي الله عنه ـ بهٰذه الآية العظيمة ، بعد كلام صدر منه ، وهو : اللهم. . مغفرتك أوسع من ذنوبنا ، ورحمتك أرجىٰ لنا من أعمالنا ، ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، فانظر إلىٰ هٰذه الآية العظيمة .

ثم ختم وصيته بالدعاء بالتوبة الصادقة الخلصاء ، وبالاستغفار ، ثم ختم ذلك بالصلاة علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، فتأمل هٰذه الوصية بقلب منور ، التي قل أن يرىٰ مثلها ، تَعْلَمْ حاله وأخلاقه ،

وتقول لو أنصفت : كم ترك الأول للآخر ، ولله أن يجعل الخير كله في شخص واحد ، وتقول : سبحان المعطي لعبيده ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

هٰذه أحوال الصالحين وأعمالهم وصفاتهم ، وما ظهر منها في هٰذه الدنيا من غير ٱختيار منهم ، أو للاقتداء بهم ، وإلا فهي مستورة إلى يوم العَرْض الأكبر ، عند مواجهة رب الأرباب ، فعليك بالاقتداء بهم ، والسير في طريقهم وإن كانت وعرةً ، كما قال الشيخ عمر بامخرمه :

مَرَّ بي في طريق الضيقْ وَأوعازْ تُوْحِلْ   في صَفا ما تِعِبِّر في مزاليقِهِ البِلْ[1]
والقنيصْ العَوادي في مَراقِيهْ ترقِلْ

إلىٰ آخر كلامه ، تَفُزْ وتنعم بسعادة الدارين ، وتَفُزْ بالرضىٰ من رب العالمين ، ولو لم تكن هٰذه المناقب إلا لوضع هٰذه الوصية. . لكفت ، ولولا قِلُّ العلِمِ وعَدَمُ الفَهْمِ. . لشرحناها ، ولٰكن إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل ٱمرىء ما نوىٰ ، فإن صَلَحَتِ النيَّةُ. . فما ذلك علىٰ الله بعزيز ، فالله يوفقنا للأدب ، وحسن الظن بهم ، والمحبة لهم ، ويجمعنا بهم في أحسن الأحوال ، بفضله وطَوْله .

* * *

(١) أي : الإبل ، واختزالها للضرورة .

الباب السادس

في ذكر أوراده

رضي الله عنه

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الباب السادس

في ذكر أوراده

وهي كثيرة ؛ لأن أقواله وأفعاله وأحواله ومناجاتِه وحركاتِه وسكناتِه كلَّها لا تخلو عن طاعة لله تعالىٰ ؛ لأن الصالحين لا يتركون شيئاً من أمورهم سُدَىٰ ، ولا وزنَ مثقالِ ذرة من أحوالهم مُهْمَلاً ، وأمعن النظر ـ أيها السالك ـ لطريق القوم في الماهرين في جمع الدنيا ، هل يفوتهم في دنياهم شيء منها ؟! بل يدققون حسابها ، وأي مصلحة لهم فيها . . بادَروا إليها ، فإذا كان ذلك في دنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة . . فكيف بمن كان جزاء عمله الدارَ الآخرةَ ؟! فإن راقبتَ أمورك كلها في طاعة الله . . جعلت مباحاتِك كلَّها طاعةً وقربةً إلىٰ مولاك ، كما قال الشيخ عمر بامخرمة :

نُثَمِّنْ أحجارَك جميعَها ماسْ

وهٰذه إشارة إلىٰ المباحات التي هي من الغافلين من الهوىٰ الصادِّ عن عبادة الله ، وذلك بالنية الصالحة ، والنيةُ الخالصةُ كيمياءُ[1] الأعمال ، وهٰذه الأوراد التي نذكرها هي أول الزاد للمسافر إلىٰ الله ، وسلاح المؤمن من الشيطان وجنوده ، فإذا كان بهاتين المثابتين . . فلا

---

(١) أي : أنها تصيّر المباح طاعةً يثاب عليها .

يتركه إلا متهاون بالدين ، وكان من الحمقاء الجاهلين ، وقد قال الشيخ عبد الله بن أبي بكر العيدروس : (من لا له ورد.. فهو قرد)[1] ، وستأتي أوراده في الصلاة وخارجها ، وما نذكره هو شيء يسير من شيء كثير ، ولٰكنه فيه غنية لمن وفقه الله ، وأسعفه بالقبول مولاه .

فأول ما كان يفعله إذا آستيقظ من النوم.. الاستياك ، وقول : لا إلٰه إلا الله ، الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ، لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، رب آغفر لي ذنوبي ، وتب علي إنك أنت التواب الرحيم ، ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة : ٢٠١] ، ويمسح وجهه من النوم ، ويرفع بصره إلىٰ السماء ، ويقرأ آخر سورة آل عمران من : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، إلىٰ آخر السورة ، أو إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

وكان يقول ـ إذا لبس ثوبه بعد أن نوىٰ به ستر العورة ـ : الحمد لله الذي كساني هٰذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة ، ويقول : آللهم إني أسألك خيره وخير ما هو له ، وأعوذ بك من شره وشر ما هو له ، وكان إذا لبس ثوباً جديداً أول لبسة.. قال : آللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له . وهٰذا لم أسمعه منه بنفسي ، إلا أني أسمعه يقول :

---

(١) المشهور أن هٰذه القولة للإمام عبد الرحمٰن السقاف ، فلعل الإمام العيدروس يذكرها راوياً لها عن جده عبد الرحمٰن السقاف [ـ رحمهما الله تعالىٰ ـ] .

الحمد لله الذي كساني هٰذا الثوب ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة .

وإذا رأىٰ علىٰ إنسان ثوباً . قال : ٱلبس جديداً ، وعش حميداً ، ومت شهيداً ، وقد يقول : أَبْلِ وأَخْلِق .

وإذا دخل الخلاءَ[1] ، فإذا وصل عند المحل . . يقول: بٱسم الله ، ٱللهم . . إني أعوذ بك من الخبث والخبائث ، ويقدم رجله اليسرىٰ ، وقد يدخل منتعلاً في بعض أحواله ، مغطياً رأسه ، ويتفكر في نعمة الله إذا خرج منه الأذىٰ ، ويقول ـ رضي الله عنه ـ : لو فكر الإنسان في نعمة خروج البول . . ما قام بنعمة الله فيه ، وإذا خرج قدم رجله اليمنىٰ ، ويقول بعد ذلك : غفرانَك ، الحمد لله الذي أذهب عني الأذىٰ وعافاني ، وبعد الاستنجاء يقول : **ٱللهم** طهر قلبي من النفاق ، وحصن فرجي من الفواحش .

ومما يعمله في وضوئه في أغلب أوقاته ، يقول عند إرادته الوضوء : بٱسم الله ، الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً ، وقد يعمل بدعاء الوضوء ، والظاهر أنه لا يتركه ، غير أني لم أتحقق أنه ما يتركه ، يقول عند غسل الكفين : **ٱللهم** ٱحفظ يدي من معاصيك كلها ، وفي المضمضة : **ٱللهم** أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، وفي الاستنشاق : **ٱللهم** أَرِحْني رائحة الجنة في الجنة ، وأنت راض عني ، وفي غسل الوجه : **ٱللهم** بيض وجهي يوم تبيض وجوه أوليائك وتسود وجوه أعدائك ، وعند يده اليمنىٰ : **ٱللهم** أعطني كتابي بيميني ، وحاسبني حساباً يسيراً ، وفي اليسرىٰ : **ٱللهم** لا تُعطني كتابي بشمالي ولا من وراء ظهري ، وعند مسح الرأس : **ٱللهم** حرم شعري وبشري

---

(١) المراد بالخلاء هنا : محل قضاء الحاجة (الكنيف) .

علىٰ النار ، وفي مسح الأذنين : اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وفي غسل الرجلين : اللهم ثبت قدمي علىٰ الصراط يوم تزل فيه الأقدام .

فإذا تم وضوؤه بكماله ، بأذكاره وآدابه . . استقبل القبلة رافعاً بصره إلىٰ السماء ، وهو يقول : أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم . . اجعلني من التوابين ، واجعلني من المتطهرين ، واجعلني من عبادك الصالحين ، سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إلـٰه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، وقد يقرأ بعد ذلك : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] ، وإذا فرغ . . صلىٰ ركعتين سنة الوضوء أو الغسل ، يقرأ في الأولىٰ بعد الفاتحة : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] ، وفي الثانية بعد الفاتحة : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] .

ويقول ـ رضي الله عنه ـ : ينبغي للمتوضىء ـ بعد استحضاره النيةَ المذكورةَ ـ أن ينوي بكل غسل لعضو من أعضاء وضوئه تكفِرةً لمعاصي ذلك العضو .

وكان ـ رضي الله عنه ـ إذا دخل المسجد يقدم رجله اليمنىٰ ، ويقول : باسم الله توكلت علىٰ الله ، ويقول في طريقه إذا كان سائراً إلىٰ المسجد : اللهم بحق السائلين عليك ، وبحق الراغبين إليك ، وبحق ممشاي هـٰذا إليك ، لم أخرج أشراً ولا بطراً ، ولا رياءً ولا سمعةً ، بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، فأسألك أن تنقذني من النار ، وأن تغفر لي ذنوبي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

ويقول عند دخوله المسجد أيضاً : اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك ، وكان ينوي الاعتكاف حال دخوله مبادرةً ؛ ليكون سيره في المسجد اعتكافاً ، وهٰذا من شدة اعتنائه بأمور الآخرة ، هٰذا شأن أهل الله رضي الله عنهم .

وكان سيدي محمد بن علوي خيله ـ رضي الله عنه ـ إذا دخل المسجد . يقف عند باب المسجد ساعةً ، وينوي الاعتكاف اغتناماً منه ؛ ليكون كل وقته طاعةً .

وكان يقرأ في ركعتي الفجر : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون : ١] في الأولىٰ ، وفي الثانية : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ١] ، ويأتي بدعاء الفجر ، وهو : اللهم إني أسألك رحمةً من عندك تهدي بها قلبي . . إلىٰ آخره ، ويأتي بعد الدعاء بـ(يا حي يا قيوم) ، أربعين مرة .

وكان ـ رضي الله عنه ـ إذا سمع المؤذن يقول : الله أكبر . . يقول مرحباً بالقائل عدلاً ، وبالصلاة مرحباً وسهلاً ، وكان يقول مثل ما يقول المؤذن ، إلا في الحيْعَلَتينِ ، فيقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وفي : الصلاة خير من النوم يقول : صدقتَ وبررتَ ، وكان عند قوله : أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . . يقبل أصابعه ويضعها علىٰ عينيه ، يفعل ذلك مرتين ، وإذا فرغ المؤذن . . يقول : اللهم رب هٰذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة . . آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، يا أرحم الراحمين ، ويدعو بالدعاء المأثور عن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم .

وكان ـ رضي الله عنه ، ونفعنا بأسراره ـ إذا أراد أن يصلي بعد فراغ

الإقامة.. يقول : ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم : ٤٠-٤١] ، ويقرأ : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس : ١] ، ويأتي بآدابها وأذكارها[١] ، وكان إذا أحرم بالصلاة.. يغمض عينيه ، ويستغرق في الصلاة ٱستغراقاً كلياً ، يرىٰ نفسه أنه بين يدي الله ، وكان يذكر كلام العوارف : إن الصلاة كالمعراج ، وإن التشهد وصولك للحضرة .

وقد أخبرني بعض محبيه ، أن سيدي كان يصلي ليلةً من الليالي في بيته ، إذ ضرب بندق قرب الدار ، فٱرتج الحاضرون وسيدي في ركوعه ، فلما فرغ سيدي من الصلاة.. سمع الحاضرين يتذاكرون في أمر ذلك البندق ، فسألهم هل شيء جرىٰ ، فأعلموه بذلك ، فقال : لم أسمع شيئاً ، فهٰذا الحضور الذي هو شأن الخُلَّص من أهل الله ، وقد وصف مثل ذلك عن بعض الصالحين ، وهٰذا لا شك أنه في الحضرة ، وأن روحه بين يدي الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ .

وقد ذكر الإمام الغزالي ـ رضي الله عنه ـ في « الإحياء » : الحضور في الصلاة ، وذكر له أشياء لا يمكن ٱجتماعها إلا لمن كان مثل سيدي ، فإنه جامع لذلك ، وما ذكره الإمام فهو عزيز لا يكاد أن يناله أحد ، إلا من كان مخلصاً لله ، وأما نحن ، أيها الغافلون.. فينبغي أن نلتزم في صلاتنا التفكر والتدبر لمعاني ما ٱشتملت عليه الصلاة ، من القراءة والأذكار ، كل كلمة تتفهم معناها ، ٱنظر إلىٰ قولك في الفاتحة : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] ، أفهم كاف الخطاب ، أنَّكَ تخاطب حاضراً ، وإذا وصلتَ إلىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ

---

(١) أي: الصلاة .

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة : ٦] ، أَقبِلْ إلىٰ مولاك بقلبك ، واعلم أنك بين يديه واقف ، وأنك تسأله أعظم مطالبك ، وهو الهداية إلىٰ الصراط المستقيم ، وكذلك في أذكار الركوع ، إذا قلت : سبحان ربي العظيم وبحمده ، تحقق أن معنىٰ سبحان الله ، أنك تنزه الله عن قول الكافرين ، وتفهم عظمة الله ، وفي سبحان ربي الأعلىٰ تذكر تذللك بين يديه ، وأنه متعالٍ عليك ظاهراً وباطناً ، فإن معنىٰ السجود التذلل ، وفي باقي صلاتك تَفَهَّمْ معنىٰ ما تقول ، فهٰذا لنا أقرب لاستجلاب الخشوع ، وأما صلاة أهل الله . . فلا تَقْدِرُ عليها إلا بمَوْهِبة من الله ، ولٰكن ٱلزم ما أنت تقدر عليه ، وما لم تقدر عليه فالله المعطي لك والميسر ، والحذرَ الحذرَ أن تأتي البيوت من غير أبوابها ، فيمر وقتك في تعب وخسران .

وكان ـ رضي الله عنه ـ إذا دخل في الصلاة يعتليه الخوف ، وهٰذا وصف الأنبياء والصالحين ، كما قيل إن إبراهيم الخليلِ ـ صلىٰ الله علىٰ نبينا وعليه وسلم ـ إذا دخل في الصلاة . . يُسمع غطيطُ صدره من نحو ميل .

وكانت صلاته مخففةً مع كمال ، يأتي بدعاء الاستفتاح وسنن الصلاة كلها ، لا يترك شيئاً منها ، فيأتي في الركوع بسبحان ربي العظيم ، وفي السجود بسبحان ربي الأعلىٰ ، ثلاثاً ثلاثاً ، ويزيد في الثالثة : (وبحمده) ، اقتداءً بشيخه علي بن عبد الله السقاف ، فإنه لا يأتي بـِ (وبحمده) إلا في الثالثة وعمل الفقهاء : (وبحمده) في الكل ، وكان يأتي بسكتات الصلاة كلها ، ويأتي في السكتة التي هي أطولهن ، وهي التي بعد قراءة الفاتحة ، إذا كان إماماً بقوله : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ

﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

فإذا سلم . . قال : اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، وإليك يعود السلام ، فحينا ربنا بالسلام ، يا ذا الجلال والإكرام ، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك وطاعتك ، سبحان من لا يعلم قدره غيره ، اللهم أذهب عني الهم والحزن ، يأتي بذلك كله مع حضور وخشوع ، ويأتي بالتسبيح والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين ، ويكمل المئة بـ(لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) .

ويأتي بذلك في جميع الفرائض إلا صلاةَ المغرب فيأتي فيها عشراً عشراً ، وذلك اقتداءً بشيخه علي بن عبد الله فإنه يقتصر على ذلك في المغرب ؛ لأن فيه روايةً ، وإن كانت الأولى عند الفقهاء أصح ، وما ذكرناه هنا ، وفيما مر في تسبيح الركوع والسجود أنهما لا يأتيان بـ : (وبحمده) إلا في الثالثة . . هو عمل بالرواية ؛ لأنهم إذا رأوا روايةً صحيحةً في شيء . . عملوا بها ليحوزوا فضلها ، إذ كلما سمعوا شيئاً من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . بادروا إليه كائناً ما كان ، ولهم ملحظ آخر ، وهو التخفيف ، ألم ترهم إنما اقتصروا على العشر في المغرب . . لضيق وقتها ، فمن علم مقاصدهم . . فليقتد بهم ، ومن كان مثلي فلا يعدل عن قول الفقهاء ، فإنه أولى به وأحسن ، وليقتد بهم في مجاهداتهم ومكابداتهم ، ومعاملاتهم وكثرة عباداتهم ، ولا تتبع ما هو أسهل لنفسك ، فتقودك إلى اتباع الرخص ، نعوذ بالله من ذلك .

وكان ـ رضي الله عنه ـ بعد ما يأتي بالتسبيح المذكور ويأخذ في الدعاء . . كأنه في الصلاة في حضوره وخشوعه ، وذلك لتحقق الإجابة لمن أحسن الصلاة بآدابها وحضورها وأذكارها ، كيف لا يجازيه مولاه

بقبولها ؟! فلو قبلت لك صلاة واحدة في عمرك . . لكنت مع الفائزين .

قال الشيخ عمر المحضار : لو علمت أنها قُبِلت لي تسبيحة واحدة . . لضيفت أهل (تريم) حتىٰ كلابهم ، فإذا قبلك مولاك في شيء من أعمالك . . فالمرجو من فضله وكرمه أن يتقبل باقي أعمالك ، فإن القبول لشيء من أعمالك دليل علىٰ الرضىٰ منه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ، وإذا وقع الرِّضا وتحقق . . فزتَ علىٰ ما فيك ، وافهم قول الشيخ عمر المحضار : لو علمتُ أنها قُبلتْ لي تسبيحة ، فإن لا إلـه إلا الله أو نحوها إذا كانت من ولي كامل ووضعت في الميزان . . لم يَرجِحْ بها شيء ، افهم معنىٰ كلام الصالحين ، فإن لكلامهم معانيَ لا يفهمها إلا أهل البصيرة .

وكان ـ رضي الله عنه ـ إذا أتىٰ بالتسبيح والدعاء . . يقرأ الفاتحة وآية الكرسي ، و﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [البقرة : ٢٨٤] إلى آخر سورة البقرة ، و﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٨ـ١٩] و﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٢٦ـ٢٧] .

وكان ترتيبه في القراءة في صلاة الصبح أن يقرأ في صبح الجمعة : ﴿ الٓمٓ ﴾ [السجدة : ١] و﴿ هَلْ أَتَىٰ ﴾ [الإنسان : ١] . وفي صبح السبت : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ [الطارق : ١] ، و﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ [الشرح : ١] ، أو نحوهما . وصبح الأحد : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلىٰ : ١] ، و﴿ وَٱلتِّينِ ﴾ [التين : ١] ، أو نحوهما ، وصبح الإثنين : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ ﴾ [الغاشية : ١]،

و﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ [القدر : ١] ، أَوْ نحوهما . وصبح الثلاثاء : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ [الفجر : ١] ، و﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ [الزلزلة : ١] أو نحوهما . وصبح الرَّبوع[1] : ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ [الشمس : ١] ، و﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ [الليل : ١] ، أو نحوهما ، وصبح الخميس : ﴿ لَمْ يَكُنِ ﴾ [البينة : ١] ، و﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ﴾ [العاديات : ١] أو نحوهما ، إلا في آخر عمره ، فإنه يقرأ فيهما : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ [الضحى : ١] ، و﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ [الشرح : ١] .

وهٰذه مكاتبة للأخ عبد الرحمٰن بن سيدنا حامد ، ٱلتمس من سيدي الوالد ما كان يفعله من الأوراد في الصلاة وغيرها ، وذكر له ذلك في مكاتبة إلىٰ سيدنا الوالد ، فجوب عليه[2] بهٰذه المكاتبة العظيمة ، التي جمعت غالب أوراده ، وفيها من الأدب مع الصالحين ، وعدم رؤيته لنفسه من الذل والافتقار إلىٰ مولاه ما يدلُّكَ علىٰ علو مقامه وعُظْمِ حاله ومنواله ، وهٰذه هي المكاتبة :

بسم ٱلله ٱلرحمٰن ٱلرحيم ، وبه نستعين ، وهو الموفق والمسدد والمعين ، ومنه نستمد ، وعليه ثقتي ، وهو الفتاح العليم ، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبي الرحمة ، وشفيع الأمة ، الجالي لكل ظلمة ، والمزيل لكل غمة . . حفظ الله بحفظه ، ولحظ بعين عنايته سيدي وسندي ، وقرة عيني . . الولد الأنور المحفوف بألطاف الله الخفية ، المسعوف بتوفيق الله وحسن رعايته ، وجيه الدين عبدَ الرحمٰن بنَ سيدنا ومولانا وحبيبنا وشيخنا شيخ الإسلام ، ونور الزمان وبهجة الكون ، الحامد بن

---

(١) أي : الأربعاء .
(٢) أي أجابه .

سيدنا الشيخ عمر الحامد ، أمده الله بجوده الخاص والعام ، ورزقنا الأدب معه ، آمين .

وكتابكم وصل ، وانشرح به الخاطر ، وقر به الناظر ، لا زلتَ في زيادة من الخير والعلم والعمل ، وذكرتَ مرادك ورداً من الفقير ، (فمن هو عند النبي . . ما يقول : يا ابن علوان)[1] ، وكما قيل :

وإنّا ومَنْ يُهدي ٱلقصائِدَ نَحوَنا كَمُسْتَبْضِعٍ تَمْراً إلىٰ أرضِ خَيْبَرا

ولكن نتجرّأ عليك بما يسمح ، وسامحْ وٱعف وٱصفح وتجاوز ؛ لأنا لسنا بأهل ، ولا معنا أدب ، ولا حضور ، ولا خشوع ، ولا حصلت لنا نية محررة ، ولا أثر ، إلا عسىٰ وعسىٰ ، والرجاء في الله . . يمن بنفحة ونظرة ولحظة ، يا كريم يا كريم .

وذكرْتَ أن مرادك أن نكتب لك ما يسر الله مما نقرؤه من أوراد ، فالذي قدر الله للفقير عند الانتباه من النوم الأدعية المأثورة ، وأفتتح بركعتين خفيفتين ، أقرأ بعد الفاتحة : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] ، وفي الثانية : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] ، وثمان ركعات الوتر ، أقرأ فيها المنجيات ، وآتي بالأربعين من ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] ، وما تيسر من أدعية مأثورة وٱستغفار ، وأركع الفجر[2] وآتي بدعائه المشهور ، وأربعين من : (يا حي يا قيوم

(١) مثل يُضرَبُ لمن عنده ما يغنيه عن غيره وأن من عنده الأعلى لا يطلب الدون .
(٢) أي أُصلّي راتبة الفجر .

لا إله إلا أنت) ، وبعد صلاة الصبح عشر مرات من : (لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو علىٰ كل شيء قدير) ، وبعد الصلاة الخمسَ مئَة ، التي أشار بها الحبيب علي بعد ورده ، تُنْظَرُ في الورد المذكور ومئة من : (لا إلـه إلا الله الواحد القهار رب السمٰوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار) ، ومئة من : (سبوح قدوس رب الملائكة والروح) ، ومئة من : (لا حول ولا قوة إلا بالله) ، ومئة من : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) ، ومئة من : (يا فتاح يا رزاق يا كافي يا مغني) ، ومئة من : (يا لطيف يا كافي) ، ومئة من : (يا كريم) ، ومئة من : (يا حفيظ) ، ومئة من : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] ، ومئة من : (يا فتاح يا وهاب) ، هـٰذا قبل الخروج من المسجد ، ومئة أو ألف من : (سبحان الله وبحمده) ، ومئة أو ألف من : (يا حي يا قيوم) ، وألف من : (اللهم صل علىٰ محمد) ، وألف من : (أستغفر الله) ، بعد العصر ، ونتبعُ ذلك بعد المغرب براتب الحبيب عبد الله الحداد ، والمنجيات في سنن الصلاة ، أختمها بالجُرُز وتبارك في سنة العشاء ، وجَمَعْنا أدعيةً من جملة كتبٍ ننقلها لك ، لـٰكن ما معنا في ذلك أدب ولا حضور . انتهت المكاتبة وهذا حاصل ما فيها .

والفقير بعد ما يكمل المنجيات في سنة العشاء يأتي بالأربع الركعات المعروفة[1] ، يقرأ بعد الفاتحة في الركعة الأولىٰ آية الكرسي ، وفي الثانية : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥ـ٢٨٦] ، ويسلم ، ويأتي في الثالثة بأول الحديد إلىٰ ﴿ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحديد : ٦] ، و[في] الرابعة آخر الحشر ،

---

(١) لم يبينها ولعلها صلاة التسبيح التي علمها الرسول لعمه العباس أو غيرها .

ويأتي بالوتر ثلاثاً ، وعند النوم يأتي بآية الكرسي مرتين تمام الثلاث ينوي بهن ختمه ، ويأتي بـ ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، وأول الحديد وآخر الحشر مرتين ، ويقرأ : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ [الزلزلة : ١] مرتين ، ينوي بهن ختمه، ويأتي بـ ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ [قريش : ١] ثلاثاً، و ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون : ١] أربعاً ، ينوي بهن ختمه ، ويأتي بالمنقذات من الكوثر إلىٰ آخره مكرراً فيها : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١] ثلاثاً ، ينوي بها ختمه ، ويقرأ : ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ [الشمس : ١] ، ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ [الليل : ١] ، ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ [الضحىٰ : ١] ، و ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ [الشرح : ١] ، ﴿ وَٱلتِّينِ ﴾ [التين : ١] ، ذكرها في « المواهب » لدفع الرؤيا الشاغلة ، هٰذا ما هو راتب وعسىٰ القَبولُ ، والتوبة الصادقة . أنتهىٰ ما قاله سيدنا رضي الله عنه .

فمن تأملها بعين البصيرة النافذة. . عرف ما آشتملت عليه من الأوراد النافعة ، الموصلة إلىٰ رتب الصالحين ، ولٰكن يكون ذلك مع أدب وحضور ، فهو الأصل والأساس ، كما قال ـ رضي الله عنه ـ : ولا معنا في ذلك أدب ولا حضور ، وهو في عين الحضور ، ولٰكن من بلغ منتهىٰ الكمال. . لا يزال يتهم نفسه ، ويرىٰ أعماله مدخولةً حتىٰ يصل إلىٰ ربه .

وكان يواظب علىٰ ورد سيدنا الإمام علي بن عبد الله السقاف ، وحزب الإمام النووي ، وحزب البحر ، وأوراد لم أتحققها ، وكان له ورد كل يوم من دلائل الخيرات ، يقرأ نصفها بالصبح كل يوم مع حضور ، وكان في دلائله مكتوباً : (وردٌ للشيخ عبد القادر الجيلاني ، من واظب عليه يرىٰ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم) ، وله أدعية نقلها في مجلد مفرقةً لجملة من المشايخ العارفين تبركاً بهم ، وآستمداداً من

أنوارهم ، فإن المدد لا ينقطع عن ٱلأولياء بعضهم البعض ، وهٰذا كله يرجع إلىٰ الآخذ والمأخوذ منه ، وقد فعل لنفسه حزباً لطيفاً جامعاً نافعاً ، وذكر هو ـ رضي الله عنه ـ أنه متضمن لحزب سيدنا الحبيب عبد الله بن علوي الحداد ، وحزب سيدنا الحبيب علي بن عبد الله السقاف ، وذكر أنه زبدة هٰذين الحزبين ، فمن له تعلق بسيدي لا يتركه ، فإن النسبة والمدد يقىٰ بذلك ، ويحصل بذلك التعلق الكلي ، وقد سأل الشيخُ حسين بافضل صاحبُ (تريم) الذي أشار إليه الشيخ عمر بامخرمة في قصيدته التي أولها :

حسينْ هَبَّتْ نَسِيمُ القُرْبْ بَعدَ المَدا

ولعل القصيدة بسبب إنكار من الشيخ حسين علىٰ بعض قصائد للشيخ عمر فيها إشكال علىٰ العوام الذين لم يعرفوا كلام الشيخ ، والله أعلم ، سأله[1] : هل كتاب الولي أنفع لقارئه وحامله أو الجلوس عند قبره أنفع ؟ فقال له الشيخ عمر : الكتاب صفته والقبر إلا أَثَرهُ .

وإني أردتُ أن أضع حزب سيدي هنا ليحفظ ، وأكون سبباً في حفظه والانتفاع به ولو لم تكن لي نية في نقل هٰذه المناقب إلا وضع هٰذا الحزب . لكفى ، والرجاء في الله كبير أن لا يخيب رجائي ، ويصلح ما فسد من أعمالي وإعلاني وإسراري ، فإنه ولي التوفيق ، وهو أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين ، فأوله :

بسم ٱلله ٱلرحمـٰن ٱلرحيم ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ

---

(١) أي سأل الشيخ حسين بافضل الشيخ عمر بامخرمة ولعل ذلك حصل في رؤيا منامية لأن با فضل متأخر عن زمن الشيخ عمر .

فَقَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام : ١-٢] .

﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم : ١٧-١٩] .

بسم ٱللهِ ٱلرحمـٰن ٱلرحيم ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر : ١-٣] .

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . . ثلاثاً .

﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات : ٧٩-٨١] . ثلاثاً .

بسم ٱللهِ ٱلرحمـٰن ٱلرحيم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ١] ثلاثاً .

بسم ٱللهِ ٱلرحمـٰن ٱلرحيم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق : ١] ثلاثاً .

بسم ٱللهِ ٱلرحمـٰن ٱلرحيم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس : ١] ثلاثاً .

(بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم) ثلاثاً .

(رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم نبياً) ثلاثاً .

(أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق) ثلاثاً .

اللهم.. إني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر ، فأتم نعمتك علي وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة.. ثلاثاً . وفي المساء أمسيت .

اللهم.. إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إلـه إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدُك ورسولك أربعاً . (ويقول في المساء أمسيت) .

اللهم.. عافني في بدني . اللهم.. عافني في سمعي . اللهم.. عافني في بصري . اللهم.. إني أعوذ بك من الكفر والفقر .

اللهم.. إني أعوذ بك من عذاب القبر ، لا إلـه إلا أنت ، حسبي الله لا إلـه إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.. سبعاً .

حسبيَ الله ونعم الوكيل.. سبعاً .

اللهم.. صل علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.. عشراً .

ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، بآسم الله علىٰ نفسي ومالي وديني وأهلي .

أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشَرِّ عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون . اللهم.. إني أسألك من فجأةِ الخير وأعوذ بك من فجأة الشر .

يا حي يا قيوم.. بك أستغيث ، فأصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين . اللهم.. إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً .

اللهم.. إني أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر غيري ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربي علىٰ صراط مستقيم .

اللهم . . إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين ، وقهر الرجال .

اللهم . . إني أسألك العافية في الدين والدنيا والآخرة .

اللهم . . إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي .

اللهم . . ٱحفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي .

اللهم . . ٱستر عوراتي ، وآمن روعاتي .

اللهم . . رضني بقضائك ، وبارك لي فيما قدرت لي ، حتىٰ لا أحب تعجيل ما أخرت ، ولا تأخير ما عجلت .

اللهم . . بك أمسينا وبك أصبحنا ، وبك نحيا وبك نموت .

اللهم . . إني أسألك خير هـٰذا اليوم فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه ، وأعوذ بك من شره وشر ما بعده ، أصبحنا علىٰ فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين .

سبحان الله وبحمده . . مئةً .

سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر . . مئةً .

لا إلـٰه إلا الله الملك الحق المبين . . مئةً .

اللهم . . صل علىٰ محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم . . مئةً .

وهـٰذا يكون قبل الورد أو بعده . ٱنتهىٰ .

وكان ـ رضي الله عنه ـ يصوم الست من شوَّالٍ ، ويومين قبل

مزدلفة[١] ويوم الحج ، وتاسوعاء وعاشوراء وحادي عشر المحرم ، وثلاث أيام من رجب ، وأيام البيض ، ويوم النصف من شعبان ، ويقول : إنه نافع من ضغطة القبر .

وكانت أوقاته موزعةً جميعها ، بعد صلاة الصبح يقرأ جزءاً من القرآن ، وبعد الجزء يقرأ أولاده في كتب الفقه ، وبعد الظهر يقرؤون في مسجد الجد طٰه إلىٰ صلاة العصر كتب الصوفية ، وبعد العصر الروحة كذلك ، وبعد المغرب يجلس للحزب ، وإذا خرج إلىٰ النخل للمحلة[٢] فعلى عادتِهِ ، النهارَ كله إلا ساعة رقوده ، وبعد الظهر رتب قراءة القرآن إلىٰ صلاة العصر في مسجد الحبيب محمد ، وفي مسجده هو ، وبعد العصر قراءة فقه ، وبعده الروحة : تصوُّفٌ ، هٰذا دأبه في وقته .

وأما ٱستقامته ـ رضي الله عنه ـ فإنه علىٰ قدم رسول الله [صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم] في أحواله كلها ، ما حاد عنه طَرْحَ[٣] بنان ، وكان صبوراً رحيماً ، عَطوفاً شكوراً خائفاً من ربه ، إذا تلا القرآن يبكي بكاءً شديداً ، يتحسر تحسراً عظيماً علىٰ ما فات من ضياع العمر ، ويحاسب نفسه كلَّ ليلة ، ولا فات له وقت من أوقاته ، بل كان ساعياً إلىٰ ربه ، داعياً إلىٰ الله بالأقوال والفعال ، مرشداً لخلق الله ، ما ٱلتفت إلىٰ الدنيا وزهرتها ، يحب الفقراء أهلَ المجاعة ، ويقول : ٱذكرونا في موقف

---

(١) يعني به : يوم التروية ، وهو اليوم الثامن من ذي الحجة ، ويوم الحج : هو يوم عرفة ، ويسن صومه لغير الحاج .

(٢) المحلة : هي الخروج إلىٰ المصائف والأرياف ، ويكون ذلك عندما تكون النخيل أينعت ثمارها .

(٣) طَرْحَ بنان : أي قِيدَ بنان .

القيامة ، ويقول : الشجاعة صبر ساعة ، يحب الفقرَ لأولاده ، ويقول : لا تغركم الدنيا ، يؤثر الخمول ويحبه ، ويكره الجاه والشهرة ، وأما نفسه فإنه أتعبها ، بل أكبدها وكَدّها وعذبها ، ينصف ولا ينتصف لها ، مستحقراً نفسَه ، وأما السخاء فهو صفته ، وحسن الخلق شيمته ، ولقد تجلّى فيه قول الرب الكريمِ لنبيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] ، ومن كان علىٰ قدم الرسول [صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم]. . فإن الخطاب يشمله ، ولقد حاز الطريقة الوسطىٰ ، التي لا يظفر بها إلا أهل الوراثة المحمدية ، التي وصفها الرب في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] ، هٰذه الآية هو متصف بها في أحواله كلها دقيقها وجليلها رضي الله عنه ، ونفعنا به ، آمين .

* * *

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

* * *

[illegible]

الباب السابع

في ذكر وفاته وما رزقه الله فيها
من المواهب والمعارف والأحوال
والمقامات والمكاشفات
والتجليات واللطائف

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الباب السابع

في ذكر وفاته وما رزقه الله فيها من المواهب والمعارف والأحوال والمقامات والمكاشفات والتجلّيات واللطائف

وكان ـ رضي الله عنه ـ حين قرب المسير إلىٰ دار المصير ، أخذ في الجد والتشمير ، وكان في السنة التي قبلها مثلَ السنة التي توفي فيها ، حصلت لسيدي العارف بالله حامد بن عمر حامد.. همةٌ إلىٰ زيارة نبي الله هود ، فكتب لسيدي الوالد كتاباً بالعزم علىٰ الزيارة ، وأشار فيه إلىٰ كتم الأمر من التُبْعَة[1] ، ففرح سيدي بذلك فرحاً كثيراً ، حيث كان يتمنىٰ زيارة نبي الله هود علىٰ نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام في غير وقتها المعروف ، وحيث قد طالت مدته من الزيارة إذ له من زيارة نبي الله هود نحو أربعَ عَشْرَةَ سنةً ، تركها شفقةً ورحمةً بخلق الله ، لأنه إذا جد علىٰ المسير.. لم يبق أحد من الخلق ، فمنهم من يأخذ مُؤن الزيارة ديناً ، ومنهم من يتكلف غاية التكلف ، تركها لشيء من ذلك ، وقد صارت روحه خفيفةً ، لم تحتمل الكثافةَ وأجلافَ الخلق وأشياءَ

---

(١) التبعة ـ بضم التاء وسكون الباء ـ: أي الذين قد يتبعونهم إذا علموا بعزمهم ، والحبيب يريد أن تكون الزيارة خاصةً ورائقةً .

أُخرَ ، فلما وصل الكتاب من سيدي الحامد . . أجاب عنه بقوله :

الحمد لله ، كان ذلك بالخاطر من قديم الزمان ، وكان نفوذنا إلىٰ (تريم) يوم الأحد ، ولم يكن معه أحد غيرُ أولاده ، الأخ عمر وعلوي والفقير ، والولد شيخ بن عبد الرحمـٰن ، والشيخ محمد بن محمد بن عبد الولي ، والمحب عبدِ الرحمـٰنِ فَقْيِهْ ، والخادم عبد الله حميد ، حتىٰ وصلنا إلىٰ (تريم) إلىٰ بيت سيدنا الحامد ، وبتنا تلك الليلة ، وصبيحتَها سرنا نحن والحبيب الحامد والأخ عبد الرحمـٰن بن حامد والسادة أهل (قسم) ، وبتنا تلك الليلة الثانية بـ (قسم) والثالثة ، والليلة الرابعة قرب نبي الله هود مواجهين القبة ، واليُمْنُ والسُعْدُ والقبول معنا ، فيا لها من ليلة ما أعظمها ، فأشار سيدنا الحامد وسيدي الوالد علىٰ الخادم عبيد أن ينشد بنشيدةٍ ، فأخذ في قصيدة الشيخ الأهدل حين واجه ضريح رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وهي :

يـا ليـتَ شِعْـرِي أَلِـي قَبـولُ ... وهَـلْ إلـىٰ ٱلسُولِ لِـي وُصـولُ

إلىٰ أن قال في آخرها :

إنْ قيـلَ زُرتُـمْ بِمـا رجعتُـمْ ... يـا أكـرمَ ٱلخلـقِ مـا نَقـولُ
قُـولـوا رَجعنـا بكـلِ خيـرٍ ... وٱجتمـعَ ٱلفـرعُ وٱلأُصـولُ

فتعجب سيدي الحامد من شَلِّهِ[1] لهـٰذه القصيدة ، وٱستبشر وتحققنا الإجابة والقبول ، وبتنا في فرح وٱستبشار ، فلما أصبحنا بذلك المكان . . ٱبتكرنا بعد أن صلينا الصبح إلىٰ ضريح نبي الله هود ، وقصدنا النهر وتوضأنا وركعنا علىٰ حصاة عمر ، وطلعنا آخذين في

---

(١) شله : أي إنشاده .

التهليل والتكبير ، حتىٰ وصلنا إلىٰ الضريح المنير ، وأخذنا في القراءة والدعاء والتضرع واللجاء ، والوقت وقت جدب عظيم فقرؤوا يسّ بنية الرحمة ، وخرجنا إلىٰ تحت الحصاة المسماة بالناقة ، فلما ٱنتصف النهار . . قال لي سيدي الوالد من غير أن يسمع أحد : إذا جاء الليل . . أريد أن أطلعَ إلىٰ القبة أنا وأنت ، ونبيتَ بها ؛ لأني أخاف إن لم تكن معي أن يظهر علي النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ويخاطبَني ، والظاهر أنه خاف أن يحصل عليه بذلك ٱشتغال وٱنزعاج وتغيُّرٌ لحاله ، والله أعلم ، فلم يتمَّ كلامَه ذلك إلا ونزلت ٱلمطر ، وحصلت ٱلرحمة في الظاهر والباطن ، وطلعنا إلىٰ القبة كلُّنا وأخذنا ثلاثة أيام ، وشربنا من مراعيض[1] القبة وعمت ٱلرحمة جميعَ الجهة ، من قبر نبي الله هود إلىٰ (وادي عمد) ، وبقيت المطر تُمطِر .

فلما كان يوم الربوع . . عزمنا علىٰ السير والمطر والسحاب لم يكف ، وبقي الأخ عمر يحثهم علىٰ المسير ، والخوف في القلب من السيل لأنه لم يبق هناك شعب إلا وسال ، وسرنا وفي الخاطر ما فيه ، فلما سرنا وأخذنا طريق (وادي يبحر) ، لأن الأرض ما تِغْتِبِر[2] ، فلم نلبث ساعةً إلا وانجلىٰ السحاب والمطر ، فأخذنا في الوادي المذكور ، وبتنا في شعب من شعابه علىٰ خير ويمن وحبور ، فلما أصبحنا . . سرنا وأخذنا طريق (العَقَبَة) ، وهي طريق ما يمرها كل عاقل ، وذلك لأنا لم يكن معنا من يعرف الطريق هـٰذه ، وأما طريق أهل الله : فمعنا من يعرف الطريق إلىٰ الله ، وهم سادتنا الوالد والحبيب حامد ، فلم نلبث

---

(١) المراعيض ـ جمع مرعاض ـ : وهو الميزاب ، والجمع ميازيب .
(٢) ما تِغْتِبِر : أي ما يُحتَمل السير فيها بسبب الأمطار والمياه التي تغمرها والوَحَل .

إلا قليلاً ، ولم نعرف أين نصعد ، وأخذنا ساعةً فأقبل علينا رجل شيبة[1] ، وقال : أدلكم علىٰ الطريق ، وأخذ قدامنا بعكازه وهو يمر بنا من منخفض إلىٰ مرتفع ، وسألناه عن نفسه ، فقال : أنا أبو القنيص ، وهو لا شك أنه أبو القنيص ، وكان معنا حتىٰ خرجنا من (العقبة) ، وهي عقبة ما رأينا مثلها ، أخذنا جل النهار نسير فيها حتىٰ خرجنا منها ، فإذا نحن قرب (قسم) فصافحناه ، وأخذنا نعطيه أجره ، فأبىٰ من ذلك ، ورجع إلىٰ (العقبة) المذكورة ، وغاب عن أعيننا حالاً ، فسيدي الحامد وسيدي الوالد عرفا أن ذلك الخضر ، فبتنا تلك الليلة بـ (قسم) ، فلما أصبحنا . . وصل مِكِتِّبْ[2] من (المعْلاةِ) بأن الجهةِ كُلُّها مرحومة حتىٰ (هِينَنْ) ، ولها من الرحمة نحو ست عَشْرَةَ سَنَةً ، فحصل الفرج التام ، وظللنا ذلك اليوم ، فلما أصبحنا . . سرنا إلىٰ (تريم) فوصلنا وقت الضحىٰ ، فتضحينا[3] في بيت سيدي الحامد ، وجد سيدي الوالد علىٰ السير إلىٰ (سيون) ، وقال : نعود إلىٰ (تريم) وتقع زيارة لها وحدها ، ففرحت بذلك ، وعرفت أنه راجع إلىٰ زيارة في القريب ، فسرنا حتىٰ دخلنا (سيون) في مدخل عظيم فهٰذه زيارة سيدي قَصَدْنا إيجازها وٱختصارها ، وإلا ففيها من الخوارق والمواهب والعطايا . . ما لا يحصره الحاصرون ، ولا يدونها الناقلون ، ويقول المتخلف عنهم : ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٧٣] ،

---

(١) أي: مُسِنّ .

(٢) هو حامل البريد ، والمعلاة : أعلىٰ الوادي ، ويعبرون أحياناً بـ : عَلْواء بدل (المعلاة) . ومرحومة أي حصلت فيه الرحمة أي الغيث و(هينن) بلد معروف بـ (حضرموت) .

(٣) أي: تغدينا .

ولا شك أن هذه الزيارة من سيدي الوالد كالاستيداع من نبي الله هود ، لأنه لم تطل له المدة بعد ذلك ، بل كان آخر عهده بذلك المكان .

ثم بعد ذلك في السنة المذكورة أو بعدها في شهر محرم ، عزم علىٰ زيارة (تريم) التي وعد بها ، فسار ومعه الخادم عبد الله حميد ، وسار إليها كالمستودع من الأحياء والأموات ، وفي ذلك الوقت وقعت فتنة بين بعض مناصب (المعلاة) ، فدخل بينهم ولم يلتئم أمرهم ، فآعتذر من الدخول في شأنهم ، وقال : نرد أمرهم إلىٰ الله ، وإلىٰ أهل (تريم) الفقيهِ المقدَّمِ ، فلما وصل ضريح الفقيه المقدم . . قرأ لهم (يسٓ) بنية صلاح أمرهم ، فحصل السداد في ذلك الوقت ، وزار الفقيه وحصل له الفتوح والمنوح ، وزار أهل التربة الجميعَ ، وقصد مسجد آل أبي علوي ، وآتفق بسيدنا الحامد ، وأخذ في (تريم) ثلاث جمع[1] ، كعادته في آخر وقته يرتب زيارة (تريم) في السنة أو السنتين ، وينفذ يوم الخميس ويكمل الثلاث الجُمَعَ ، ولا يترك أحداً من الأحياء والأموات يدور علىٰ غالب السادة ، مع حسن ظن كبير ، يَعتقِدُ في جميع أهلها ، الصغار والكبار ، ولا شك أن له من الجميع مددا باطني ، لأن مدة ما هو واقف فيها يغلب عليه الضعف ، يقل معه الأخذ من القوت ، ويَرِكَ حالُهُ لكثرة المواهب والعطايا ، وإذا قرب مسيره إلىٰ (تريم) يحصل له آنزعاج وشوق يصير كالعطشان ، كان إذا سار إلىٰ (تريم) . . لم يترك شيئاً من المآثر وله سارية في مسجد آل أبي علوي يجلس بها بعد صلاة الصبح ، ويسير إلىٰ مكان بين الجوابي والضاحي[2] والرُّواقِ ، يصلي فيه آثنتان من

---

(١) أي : ثلاثة أسابيع .

(٢) الجزء الذي لا يُسقف من بناء المسجد وهو صحنه .

النساء الصالحات ، يقمن من آخر الليل يركع في مكانهن ، ويقول : لعل الله يرحمني ببركتهن . فأنظر ـ أيها المترقي إلىٰ المعالي ـ هٰذا التذلل الكبير وحسن الظن ، فهٰذا شأن الخواص من أهل الله ، وأنظر في تفقده .

وكان جُل السادة يَصِلُونَ إليه وهو في بيت السادة آل بارقبه قرب بيت سيدنا الحامد ، ويلتمسون منه ويقتبسون من أنواره وأسراره ، وله يومٌ يخرج فيه إلىٰ العُلْمَةِ[1] ، ويخرج لأهل العلمة بقهوة ، ويجلس معهم ويتشفع بهم إلىٰ الله في أغراض وأحوال ، وأكثرها القرب إلىٰ الله والترقي والرحمة للمسلمين ، ويطلب من المعلم باغريب (المدة[2]) ، وهو أن يعذرهم من القراءة بعد الظهر طول اليوم ، ليدخل السرور علىٰ الصغار ، لأن هٰذا شأنه ؛ لأن أخلاقه رحمة ، وكان المعلم المذكور له حسن ظن في سيدي ، وله به أعتناء كلي وصلة ومواخاة .

وقد وقع للمعلم المذكور ليلة دخول سيدي (تريم) . . رؤيا ، رأىٰ أن أحداً من أهل الفضل العظيم داخل إلىٰ (تريم) ، والفقيه المقدم هو وجيشه مِتْعِرِّضَه[3] وذلك في كل زيارة لسيدي مِنْ آخر زياراته نحو ثلاث أو أربع سنين تحصل للمعلم مثل الرؤيا هٰذه أو قريباً منها .

وكان أهل (تريم) يفرحون بسيدي كلُهم الخاص والعام ، الصغار والكبار ، ولهم في سيدي حسن ظن ، وإذا وصل إلىٰ (تريم) . .

---

(١) هي الكُتّاب محل تعلم الأطفال كما سبق .
(٢) كلمة دارجة عندهم فسرها المؤلف فهي بمعنى العطلة .
(٣) أي : مستقبلين لذلك الزائر العظيم يطلقون مادة عارض يعارض عراضا على الاستقبال .

يقولون : وصل البِرِكْ[1] ؛ لأنه في آخر زياراته إذا وصل . . يحصل لهم ببركته الفرج والرحمة .

حصل مرةً عند زيارته (لتريم) بطش وظلم من بعض العسكر ، يقبضون الناس من المساجد وآستأذىٰ الناس منهم أذىً شديداً ، حتىٰ أن المعلم باغريب قبضوه وشنقوه ، وفعلوا فيه أمراً شنيعاً ، فدخل سيدي (تريم) والناس في غاية من الضيق ، فآستغاث الناس بسيدي ، فخرجوا يافع إلىٰ حصن ذلك الظالم المذكور ، وأخذوا الحصن وقتلوا منهم وأسروهم ، وحصلت آلنقمة ببركته ، رضي الله عنه ، ونفعنا به .

وكذلك دخل (تريم) مرةً وهي منعكسة[2] بفتنة بين أهل البلد وبعض المناصب ، وتضرر الناس ، فلما وصل سيدي (تريم) . . حصل السَّداد[3] .

ومرةً دخل والناس في جدب وغلا وضيق ، فما خرج منها إلا وقد عمت آلرحمة ، حتىٰ قال لي سيدي في بعض الزيارات ـ وشيء من ذلك في الأرض ـ : إني أريد أن يقع الفرج بعدي ، لأني خائف أن ذلك من الله آستدراج بي ، وذلك مقام العارفين الكمل .

وكان لسيدي تفقد لم يترك شيئاً من آثارهم ومعاهدهم ، يخرج إلىٰ شعاب (تريم) ويتفقد الصالحين ، كلما علم شيئاً من ذلك . . بادر إليه ، وخرجنا معه إلىٰ عيديد ، ومعنا الحبيب الحامد إلىٰ بيت الحبيب عبد الله الهندوان ، وقرأنا الفاتحة علىٰ نيات ومقاصدَ حسنة ، وله في

---

(١) البرك : أي صاحب البركة الذي يتبرك به .
(٢) أي : مضطربة .
(٣) أي : الوفاق .

هٰذه الزيارة ـ وهي آخر زيارة له ، نفعنا الله به وأفاض علينا من مدده ـ رؤيا من سيدنا الإمام العارف بالله عمر بن سميط أخبرني بها ، رأىٰ سيدي عمر أنه وسيدي الوالد عند ضريح الفقيه المقدم ، وسيدي الوالد مواجه الفقيه المقدم من قبره ، وخلع علىٰ سيدي الوالد خلعةً خضراء أو صفراء ، وذكر لي سيدي عمر أني لا أعلم بتفسيرها الحقيقي إلا بعد وفاته ، وذلك دليل علىٰ قرب وفاته ، وأنها خلعةُ الآخرة من سيدي الفقيه .

وله أيضاً رؤيا أخرىٰ ، رأىٰ أنه وسيدي الوالد في مسجد آل أبي علويٌ بين السواري كأنَّ أحداً يسقيه ، ويقول : والدكم كالنحل يأكل من جميع الأشجار ويحليه لكم ، وفي هٰذه الزيارة المذكورة سار سيدي الوالد إلىٰ المعلم ، وقال له : هٰذه آخر زيارة إلىٰ (تريم) ، أخبرني بذلك المعلم حين جاء لوفاته للصلاة عليه ، وقال : أما أنا فقد أخبرني والدك بأنها آخر زيارة ، نفعنا الله بهم ، وجعلنا في سلكهم ، ولا شك أن سيدي له اطلاع علىٰ قرب وفاته ، لأنه في السنة التي توفي فيها بل وقبلها ، كتب قول الشيخ : أبناءَ الستين أبناءَ السبعين في دلائله[1] يقرؤه كلَ يوم ، ويقول : ما شي أنفع للإنسان من تحقق قرب الأجل ، فإذا تحقق ذلك زهد في الدنيا وما فيها ، وقد أشار إلىٰ ذلك الإمام الغزالي في علاج حب الدنيا ، الذي لم يدرك العلماء له علاجاً ، حتىٰ قال : (ولعل أن يكون علاجُه قربَ الأجل) ، هٰذا كلامه أو نحوه .

وكان ـ رضي الله عنه ـ مستغرقاً بحب مولاه لم يكن متسِعاً لشيء سواه ، نفىٰ المال والأولاد ، بل كان كلُه لمولاه الجواد ، له أماكنُ

---

(١) أي : في أوراده المكتوبة ومنها الدلائل للجزولي .

يعتادها للتعبد ويتروح بها خارج البلاد ، منها : مكانه المسمىٰ (علي بن بدر) ، ومكانه المسمىٰ (عِبيدان) ، زهد فيهما وتعوض عنهما مكاناً تحت البلاد يسمىٰ (المُسْلُمان)[1] ، عَمَره وخَلَعَه[2] ونماه لمسجد الجد طه ، ويقول : ما عاد لي تروح إلا بالمسلمان ؛ لأنه من أعمال الآخرة ، وقد أزهد[3] خريفَه قبل تنميته سيدي بثلاث أواق ، والآن مئة وثلاثين أوقية ، وكان يخرج إليه بكرة النهار كل يوم ، لأنه يميل إلىٰ الخضرة ويحبها لخفة روحه ، يقول : نفسي يشق عليها الثوب الغليظ .

ولما كان آخر مدرس له في شعبان ، مدرس الخميس المعروف بقبة سيدنا علي بن عبد الله السقاف . . قال في آخر المدرس : من يعود ، ويشير إلىٰ قرب وفاته ، حتىٰ دخل رمضان وسيدي في مكانهم المعروف بـ (القرن)[4] ، فكان يطلع من مسجده ومسجد الجد محمد ، وهو معمور بالقراءة وبقية السادة كلهم بالمكان المعروف لعمارة المسجد المذكور ، فكان يطلع بعد صلاة الظهر إلىٰ البلد إلىٰ مسجد الجد طه ، ويجلس فيه علىٰ عادته ، ويصلي العصر ويجلس للقراءة بعد صلاة العصر ، ويخرج إلىٰ (القرن) ويفطر ، وبعد العشاء يطلع إلىٰ مسجد الجدّ طه لإحياء الليل كِله ، لأنه رتب إحياء الليل كله في آخر وقته في المسجد المذكور ، بتلاوة القرآن إلىٰ أن تطلع الشمس ، وإذا صلىٰ

---

(١) علي بن بدر وعبيدان والمسلمان مواضع في مدينة سيون معروفة .
(٢) أي : غرسه نخلاً .
(٣) أي : ثمنه ، والأوقية عملة نقدية وتساوي الثلاث الأواق ثلاثة أسباع الريال تقريباً .
(٤) وهو من مصائف سيون سابقاً واليوم من أحيائها العامرة كما تقدم .

التراويح وحضر الدعاء.. خرج إلىٰ (القرن) ، وذلك في وقت الصيف .

فٱنظر - أيها السالك - طريق الصالحين ، أن الآخرة ليست بالتماني ، وإنما هي بٱرتكاب المشاق وذبح النفوس ، مع أن ٱجتهاده ذلك وحركاتِه وسكناتِه في عبادة ربه ، وسنُه إذ ذاك إحدىٰ وسبعون سنةً ، فلما مضت من شهر الله[1] عشرة أيام.. جاءه رسول ربه ، ليؤذنه بالانتقال إلىٰ جواره وقربه ، وذلك لما علم من قرب الأجل ، فثار عليه وجع في الجنب الأيمن ، يشبه وجع رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، وذلك وقت طلوع الناس إلىٰ الجمعة ، وبقي ذلك اليوم وهو مشتغل به ، وقال : جاءني النذير ، وأمهلني الله لأكون علىٰ حالة أعظم من هٰذه ، وحصلت ٱلعافية ، ورجع - علىٰ عوائده - إلىٰ البلاد في الطاعة ، لم يقصر من عادته إلىٰ أن أَلِمَ[2] ، وكان الفقير إذ ذاك ساكناً في الخَلا في مكان نجدي البلاد يسمىٰ (بَلْمُرْ) فيخرج إليه سيدي الوالد من الثالث من الأيام يفطر فيه ، ويطلع إلىٰ المسجد ، فلما كان ليلة التاسع والعشرين.. خرج إلىٰ المكان المذكور ، وجلس وٱنبسط علىٰ عادته ، حتىٰ قال لي عند طلوعه : حسن ؛ فقلت : لبيك ، فقال : هٰذا آخر مَنْدَرٍ[3] إلىٰ (بلمر) ، فستر الله علي قرب وفاته ، ولم يقع في الخاطر شيء ، وذلك ستر من الله ببركته ، لأني - والله - لا أقدر علىٰ ذكر فراقه ، بل إذا ذكرتُ أن سيدي نفارقه في الدنيا ، وأنا وحدي في الطريق.. لم أتحامل من شدة العَبْرة ، ومضىٰ رمضان وهو في تعب من

---

(١) أي : رمضان .
(٢) أي : مَرِضَ وتألَّمَ ، والخلا : الريف ، ونجدي البلاد : أي شماليها .
(٣) مندر : أي مجيء .

ذلك الألم ، ولم ينقص من جده وٱجتهاده حرف قلم .

فلما كان الحادي عشر من شهر شوَّالٍ يوم الجمعة ليلة السبت. . جلس للروحة وصلاة المغرب في المسجد والعشا في بيته ، وكانت ٱلقراءة في الروحة تلك الليلةَ في « البخاري » في وفاة النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، وكلما أراد الشيخ محمدُ بنُ محمَّدِ بنِ عبد الولي بارجاء أن يقف. . قال له : ٱقرأ ، حتىٰ خرج من وفاة النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، وكان منبسطاً علىٰ عادته ، ويشير علىٰ الحاضرين بٱنتقاله ، وصلىٰ العشاء في بيته وجلس للمسمر بعد العشاء ، ولم يجىء وقته آخر الليل إلا وهو متنبه ، حتىٰ نادىٰ المنادي آخر الليل لمثار آخر الليل ، فكلمه فلم يلبث قليلاً ، إلا وجاءه النذير ، فطلع لِيَ الرسول إلىٰ بيت والدي المعروف فخرجت إلىٰ عنده ، فوجدته جالساً وهو في ٱنزعاج وتقلقل ، فلم نملك أنفسنا الجميع من البكاء ، فلما رآنا علىٰ غير ثبات ، ورأىٰ الكل في ضجيج. . ٱحتبىٰ وجلس محتبياً ، وقال : أنا بخير ، وأريد أخرج إلىٰ المسجد ليتأهل الجميع ، وهو يقول : هٰذا الموت ، ثم قبل الفجر آخر الليل ، قال : ٱجمعوا بناتي ، وكان أولاده كلهم حاضرين ، فٱجتمعوا كلهم حتىٰ والدتي سمع صوتها خارج الدار ، فقال : خلوها تطلع ، فبقيت الكريمة نور ببيت طٰه بن حسن بعيدةً عنا ، فقال : من بغا الجنة يجي بنور ، فطلعت لها الوالدة ، فلما حضروا أولاده كلهم. . أخذ في الدعاء لهم كل علىٰ قدر حاله ومقامه ، فمن دعائه للأخ عمر : عَمَّرك الله يا عمر ، وذكرت له الأخ محمداً ، فدعا له بالبركة ، وعلوي : أعلاك الله ، وشيخ بن عبد الرحمٰن : شرح الله صدرك ، وأخرج من قلبك الوسواس ، والفقير : حسن الله عاقبتك ، فوالله إن هٰذا الدعاء كنت أتمناه من سيدي وهو في الحياة ،

فجاد الله به عند وفاته ، ودعا لهم الجميع ، هٰذا الذي حفظته ، وكلما نظر إلينا . . سالت عيناه بالدموع من المحبة والتعلق الكلي للجميع .

ثم قال له الأخ عمر : زد ٱدع لي ، فقال بعد أن دعا : خَلُّوني إلْهَىٰ[1] لربي ، فأخذ في الإقبال علىٰ مولاه ، والمواهب والعطايا تتواتر عليه كالغيث الماطر ، فلما حضرت صلاة الصبح . . قام يصلي والملك قد واجهه ، فصلىٰ الصبح وهو قائم ، وصليت أنا خلفه من فضل الله ، وقنت ولم يترك شيئاً من سنن الصلاة ، وبعد الصلاة أخذته عصرة البطن ، فقمت به إلىٰ الميزاب في المربعة نفسها ، ولا تحققت أن شيئاً خرج منه ، فبقي يتوضأ وأنا أعاونه ، حتىٰ أني نسيت مسح الرأس ، ففطن له ومسح رأسه ، ثم بعد وضوئه رجع إلىٰ مكانه مقبلاً علىٰ ربه فاتحاً عينيه ، ناظراً إلىٰ مولاه ، وسمعته يقول ـ حين ٱشتد به الألم ـ : ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ [الأنفال : ١٧] ، وكان آخر كلامه حين قرب نزع روحه : ﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٩] ، وقد قيل : ـ والظاهر أن سيدي أخبرني والأخَ حُسَيْنَ بنَ علوي ـ أن هٰذه الآية آخر ما قالها الحبيب عبد الله الحداد عند نزع روحه ، فكانت هٰذه الآية آخر كلام لسيدي ، ثم خرجت روحه الكريمة قبل أن يخرج وقت الصبح بساعة واحدة يوم السبت ، فٱرتفعت عليه الأصوات بالبكاء ، وٱرتاعت عليه البلاد والعباد ، فلم يبق صغير ولا كبير والنساء والجيران ، وسار الخبر إلىٰ (تريم) فأزعجها وأقلقها ، ولم يبق فيها أحد إلا وأخذوا في البكاء، وٱرتفع[2] الخبر إلىٰ جميع الجهة فمن صارخ وباك، وذلك لأن خلق الله كلهم لهم به تعلق حتىٰ الصغار أبناء

---

(١) إلْهَىٰ : اي أتفرغ لربي .

(٢) أي انتشر وبلغ.

سبع سنين ، وذلك بكرة يوم السبت لإحدىٰ عشرَةَ خلت من شهر شوّالٍ[1] ، فوالله إنها لمصيبة ما وقعنا في مثلها ولا قريباً منها ، وذلك يشبه موت رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم لأنه الموصل إلىٰ الله وإلىٰ الطريقِ إليه .

وإنما أمثالنا فيما وقع لنا من ذلك كمثال الرجل لا يعرف الطريق ، بل كان ضائعاً لا يدري أن يذهب ، وخائفاً علىٰ نفسه من أن تأخذه الأعداء حالاً ومآلاً ، فبينما هو كذلك إذ أخذه شخص جيد ، وقال : أنا معك وخفيرك أعرفك وأوقعك في مأمنك ، فأخذا في الطريق ، فلما وصلا إلىٰ بعضها . . مات ذلك الرجل ، والمسكين لا يعرف أين يذهب والمخاوف والأعداء حوله ، هـٰذا مثالنا في موت سيدي إذ كنا لا نعرف ، ونحن في المخاوف المُهلكة من النفس والشيطان ، والدنيا والهوىٰ ، فلم يزل يهدينا ويسددنا ونسير بضوئه ، حتىٰ ٱختار الله له ما عنده ، وأذن له بقربه ، ومن عنده أدنىٰ عقل . . تكاد روحه تفارق جسده ، وكيف لا يكون كذلك وهو الواسطة بيننا وبين الله ، ولـٰكِنِ الأمر لله ، كما قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [هود : ١٢٣] ، وكما قال لنبيه : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] ، وكما قال سيدنا أبو بكر ـ حين توفي رسول الله صلىٰ الله عليه واله وسلم حين دخل عليه ـ : طِبْتَ حياً وميتاً ، فجزاك الله عن هـٰذه الأمة خيراً ، لو كان البكاء ينفع لبكينا الدم ، ثم خطب علىٰ المنبر ، فقال : أيها الناس ؛ من كان يعبد محمداً . . فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله . . فإن الله حي لا يموت .

---

(١) سنة (١١٩٥هـ) .

ثم بعد ذلك أدركت ٱلخلقَ ٱلعناية ، وفاض عليهم من سره روح الرضىٰ لأن مقامه مقامُ الكُمّل من أهل الله ، ومقامهم مقامُ الرضىٰ ، فأدركهم ٱلرضىٰ والانطراح للحول والقوة ، وذلك ببركته نفعنا الله به ، وٱجتمعت للصلاة عليه الخلق من كل مكان من جهات (حضرموت) الجميع ، ولم يبق أحد إلا إن كان محروماً أو من له عذر ، وٱجتمعت للصلاة عليه جموع لا يُحصي عددَهم إلا الله ، وذلك يومَ الأحد بعد طلوع الشمس ، وكل من حضر ذلك الموقف . . فقد فاز بالغفران ، ومن تخلف من غير عذر . . فقد حظي بالطرد والحِرمان ، والرحمةُ علىٰ ذلك الجمع تفيض ، والناس علىٰ ذلك الرجل في أسف ، وشاع الخبر في كل الأقطار ، وكلٌّ جعل له ختماً غالب الأرض البعيدة ، (الشحر) و(دوعن) و(وادي عمد) وغير ذلك من أرض الله ، وحصل عليه ختم عظيمْ ، وقُبِرَ عند أهله آل طٰه بَخرِيِّهم[1] قليلاً ، لأنه قربَ وفاته لم يذكر إلا كلمتين أدمسونا[2] بين أهلي وٱقضوا دَيني ، ومِنْ رعاية الله له أن دَينَه لم يتحمله أحد ، بل كان من تركته ، وذلك لأن دَينه في محابِّ الله ، فخصه الله أن يكون هو القاضي لدينه ، وقد قال لي يوماً : من فضل الله دَيْني هٰذا ما طلعت شِعِبْ (فُسحة)[3] فيه ، ولا لبست ثوباً ٱشتريته ولا شيء من شهوات الدنيا بل في محاب الله .

وجُعلتْ علىٰ قبره الشريف قبة لوائح النور تلوح عليها ، والقبول

---

(١) بَخرِيِّهم : أي جنوبي ضرائحهم .
(٢) أي : أجعلوا ضريحي بين ضرائحهم .
(٣) هو أن يخرج جماعة متعارفون بقصد النزهة إلىٰ المصيف أو الريف ، أو يطلعوا إلىٰ جبل فيه ماء وظل ويدفع كل واحد منهم حصته في مصاريف تلك الرحلة ويسمى بالفصحى النِهْد .

والفيض الرباني عاكف عليها ، فمن له حاجة . . فليبادر إليه ويعتكف عليه ، يظفر بالمراد ، ويحصل له الإمداد ، وإذا وقع لي أمر . . بادرت إليه ويحصل لي المطلوب ، فهو لا شك بابنا إلىٰ الله ، ووسيلتنا إلىٰ الله .

وقد أخبرني بعض المحبين من أهل الصدق والنور : أني رأيت قبل وفاة الحبيب سقاف بنحو ثلاثين سنة قبةً مبنيةً في هـٰذا المكان ؛ أي : مكان قبره الشريف ، فٱنظر إلىٰ هـٰذه الرؤيا ، وأن القبة بنيت قبل وفاته بهـٰذا الوقت .

وله بعد موته مكاشفات ووقائع عجيبة

منها : أني ذات ليلة بعد وفاته بقليل . . أخذت فراشي لأنام ، فحصلت معي خواطر في شيء من أمور الدنيا ، وطال معي ذلك ، فدخل علي طائر كبير ، فضرب بأجنحته فوق رأسي ضربةً عنيفةً أزعجتني ، فعلمت أن ذلك من قِبَل سيدي زجراً لي عن ٱلخواطر السيئة .

ومنها : أني ليلةً بعد وفاته بقرب ، سَمَرْتُ بالليل في بيت سالم حسان ، فبعد ٱنتهاء السمر خرج عمر بن سالم يودعني ، فلما رجع من خلفي إذا هو بسيدي الوالد في الساحة خارجاً من الدار يسير إلىٰ المسجد ، فتبعه عمر المذكور وأغفله الله عن كون سيدي قد توفي ، فبقي يسير خلفه حتىٰ وصلا إلىٰ المسجد ، ورد الباب علىٰ الرجل المذكور ، ففطن الرجل وٱشتغل بذلك ، وكاد أن يخرس من شدة الخوف ، وآخرَ الليل في تلك الليلة دخل المؤذن ، فوجد المسجد متعطراً من ريح سيدي .

ومنها : أن بعض محبيه وهما عبد الرحمـٰن عُوْضَهْ وسالم بَلْحَق . . طلعا من النخل آخر الليل ، فلما وصلا التربة دخل سالم بلحق إلىٰ قُبّةِ سيدي ، فوجد رجلاً واقفاً علىٰ القبر رجلاه بالأرض ورأسه بالسماء ، لم يكن لرأسه منتهىً علىٰ حِدَّةِ نظر سالم المذكور ، فحصل علىٰ سالم المذكور من ذلك خوف كثير ، فبقي يدفع نفسه حتىٰ خرج من القبة ، وآخر الليل يوجد ريحه علىٰ عادته في بيوته ، شوهد ذلك بالعيان .

وهـٰذه الوقائع من سيدي فيها لنا إعلام بمقامه ، وما هو فيه في البرزخ من النعيم المقيم ، وبعد وفاته كثرت ٱلمرائي ، حتىٰ قَلَّ أحد من أهل الأرض إلا وحصلت له رؤيا ؛ لكثرة الاتصال به والمحبة له .

ومن أعجب ما وقع له : أنه لما مات ولم يدفن بعد ، والقراءة عليه في البيت كانت روحته معمورة ، بل كل مدارسه جلس لها سيدنا الحبيب الحامد نحو ثمانية أيام ، وبعده الأخ عمر ، ولا مدرس ولا مجلس ولا مقام من مقاماته ، وما أسسه في حياته حتى صومَه في عَرْض السَّنة وأورادَه وكلَّ ما كان يعمله في حياته من أعمال الآخرة إلا خلفه فيه أولاده ، ويكون له مثل ثوابه ، وقد جاء في الحديث : « إذا مات ٱبن آدم . . ٱنقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »(١) ، فجُمعَ كُلُّ الثلاث الجميع لسيدي ، فٱنظر في هـٰذه الخواص كيف ٱجتمعت كلها لشخص ، ولـٰكن لله أن يجعل الخير كله لواحد ، لأن مقامه الوراثة المحمدية ، وذلك حقيق فيه ، إذ ما فاته شيء من أخلاقه صلىٰ الله عليه وآله وسلم ولا سنة ،

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم في (الوصية) (١٦٣١) .

وكان يشير إلىٰ نفسه أنه لن يتعدى الستين السنة ، وإنما ذلك إلا لتمام الدعوة[1] .

اللهم . . ٱجعلنا معه في جوارك يا كريم في دار النعيم ، وأهل الدائرة منا ، وأحبابنا ، والمسلمين ، آمين ، وقد أخذ حين ٱبتدأ به الألم في قراءة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [الضحىٰ : ١] في صلاة الصبح والعشاء علىٰ خلاف ترتيبه في الصلاة ، لِمَا علم من أنه راحل إلىٰ ربه ، وٱنظر إلىٰ أثر قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحىٰ : ٤] ، ففيه له ترحيب من ربه المجيب .

وكان يقول بعد أن دعا لأولاده بالدعاء المذكور عند نزع روحه الشريفة ـ وأولاده كلهم مجتمعون ـ وهو يقول : آواكُمُ الله ، نصركم الله ، أعزكم الله ، جمعكم الله ، أيدكم الله ، وقد أخبرت عن ٱلحبيب الحامد : أنه يقول حين أخبر بذلك : إن الولي عند نزع روحه . . ترتفع عنه الحجب ، ويظهر له تحقيق الإجابة ، وسيدي ـ رضي الله عنه ـ في ذلك الوقت تحقق الإجابة من ربه ، فأخذ في الدعاء لأولاده ، وذلك مثل وفاة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم حين جمعهم وأخذ في الدعاء لهم .

اللهم . . أفض علينا من بركته وٱجمعنا به في أشرف منازل جنتك ، والعجب في موته أنه لم يخطر لنا علىٰ بال أنه يتوفىٰ من ذلك الألم ؛ لأنه لم يكن مرضاً مخوفاً ، ولا شك أن ذلك ستر علينا من الله سبحانه وتعالىٰ ، وقد أخبرني سيدي الحبيب عمر بن سميط في سيدي الوالد ، وقال : إن لله عباداً يَشِحُ بهم مولاهم حتىٰ من مرض الموت ، وذلك

---

(١) هكذا في الأصل .

مثل الحبيب أحمد بن زين الحبشي ، كان موته مثل موت سيدي ، وذلك من الله شفقة بهم ومحبة ، وسيدي الوالد حاله لم يحمل شيئاً رضي الله عنهم الجميع .

وحج له محبه ذو الصدق والإخلاص عبد الرحمـٰن جواس ، توفي سيدي حادي عشر شهر شوال ١١٩٥هـ ، ولم ينفذ جواس المذكور إلا بعد ٱثنين وعشرين يوماً في الشهر ، وحَصَّلَ الحجَّ تلك السنة ، مع أن الوقت في غاية من الضيق ، ولـٰكنه ببركته حصل المقصود ، وحج وزار ، وكان يرىٰ سيدي في غالب الليالي ، حتىٰ أنه ليلةً من الليالي رآه يقول له : خذ من الدعاءِ لك ، ٱدع به ، آيات من القرآن المفضلة علىٰ الأدعية ، فلما أصبح . . وجد في السوق إنساناً يعرض أدعيةً من القرآن الذي أخبره ، فأخذه ، وعرف أن ذلك لم يكن رؤيا ، وإنما ذلك يقظة .

وكان سيدي أكثرُ من رآه يراه وهو يرشد ويدعو إلىٰ الله وإلىٰ رسوله ، فكان جميعُ أفعاله حتىٰ الرؤيا في المنام ـ دعوةً إلىٰ الله ، وذلك لِعُظْمِ مقامه ، وحسن معاملاته ، رضي الله عنه ، وجمعنا به في دار كرامته .

وكان إذا أحد رأىٰ سيدي . . رآه في صورة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، وقعت له مرائي كثيرةٌ علىٰ هـٰذا ، وذلك لأنه وارثٌ لأحواله وأفعاله وأقواله ، وقد كتب في جملة أدعيته ـ التي جمعها لنفسه ، وجعلها في مجلد ، وهي أدعية القرآن وأَدعيةُ الصالحين ـ أبياتاً نقلها من العهود ، كان الإمام النووي ليلة توفي يكررها ، وهي :

بَشائرُ قلبي في ٱلقُدومِ عليهِمُ ... ويَا لَسُرورِي يومَ سَيري إليهُمُ
ولـولا رجـائـي فيهُـمُ أَنَّهُـمْ هُـمُ ... لَهُمْ كرمٌ يحمي ٱلوفودَ لَدَيهُمُ

فكان يكرر هٰذه الأبيات كل يوم ؛ لأنه ينتظر البشير ، وهٰذا دليل علىٰ أنه لا يرىٰ له عملاً غير حسن الظن بالله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وبمشائخه العارفين الذين سبقوا إلىٰ الدار الآخرة ، وهٰذا شأن العارفين الكُمّل من أهل الله ، لا يرون لأنفسهم عملاً مع مولاهم ، بل ينتظرون الفضل منه ، وأعمالهم يرونها مدخولةً ، ومن عظيم معرفتهم حسن الظن بالصالحين .

وكان ـ رضي الله عنه ـ أزهد أهل عصره ، ذاماً للدنيا ، هارباً منها ، خائفاً وَجِلاً ، كما ذكرنا أنها أُهْدِيَتْ إليه نحو مئة قرش ، ففرقها في محاب الله ، حتىٰ أخبرني ، فقال : سَكَنْتُ[1] منها ، وطلب منه الذي أتىٰ بها ورقةً بأنها قبضت فأبىٰ ، وقال : ما أُعَوِّد نفسي الكتاب إلا لمن كتب لي ، فقال له : بَيّض وجهي بالقبض لئلا أقعَ في التهمة ، فٱنظر إلىٰ نفي الجاه عنه أنفةً من الدنيا ، وميلاً عنها ، وكان بعد موته حين فتحنا خِزانته . . لم نجد فيها من الدنيا غير نعال شيخه علي بن عبد الله السقاف ، يُقبلها كلَ يوم في حياته ٱعتقاداً في شيخه ، وقياماً بحق المشيخة ، أخذها بعد موت شيخه المذكور ، وكل يوم يدخل الخزانة ويمسح بها وجهه ، ويقول : أنا مثل الشيخ أبي بكر بن عبد الله العيدروس ، فإنه حين مات . . ٱبتدروا منزله وصُندوقه ، وظنوا أن معه شيئاً من الجواهر فوجدوا في صندوقه نعال شيخه سعد يقبلها كلَ يوم ، فالدنيا بعيدة عن أهل الله ، لأنهم حازوا ميراثَ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، لم يترك لأهل بيته إلا العلم والعمل ، كما جاء في

---

(١) أي : استرحت .

الحديث ، وسيدي الوالد ما وجدنا في منزله غير نعال شيخه ، هٰذه أحوال أهل الله ، وأدبهم مع مشايخهم .

فإن أردت الوصول إلىٰ منازلهم ، وتكون معهم في قوله : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ﴾ [الحديد : ٢١] . . فعليك بالنظر إلىٰ أحوالهم وأعمالهم ، واقتف آثارهم ، واجعل جُلَّ جُهدِكَ في صفاء باطنك ـ أعني : قلبك ـ من كل خلق رديء ، فإن القلب ما دام متصفاً بشيء من الأخلاق الرديئة . . فهو محجوب عن الله ، ولا تظهر علىٰ الإنسان أمارات الولاية حتىٰ ينزه القلبَ عن ذلك ، فاجعل هٰذا مقدَّمَ أمرِك ونُصْبَ عينيك ، وبعد ذلك فاجتهد في الأعمال التي ذكرناها في وصف الصالحين وأخلاقهم ومعاملاتهم ، فقد كان سيدي يشرب الماء في وعاء بلور(١) ، يُرىٰ الماءُ من باطنه إلىٰ ظاهره ، وذلك لأجل صفاء قلبه ، فما بعد العلم إلا العمل ، وعن قريب تُشرق عليك الأنوار ، وترىٰ من عجائب ملكوت الله ما تنشرح به ، وتَقَرُّ به عينُك ، وأنت في هٰذه الدنيا ، وتقول بلسان حالك ومقالك ، إذا رأيت الفوز العظيم ، والملك الكبير ﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ [يس : ٢٦ـ٢٧] .

وأما من قَصُر عن أحوالهم . . فلا بد له وأن يتحسرَ ويقولَ : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء : ٧٣] ، فإن كنتَ إلىٰ لقاء الله مشتاقاً ، وإلىٰ نعيم الآخرة مفتاقاً ، وبحزب الله رَفّاقاً . . فنحن نذكر لك ما يُشوِّقُك ويقوي عزمَك ، ويُقلقُك ويُزعجك ، ويَرتاح لذلك قلبك ، فنقول :

---

(١) أي : زجاج وليس المراد هنا الجوهر الثمين .

أعلم أيها الطالبُ لسعادة الأبد ، وأن تحشرَ مع النبيين والصديقين ، وتفوز بما فازوا ، وتظفرَ بما ظفروا ، فتزود بما تزودوا ، فزادُهُم أرشدناك إليه من معاملاتهم ومكابداتهم ، ومجاهداتهم ومقاصدهم ، وزهدهم وورعهم ، وتقواهم وخشيتهم لله ، وخوفهم ورجاهم ، ونياتهم وتوكلهم ، وصدقهم مع ربهم ويقينهم ، وأدبهم وتصحيح أعمالهم وأخلاقهم ، وكرمهم وسخائهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن ٱلمنكر ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ورحمتهم لخلق الله خصوصاً المنكسرةَ قلوبُهم ، وحثهم علىٰ عبادتهم وسعيهم في قضاء حوائجهم ، وكم من الأعمال الموصلة إلىٰ الله التي لا يحصيها إلا الله ، فعليهم رضوانه ورحمته ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] ، فوالله لقد حازوا سعادة الدنيا والآخرة ، أما الدنيا : فٱنظر إلىٰ عزهم وجاههم ، وصولتهم وإعطائهم ٱلخلقَ غيرَ المؤمنين وراءهم ، فصار عبيد الدنيا عبيداً لهم ، كلامُهم دواء ، ونظرُهم عطاء فمن كلموه . . لم يتمالك من شدة الفرح ، وناهيك بعُظْمِ شأنهم أنك تقبل علىٰ قبورهم وتقبّل أثرَ أقدامِهم ، وتسعىٰ إلىٰ قبورهم وأنت مثلُهم ما فارقوك ، إلا بهـٰذه الصفات التي خصهم ٱلله بها ، فلو لم يكن جزاهم في هـٰذه الدنيا إلا الذي تُشاهده بعينك ، وأنت من أهل العزائم والهمم العلية . . لطلبت العزَ بكل ممكن ، وصرفتَ عمرَكَ لهـٰذا العز الفاني ، فكيف والآخرة لهم خالصة ؟

وسنذكر لك ما يشوقك إلىٰ الملك الدائم والنعيم العظيم ، بما وصفه المولىٰ الكريم ، لعلك تشتاقُ وترتاحُ لذلك ، فما الشجاعة غير صبر ساعة .

وعند الصباح يَحْمَدُ القومُ السُرَىٰ ، قال الله سبحانه وتعالىٰ :

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٠-١٦].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٠-٢٢].

وفي الآية الأخرى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣-٧٤].

وفي الآية الأخرى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٦٧-٧٣].

وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٨].

وفي الآية الأخرى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ٨-١٦].

وفي الآية الأخرىٰ بعد أن ذكرهم وذكر وصفهم من قوله تعالىٰ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٥_٧٦] .

وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٤_٥٥] .

فناهيك بهٰذه المنزلة العظيمة ، التي نعيم الدنيا والآخرة لا يوازيها ، وأين الثُّريا من الثَّرىٰ ، يرون ربهم عِياناً ، ويلقون منه رضىً ورضواناً ، فيا لها من مواهبَ جزيلة ، وفوز وغنائمَ جليلة ، فسبحان المعطي عبادَه ما شاء وسبحان المُسهّلِ لأمرٍ برز منه كَسَمِّ الخياط على الجبل ، فأندك الجبل ، وخر موسىٰ كليمُهُ صَعِقاً ، فإذا كان الكليمُ والجبلُ لم يقدرا علىٰ ذلك ، وفي الآخرة يعطىٰ ذلك الأنبياء والعارفون ، ولا شك أنه يتجلىٰ لهم بأسمه اللطيف حتىٰ قدَروا علىٰ ذلك ، فأين المشمرون ، وأين الطالبون : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة : ١٠_١١] .

فوالله ما يتوانىٰ عن ٱلمُلْكِ الدائمِ إلا دنيءُ الهمة ، وأما أهل الهمم العلية والصفاتِ السَنِية : فجَدُّوا إلىٰ مولاهم بمطايا الهمم والعزائم ، حتىٰ وصلوا إليه وتنعموا بقربه ، وغيرهم في لظىٰ النيران ، فسبحان المُقربِ والمُبعد ، وقد ذكرنا ذلك وفيه كفاية لمن أيقظه الله ، وما بعد كلام الله ـ لمن له فهم وبصيرة ـ كلام ، ولٰكنْ كلامُ الله ما يُدرك فهمَه إلا الأقوياء من العلماء الراسخين .

وسنذكر نشيدةً في وصف الجنة وأهلها ، لسيدنا الحسن بن عبد الرحمٰن السقاف ، وكأنه ـ رضي الله عنه ـ اْطلع علىٰ أحوال أهل الجنة ، كذا قيل ، وحث علىٰ التشمير ، ونذكرها تبركاً به ، لأن هٰذه المناقبَ في وصف الصالحين وهو من كبارهم ، قيل : إنه أنشأها وهو اْبن إحدىٰ عشرة سَنَةً ، وقيل : إنه رأىٰ الجنة من طريق الكشف ، فقال رضي الله عنه :

قُلَيْبي انْتشِرْ مِن رُقودِ الفنا ... وتُبْ قبلَ تَنْعِي بكَ الناعيَهْ
وتُلْقَىٰ بخَبْتٍ بعيدِ الطُرُقْ ... سَرَاياهُ ما تعتبر ساعيَهْ
ولا لَهْ مَوارِدْ يَرِدْ مِنَّهَا ... ولا يُحتمَلْ ماهْ في راويهْ
ولا يَعْبُرُهْ غيرْ أهلِ التُّقَى ... رجالَ اخلصوا اعمالَهم بالنِيَهْ
صَوافي البواطنْ صِباحِ الوجوهْ ... قلوبٌ إلى ربها رائيهْ
يبشِّرْهُمُ اْلرَبُّ بالمَغفرهْ ... ورضوانْ في الجَنّةِ العاليهْ
وفيها خِيَمْ رُصِّعَتْ بالذهبْ ... وفيها قُبَبْ واسعهْ عاليهْ
وفيها لهُمْ حورْ غيدٌ حِسَانْ ... وأنهارْ مِنْ تحتِهم جاريهْ
يُرَى المُخ في ساقِها يَنْطِرِدْ ... وأَطْيابْ أعناقِهِنْ ساريهْ
فهذا جزا من عَمِلْ صالحاً ... ومَنْ ماتَ عاصِي فلا لُهْ دِيَهْ

فاْنظر إلىٰ هٰذا الكلام الجامع ، واْنظر إلىٰ وقعه في القلوب التي لها اْشتياق إلىٰ الفوز الكبير ، ورضىٰ رب العالمين ، الذي هو منتهىٰ الطالبين ، وغاية أمل المؤملين ، فيا فوز من أسعده مولاه ، ويا خسارة من خاب مسعاه ، وهٰذا النعيم ما خلقه الله إلا لعباده ، وما طلب منهم إلا العبودية ، فقال تعالىٰ :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٦ـ٥٨] .

وقد ذكر ذلك التنعم سيدنا الحبيب علي بن عبد الله السقافُ ، أمدنا الله من إمدادهم وأسرارهم ، ونفعنا ببركاتهم ، فقال :

اللهَ قُلْ يا صاحِ هٰذا وٱعقدِ ... ثُمَّ ٱستقمْ نحوَ ٱلشريعةِ وٱقصدِ
وٱسلكْ سلوكَ مُشَمِّرٍ ذي توبة ... وَتَخَوُّفٍ وَتَوَكُّلٍ وَتَزَهُّدِ
وترجَّ مِنْ رَوْحِ ٱلإلٰهِ لطائفاً ... فٱشكرْ ولازم ثَمَّ وٱصْبِرْ وٱعبُدِ
وٱلنفسَ رُضْهَا بٱعتزالٍ دائمٍ ... وٱلجوعِ مَعْ سَهَرٍ وذُلٍّ وٱقتدِ
راقبْ وفكّرْ ثم أُذكر دائماً ... وٱلقلبَ نظّفهُ عن ٱلخُلُقِ ٱلرَدِي
وٱلموتَ لا تَنسىٰ وبَعثاً بعدَه ... وٱلحشرَ فٱعلم يا أُخَيَّ وٱعقدِ
وٱلفصلَ في يومٍ عظيمٍ هَولُهُ ... بين ٱلخلائق ثم حَوْضَ ٱلسيّدِ
ثم ٱلمصيرَ إلىٰ لظىً وٱنْكَالِها ... أو جنةٍ مَعْ طُولِ دهرٍ سَرمَدي
فيها ٱلأرائكُ وٱلنَمارقُ صُفِفتْ ... فيها ٱلكَواعبُ وٱلحُلِيْ مِنْ عَسْجَدِ
فيها قِبابُ ٱلدُرِّ تجري تحتَها ... أنهارُ ماءٍ دائمٍ لم يَنفدِ
فيها ٱلفواكهُ وٱلطَرائفُ جُمِّعَتْ ... فيها من ٱلشَّهَوات كلُّ ٱلمَقْصَدِ
فيها حَدائقُ ثُمْرُها مَتشابهٌ ... من عنبٍ نخلٍ وسدرٍ مُخْضَدِ
فيها مِنَ ٱلعَسَلِ ٱلمُصَفّى أنهرٌ ... وٱلخمرُ أنهارٌ لذيذٌ فٱشهدِ
فيها شَبابٌ لم يَشُبْهُ مَهْرَمٌ ... فيها سُرورٌ ليسَ بٱلمُتَنَكِّدِ
سُرُرٌ لَهَمْ مصفوفةٌ من ذَهَبٍ ... فيها وغلمانٌ كَدُرٍّ مائدِ
في كلِّ آنٍ طائفون عليهُمُ ... يَسقونهم مَرّاتٌ لم تَتَعدّدِ
وثيابُهم فيها حريرٌ سُنْدُسٌ ... إستبرقٌ خُضْرٌ ولم تَتَبدّدِ
يُعْطَوْنَ قوةَ عُصبةٍ في أكلِهمْ ... ونكاحِهم فضلاتُهم لم تُوجَدِ
لا مَوْتَ فيها لا ولا خوفٌ بها ... بَلْ طِيبُ عيشٍ رائقٍ في أَرْغَدِ
فيها نعيمٌ لا يُحَدُّ لواصفٍ ... كَلاً ولا يَحْصُرْهُ عَدُّ مُعدِّدِ

فيها لهم نَظَرُ ٱلإلَـٰهِ تكرماً ... وتـرحمـاً وزيـادةً بتـوددِ
يَنْسَوْنَ فيها كُلَّ مَا قد شاهدوا ... من قبلِهِ أكرمْ به من رَائدِ
هـٰذا لِمَنْ بٱلعلم يَعملُ راغباً ... في فضل مولاه ٱلكريمِ ٱلصَمَدِ
هـٰذا لِمَنْ يسعىٰ لطاعةِ ربِّه ... ونَفَىٰ ٱلهوَىٰ عن نفسه بتسددِ
هـٰذا لمن قام ٱلدَياجي خائفاً ... يبكي وصامَ نهارَه بتعدّدِ
هـٰذا لِمَنْ أدىٰ ٱلحقوقَ لربه ... وٱلأقربينَ وجارِه وٱلوالدِ
هـٰذا لمن أعطَىٰ وأخلصَ وٱتقىٰ ... وكفىٰ أذاه ٱلمسلمينَ بِمَقصَدِ
ثم ٱلصلاةُ مع ٱلسلامِ كُلَّما ... هَبَّ ٱلنَسيمُ علىٰ ٱلنبي محمدِ

هـٰذا كلام العارفين شفاء لكل قلب سقيم ، وكلمة واحدة من كلامهم تكفي ، فكيف وهم ـ رضي الله عنهم ـ دلوا علىٰ الطريق ، وصححوها ونقَّوْها عن كل عائق يعوق ، كما رأيتَه في كلامهم : (هـٰذا لمن بٱلعلم..) إلىٰ آخره ، وكما قال سيدنا الحبيب الحسن بن السقاف :

فهـٰذا لِمَنْ قد عَمِلْ صالحاً ... ومَن ماتَ عاصِي فلا لُهْ دِيَهْ

فلقد أجادوا رضي الله عنهم ، وجزاهم عنا خيراً أحسن الجزاء ، وجمعنا بهم في دار كرامته مع أحبابنا . آمين .

هـٰذا ما من الله به علينا من بيان أحوال أهل الله وأخلاقهم ومعاملاتهم ، فرسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم مَظْهَرُ رحمة الله ، وهم ورثته وحاملوا بضاعته ، فما تحمله من طريق ربه فهم متحملوه ، وصاروا ببركته مظهر رحمة الله ، فكم بهم مَنْ وَصَل إلىٰ ربه ، وكم أنقذوا من أمم لا يحصىٰ عددهم . . من النيران ، وكم ببركتهم من أُدخل الجنة ، وصاروا واسطةً بين ربهم وبين عباده ببركة رسول الله صلىٰ الله

عليه وآله وسلم ، وهم نالوا ما نالوا ، وبنوره ونورهم فازوا ، فعليه وعليهم سلام الله في كل آن وحين : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

فإن ظفرتَ بهم . . فلا تَعْدُ عيناك عنهم ، وٱطرحْ نفسَك بساحتهم ، وقَبِّل أقدامهم ، وشُمَّ مآثرَ أقدامِهم ، وتأدبْ بين يديهم ، ونادِ بصوت قلبك حين تراهم ، وقل : أنا الضعيف الحقير ، أنا الهائم الكسير ، أنا الجائع الظمآن ، أنا المتعطش الحيران ، أنا المسكين الضعيف ، أنا الخائف النحيف ، عُبَيدُكم ببابِكُم ، فقيركم ببابكم ، فعسىٰ أن يرقوا لك ويرحموك ، فإن جاد الله لك بذلك . . فهنيئاً لك بما ظفرتَ ، فوالله لقد طاب مسعاك ، وظفرتَ بمناك ، ويقال لك :

بَشِّرْ فؤادَكَ بٱلنصيبِ ٱلوافِي من قربِ ربِك واسعِ ٱلألطافِ

فعليك بالانكسار والتواضع ، فإن الرحمة[1] الظاهرة لا تطلع العالي ، فكذا المواهب والمِنَح والعطايا ، كما قال بعض الصوفية :

وادي ٱلْمَحَبَّـهْ سَـالْ وٱلنـاسْ فـي وادي
ولا قَـدَرْ يَنْجـالْ إلا علـىٰ ٱلهـادي

وٱتَّصفْ بهٰذه الدرة العظيمة من كلام الشيخ أبي مدين ، لأنه حررها في الصحبة مع الصوفية ، فتكفي المتعطشَ لأحوالهم إن وُفِّقَ للعمل بما فيها ، فما أكمل معانيَها وما أوقعها في القلب ، وهي هٰذه :

ما لذةُ ٱلعيشِ إلا صحبةُ ٱلفُقَرا هم ٱلسَلاطينُ وٱلساداتُ وٱلأُمرا

---

(١) المراد بها هنا السيل ، ومن أمثالهم الشعبية (السيل يتبع الوطا) .

فَاصْحَبْهُمْ وتأدّبْ في مَجالِسِهِمْ ... وخَلِّ حظّك مَهْمَا قدّموكَ ورا
وَٱستغنمِ ٱلوقتَ وٱحضر دائماً مَعَهُمْ ... وٱعلمْ بأن ٱلرضا يُحصَىٰ لمن حضرا
ولازِمِ ٱلصَّمْتَ إلا إن سُئِلتَ فقلْ: ... لا علمَ عندي وكُنْ بٱلجهل مُستترا
ولا ترىٰ ٱلغيرَ إلا فيك معتقداً ... عيباً بدا بيّناً لٰكنه ٱستترا
وحُطَّ رأسَك وٱستغفر بلا سبب ... وقُمْ علىٰ قَدَم ٱلإنصاف معتذرًا
وإن بدا منكَ عَيبٌ فٱعترفْ وأَقِمْ ... وجهَ ٱعتذارِك فيك منك حين يُرىٰ
وقُلْ عُبَيْدُكُمُ أولىٰ بصفحِكُمُ ... فسامحوا وخذوا بٱلرِفق يا فقرا
هُمْ للتفضل أولىٰ وهو شيمتُهم ... فلا تَخَفْ دَرَكاً[1] منهم ولا ضررا
وبالتَفَتّي[2] علىٰ ٱلإخوان جُد أبداً ... حِسّاً وَمَعْنَىً وغُضَّ ٱلطرفَ إن عَثَرا
وراقبِ ٱلشيخَ في أفعالِهِ فعسىٰ ... يَرَىٰ عليك من ٱستحسانِه أثَرا
وقَدِّمِ ٱلجِدَّ وٱنهضْ عند خدمتِه ... عساه يَرضىٰ وحاذرْ أَنْ تكنْ[3] ضَجِرا
ففي رضاهُ رضىٰ ٱلباري وطاعتُهُ ... يَرضىٰ عليك فكنْ من تركِها حَذِرا
وٱعلمْ بأن طريقَ ٱلقومِ دارسةٌ[4] ... وحالُ من يَدّعيها ٱليومَ كيف ترىٰ
متىٰ أراهمْ وأنّىٰ لي برؤيتِهم ... أو تسمعُ ٱلأُذنُ مِنّي عنهمُ خَبَرا
مَنْ لي وأَنّىٰ لمثلي أَنْ يزاحمَهم ... علىٰ مواردَ لم أَلقَىٰ بها كَدَرا

---

(١) اقتباس من آية ﴿لا تخاف دركاً ولا تخشىٰ﴾ .

(٢) التَفَتّي : مصدر تَفَتّى من الفتوة وهي الكرم.

(٣) أصله : أنْ تكونَ فحذفت الواو وسكنت النون لضرورة الشعر . قال النحاة : وبعضهم ـ أي العرب ـ جزم بـ : (أن) واستشهدوا له بقول الشاعر :

إذا ما غدونا قال وِلدانُ أهلنا ... تعالَوا إلى أن يأتنا الصيدُ نَحطبِ

الشاهد في أن يأتنا حيث حذفت ياؤه للجزم بأن .

(٤) أي : مندرسة.

وأنا أستغفر الله مما تجاسرتُ عليه من كلام أهل الله والاهتداء إليه ، وذكر الصوفية وأحوالهم ، مع أن ذنوبي لا توازيها الجبال الرواسي ، وذنوبي تملأ البر والبحر ، مع أني خلي عن أوصافهم ، بل ما رأيت خصلةً واحدةً اتصفتُ بها ، وكما قال سيدنا الإمام جعفر بن أحمد بن زين الحبشيُّ : (فمن هو في السِنْداس[١] . . ما له أن يكون مع الناس) ، فهٰذه الكلمة وقعت في قلبي موقعاً عظيماً ، وتحققت أنها لي ، وحالي حال من هو في السنداس ، ولٰكن وقع بقلبي أني أنشر محاسنَهم لنفسي ، ولمن ضيع أوقاتَه مثلي ، كما قال سيدنا الإمام عبد الله بن علوي الحدَّادُ :

تَفيضُ عيوني بٱلدموع ٱلسواكبِ وما لِيَ لا أَبكي علىٰ خير ذاهبِ
علىٰ ٱلعمر إذ وَلّىٰ وحانَ ٱنقضاؤُه بـآمـالِ مَغـرورٍ وأعمـالِ نـاكـبِ

حتىٰ قال في آخرها :

ولو أنني أبكي ٱلدموعَ وبعدها ٱلـ ـدماءَ علىٰ ما فاتني يا مُعاتبي
لكان قليلاً في كثير وما عسىٰ يَرُدُ ٱلْبُكَا من ذاهبٍ غيرِ آيب

وهٰذه النشيدة لها وقع في القلوب ، لأنه ـ رضي الله عنه ـ أيقظ أهل الهمم العلية ، وقد أُنشدت بين يديه ـ رضي الله عنه ـ وٱنتحب ٱنتحاباً عظيماً ، فلما أفاق . . قال : هٰذا كلام مَنْ ؟ فقال له المنشد : هٰذا كلامكم ، فقال له : سيجتمع عليك أهل البرزخ وتنشدُهم بها ، فلما توفي رآه بعض أهل النور أنه ٱجتمع عليه أهل البرزخ وأنشد بها ، ذكر لي ذلك سيدي الإمام عمر بن سميط ، فصار جمعي لهٰذه المناقب لما

---

(١) السنداس : الحضيض .

ذكرته ، ومحبةً لهم وتثبيتاً لقلبي ، وعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ، فعسىٰ بحبي لهم وتذكرهم.. تغمرنا الرحمة التي أفاضها عليهم مولاهم ، فهم القوم الذين لا يشقىٰ بهم جليسهم ، أو كما قال القائل :

أُحِبُّ ٱلصالحينَ ولستُ منهمْ لعلّي أن أنالَ بهمْ شفاعه
وأُبغِضُ من بِضاعتُه ٱلمعاصي وإن كنّا سواءً في ٱلبِضاعه

ولقد رد علىٰ هٰذا القائل غيره ، فقال :

تُحبُّ ٱلصالحين وأنتَ منهم مُحبُّ ٱلقومِ يُحشَرُ في ٱلجماعه
وتُبغضُ من بضاعتُه ٱلمعاصي حَماكَ ٱللهُ مِن تلك ٱلبِضاعه

وهٰذا رجاؤنا في الله فإنا بحبله معتصمون وبساحته واقفون .

لم أزَلْ بٱلبابِ واقفْ فٱرحمنْ ربي وُقوفي
وبوادي ٱلفضلِ عاكفْ فأَدِمْ ربي عُكوفي
ولحُسْنِ ٱلظنِ لازمْ وَهْوَ خِلّي وحَليفي
وأنيسي وجليسي طولَ ليلي ونَهاري

ولا معنا زاد للآخرة إلا الرجاء في الله وحسن الظن به ، فإنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، وكما قال الشيخ عمر :

وَلاَ عُدَدُنا وعُدَّتُنا لقُوّةِ البَاسْ واكْثارَه
إلا انتظارَ الرجا مِنَّكْ فلا عُدِمْ مِنَّنا انْظَارَه
وحسبُنا آنْ صَحَّ ذامِنَّا هذا حِمَى بَخِتْ مَن زارَه

* * *

خاتمة

خاتمة

ونذكر من أدعية القرآن المتضمنة للرجاء في الله ما يكون خاتمةَ هٰذه المناقب ، ليكون ـ إن شاء الله ـ خاتمةَ أمري ، وٱعتذاراً إليه سبحانه وتعالىٰ مما ٱرتكبناه ، وكلُ ناظرٍ في هٰذه المناقب إذا وصل إلىٰ هٰذه الأدعية . . فليذكرْني .

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٤٠-٤١] .

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

[البقرة : ٢٠١] .

﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

[الأعراف : ١٥١] .

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

[النساء : ١١٠] .

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] .

وأنا أستغفر الله مما اكتسبتُهُ من الأوزار ، ومن الذنوب الكبار ، فإن ذنوبي تملأ البراري والبحار ، ولولا ظني في الله . . لأيقنت أني من أهل النار ، وإنما رحمته وسعت كل شيء ، وعفوه شامل .

اللهم . . مغفرتك أوسع من ذنوبنا ، ورحمتك أرجىٰ لنا من أعمالنا ، وكما قال الشيخ أبو بكر العدني :

إذا لم تَجُدْ يا وسيعَ العطا ... فَمَنْ ذا لأهلِ الخطا المُذْنبينْ
خزائنَك بَالجُود[1] لا تنتهي ... لكثرةْ عطاياكْ للسائلينْ

---

(١) أي يا ذا الجود .

وكما قال سيدي الوالد في آخر وصيته :

يا غافرَ الذنب اغفر ذنوبنا يا ساتر العيوب استر عيوبنا يا الله ما لنا غيرُك ولا غيرُ بابِك باب .

وإذا لم تقبل إلا المخلصين . . فمن للمخلطين ، وإذا لم تغفر إلا للقائمين . . فمن للمقصرين ، ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

رزقنا الله وأولادنا ومن شملته الدائرةُ منا . . التوبةَ الصادقة ، وأنقذنا وإياهم من الذنوب المغرقة ، بجاه النبي المختار ، وآله وصحبه الأطهار ، وبجاههم تمحىٰ الذنوب والأوزار ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠ـ١٨٢] .

* * *

انتهى كتاب محاسن الأوصاف

ويليه

١ـ وصية من المؤلف لبعض محبيه

٢ـ وقصيدة مديحة في صاحب المناقب

من نظم المؤلف

* * *

[illegible]

وصيّة

الحبيب حسن بن سقّاف السقّاف

لبعض محبّيه

هٰذه الوصية الجامعة النافعة من الحبيب حسن بن سقاف لبعض محبيه ، ولكل من وفقه الله للعمل بها :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الصف : ١٣] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح : ١-٤] .

الحمد لله كافي من توكل عليه ، ومعينِ من فوض أمره إليه ، والمتكفّلِ بمن طَرَحَ حولَه وقوتَه لديه ، وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمد أفضلِ الأولين والآخِرين ، وآله وصحبه ، والتابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين .

أما بعد : فقد ألح علي بعض أهل المحبة والمودة في الله ، أن أنقل من كلام العارفين وسير الأولين ما تيسر ، وإن لم أكن أهلاً لنقل كلامهم ، مع أني ـ والله ـ لم أعلم علىٰ وجه الأرض أَخَسَّ مني ، وكيف لا يكون ذلك وقد ضاع وقتي في البطالات والرسوم والعادات ؟ فآهٍ علىٰ من كان مثلي والعمر قد مضىٰ ، ولم يبق معي إلا الرجاء ، فلولاه لتقطعت الأكباد ، وتحققت أني من أهل الغي والفساد ، ولٰكنَّ راجيَ اللهِ ما يَخيب ، وعسىٰ يحصل ما قاله الشيخ عمر بامخرمه : (يا الله بِشيْ بَلاَ شِيْ) .

فأول كلام أهل الله الذين فهموا عن الله أن أول قدم لسالك طريق الآخرة . التوبة الخلصاء ، أولها الندم ، والعزم علىٰ أن لا يعود إلىٰ الذنوب صغائرها وكبائرها ، وهي ـ أي : الكبائر ـ سبعةَ عشرَ ، ينبغي أن تُحفظَ وتُجعلَ نُصْبَ العينين ، وآستحلال من عاملتَه أو واكلتَه سِيَما أهلك وخدمك ، فإنك ما تخلو من تقصير في جانبهم ، وهم أحق بهـٰذا وأقدم ، ثم بعد ذلك تعامل ربَك في الفقراء والمساكينِ سِيَما أهلِ الصلاح ، وتغمر قلوبهم بالعطا والرضىٰ ، وتوصيهم بالدعاء لك ، فإنك إن فعلتَ هـٰذا . كنتَ محفوظاً بهم ، ويحصل لك المطلوب ببركتهم ، فإن دعاهم مقبول ، وهم معك ، ودعاهم واصل إليك .

وبعد ذلك صحح نيتك بالصدق والإخلاص ، وتنوي الخيرَ كلَه فالنية خيرٌ من العمل ، والثقة به ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لا بغيره من الأسباب ، ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨ـ ٧٩] ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء : ٨١ـ٨٣] .

فإن كنت مسافراً . فأول ما يلزمُك الرفيقُ الصالحُ الذي يُذكّرك ربَك ويحفظُك في سره وعلانيته قال العارفون الرفيق الصالح كأخ الرضاع، وتواظبُ علىٰ أورادك خصوصاً حزبَ الإمام النووي ، فقد نُقل عن بعض الصالحين : أن قارئه محفوظ ، حتىٰ عن أهل الأحوال أهل التصريف ، وكذا حزب البحر ، وتنوي في قوله : (البحر) كلَ ما شق عليك من أمر الآخرة والدنيا ، فهو بحر ، وكذلك حزب الحبيب سقاف ، فهو زبدة حزب الحبيب علي والحبيب عبد الله ، وكذلك الأوراد المعروفة المشهورة الخمس مئة ، التي في ورد الحبيب علي ، وكذا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي

العظيم ، العزيز الحكيم ، فإنها عن الشيخ عمر بامخرمه ، وهي من أَجَلِّ أوراده ، ويَذكر أنها تَدفَعُ جميعَ المصائب ، وكذا : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ، فإنها بنص القرآن ، و : يا لطيف ، يا كافي ، عن سيدنا الحبيب سقاف ، وأنها لآخر الزمان ، هٰذا قوله ، و : سبحان الله وبحمده مئة مرة ، و : يا لطيف مئة مرة ، و : يا حفيظ مئة مرة ، و : يا كريم مئة مرة ، وبعدها : يا كريم ؛ تكرم علينا بكرمك في الدنيا والآخرة ، يا لطيف ؛ الطفنا بلطفك ، يا حفيظ ؛ احفظنا بحفظك ، ثلاثاً هٰذه الكلمات ، والصلاة علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ما أمكن ، فإن هٰذه الأورادَ ، عليها المدار الكبير ، وفيها من الفوائد ما لا يُعَدُّ ولا يُحصىٰ ، بل فتوح جملة من الصالحين فيها مثل الشيخ عمر بامخرمه ، فتح الله عليه في : سبحان الله وبحمده ، ويا لطيف ، ويا حفيظ ، ويا كريم ، التي ذكرناها ، أمره بها الشيخ عبد الرحمٰن ، وقال له : يُفتحُ عليك فيها ، ففُتِحَ عليه .

والحذرَ الحذرَ من الغفلة ، وعليك بقراءة القرآن خصوصاً حزبَ بين العشاءين ، وكذا حزب بعد صلاة الصبح ، وكذا راتب الحبيب عبد الله بعد صلاة العشاء ، ولا تَترك قيام آخر الليل فإن فيه الإكسيرَ الأكبر ، فهٰذه مواسم الخير لا يتركها إلا صاحب غفلة ، وكذا الصلوات أوائل الأوقات مع الجماعات ، والأذان برفع الصوت لاسيما في الخلوات مع الحضور ، وكذا الرواتب المؤكدة التي تفعلها في إقامتك ، وإن اتفق لك في ليلك أو نهارك ساعةٌ تتفكر فيها ما فَرَطَ في يومك وفي آلاء الله سبحانه وتعالىٰ . فلا تترك بحسب الطاقة ، وكذا ذَكِّرْ من وافقتَه وناصحه في الله ، وذكره الدار الآخرة خصوصاً أهل الغفلة ، فإنك معاتَبٌ علىٰ ذلك ؛ لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر

النعم ، وزهدهم في الدنيا التي هي - في هـٰذا الزمان - معبودة كالأصنام ، مع أنها ما بلغ أحد منها مرادَهُ ، أذاقتهم الموت قبل الموت ، السلطان فيها مثل السارق ، لا ينام فيها إلا بالحرس ، وقلبه محشو من الأفكار ، وهو كالخادم لغيره ، وكل من خلا عنها . . فهو في راحة وسرور ، وأمن وأمان ، ومع ذلك فهو خفيف في الآخرة ، كما قال بعض العارفين : فاز المخفُّون ثلاثَ مرات .

فأول عقبة في طريق الآخرة بعد التوبة التي ذكرناها قلع حب الدنيا من القلب ، فركعة من زاهدٍ في الدنيا . . خير من ألف ركعة ممن قلبه محشو منها ، وكذا باقي الأعمال ولا لنا ميل عن نهج رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، إذ عرضت له بطحاءُ مكة ذهباً ، فأبىٰ منها ، وقال : أجوع يوماً فأحمد ربي ، وأشبع يوماً فأشكر ربي ، والسم القاتل فيها المحبة لها لذاتها ، أما ما يقرب إلىٰ الله والدار الآخرة منها : فهو محمود ، ولـٰكن ذلك لمن عرف الداء من الدواء ، فوضعها في مواضعها . وأما من لا يعرفُ : فهو يخبط خبط عشواء يظن في نفسه أنه علىٰ خير وهو في جهله وعماه ، فأهل الخير هم الذين بذلوا الدنيا للآخرة ، وعلموا يقيناً أن أعظم الطريق إلىٰ الله . . المعرفة ، ولـٰكنها لأهلها .

وأما أمثالنا : فأعظمها هـٰذه الصدقاتُ التي تقع في مواقعها ، تكون لأهل الضعف والمسكنة المحتاجين الفقراء المساكين ، أهل الصيانة والديانة والرصانة ، الذين قال فيهم سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة : ٢٧٣] ، ويكفي في وصف الصدقة قوله سبحانه

وتعالىٰ : ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [البقرة : ٢٦١] ، هٰذه الصدقة التي تقع في هٰؤلاء المؤمنين ، الذين ما لهم معزة ولا جاه ، بل حظهم الضعف والمسكنة في الدنيا ، وأما في الآخرة : فهم أهل الصولة والملك الباقي ، والناس الذين كانوا في الدنيا يشار إليهم بالأصابع كالعبيد عندهم ، ويقال لهم : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ الآية [الأحقاف : ٢٠] ، وأما هٰؤلاء المؤمنون : فهم في خير وحبور ونور وسرور ، فعليهم صلوات الله ورحمته ، فقد صبروا علىٰ هوان الدنيا .

اللهم . . اجعل لنا في قلوبهم المحبة والمودة ، ولا تحرمنا محبتهم ، فعليك ـ أيها الطالبُ ـ التقربَ إلىٰ الله بهم وبحبهم وودهم ، فإن كنتَ كذلك . . فلا تَخَفْ ريبَ الزمان وحوادثَه ، فإنك محفوظ بهم ، والعناية والرعاية تلاحظك ببركتهم ودعواتهم .

فقد نُقل عن بعض الصالحين : أن إنساناً عزم علىٰ حج بيت الله الحرام ، فلما كان في بعض الطرق . . رأىٰ امرأةً تأكل الميتة ، فقالت له : امض في حاجتك وطريقك . فحكَّ[١] عليها في أمرها ، فقالت له : لي من القوت ثلاثة أيام ، فحلت لي الميتة ، فنظر في نفسه ، وقال لنفسه : إن أَردْتِ الصيتَ والخبر . . فالحج وإن أردتِ رضىٰ الله فالحج هٰذه المرأةُ[٢] ، فقهر نفسه علىٰ إعطاء ما معه هٰذه المرأة ، وترك الحج ، فلما وقع الوقوف بعرفة . . رآه في الحج كل من يعرفه ، وهنأه

(١) فالح عليها .
(٢) أي : فالحج إعطاء هذه المرأة.

بالحج كل من حج ، فَعَلِمَ أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بكرمه جعل روحه حضرت بسبب رحمته لهٰذه المرأة المسكينة .

وكذا روي أن بعض الملوك يقال له : (أَسَا) ، كان يحب المساكين ويَوَدُّهُم ، حصره بعض الملوك ، فلما طال عليه ذلك . . دخل مصلاه ودعا ربه ، فلما أخذته عيناه . . رأىٰ رب العزة ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يقول له : يا (أسا) لا تخف ، فلو كادتْك السمٰوات والأرض . . جعلتُ لك من ذلك مخرجاً ، كنتَ تذكرني في الرخاء وأنساك في الشدة ؟ حاشا جودي وكرمي ، أنا أكرم الأكرمين .

وقصة نبي الله يعقوب عليه السلام : وهو ما روي أنه ذات يوم من الأيام شوىٰ شاةً هو وأولاده ، وكان تحت بابه مسكين مؤمن ، فحصلت منهم الغفلة لذلك المسكين ، فراح وهو مكسور القلب ، ففرق الله بين نبي الله يعقوب وبين ولده يوسف أربعين سنة ، وعميت عيناه من الحزن وهو كظيم ، فلما آنَ له الاجتماع بولده . . قال له الحق ـ سبحانه وتعالىٰ ـ : عرفتَ يا يعقوبُ بِمَ فرقتُ بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال : لا يا رب ، قال : له : بسبب المسكين الذي وقف ببابكم ، اْذبح شاةً وآجمع عليها المساكين ، ففعل ذلك ، فجمع الله بينه وبين ابنه يوسف .

فهٰذه الحكايات المشهورة عن الأولياء تقوي إيمان العبد ، وتزرع في قلبه محبة المؤمنين ، وأدل دليل علىٰ إيمان العبد . . محبة الصالحين المؤمنين ، خصوصاً المستضعفين ، الذين قامت بهم الحدود ، وصاروا في زماننا هٰذا كالغرباء ، وأعظم دليل علىٰ بعد العبد . . عدم محبته للمؤمنين ، فمن أحب المؤمنين الصالحين أحب اللهَ ورسولَه ، ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

أحبُّ ٱلصالحين ولستُ منهم لعلي أن أنالَ بهم شفاعه
وأبغِضُ من بضاعته ٱلمعاصي وإن كنا سواءً في ٱلبضاعه

فهٰذه الحكايات غير خافية علىٰ أهل النور والبصيرة ، ولٰكن ذكرناها لعل من يسمعها من أهل الغفلة وقلبه غيرُ قاس فيلين بها قلبه ويرحم المؤمنين ، فمن في قلبه نصيب من الرحمة . . فهو في عين السعادة ، وقد أُعطي حظاً وافراً من ربه ، أرحمِ الراحمينَ ، أرحم من في الأرض . . يرحمك من في السماء ، وصاحب القلب القاسي في عين البعد ، كما قال صاحب « الزبد » :

وإن مِـنْ أَبْعَـدِ قلـوبِ ٱلنـاسِ مـن رَبِّنـا ٱلـرحيـمِ قلـبٌ قـاسـي

الله يجعلنا من أهل الرحمة ، ولا يجعلنا من أهل الطرد والقسوة بمنه وكرمه .

وعليك بقراءة العلم النافع ، تجعلُ له وقتاً أو وقتين ، خصوصاً قراءة كتاب « إيضاح أسرار علوم المقربين » ، فإن فيه فصولاً ما أنفع لطالب الآخرة منها ، فمنهن فصل الاستقامة قد نقله سيدنا الحبيب علي بن عبد الله ، وفصل في فضل الصدقة وغير ذلك ، و« الحديقة الأنيقة » للشيخ بحرق ، وكذلك « الحِلية » سيما آخرها ، و« شرح الحكم » لابن عباد ، وكذا ديوان الشيخ عمر بامخرمه ، لا يُترَكُ ، فلا شيءَ أنفع من كتب أهل الله ، فإنها للقلوب كالمرآة ، وكل مجلس يحتاج تفقداً تقرأ للعوام ما يلين قلوبهم ويشوقهم إلىٰ الجنة .

والدعوة إلىٰ الله واجبة ، ولا شيء يقاربُها في الفضل ، كيف وتفريح قلب المؤمن من أعظم الفضائل ، فإذا كان تفريحِ قلبه في دنيا ما تزن عند الله جناح بعوضة ، فكيف بمن هديتَهُ إلىٰ دار الآخرة ؟ فشتّان

بين مشرق ومغرب ، ولا تَقُلْ : لستُ بأهل ، فَعَلِّمْ ما تعرفه وقدك[1] عالم بنفسك ، وكُنْ كما قال سيدنا الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ : (خذ من علومي ولا تسأل على عملي) ، حتىٰ قال في آخرها : (اجن الثمارَ وخل العودَ للنار) ، وكذا الزكاة المفروضة ذكر بها ، فإنها من أعظم أركان الإسلام ، ولا يقوم الإسلام إلا بها ، فاللص والسارق هم خيرٌ مِمَّنْ يمنع المساكين . ترجو الأمن عليه من سوء الخاتمة ؛ لأن السارق والظالم أخذ مال تاجر ، ومانع الزكاة أخذ حق المجاويع[2] والكسحان والعُورانِ ، انظر الفرق بين هٰؤلاء وهٰؤلاء ، وكلهم في أخس حال ، أولـٰئك الذين قال فيهم سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة : ٣٤ـ٣٥] ، والسر في الزكاة إخراجُ رذيلة البخل والاتِّصافُ بالكرم ، والجودُ والكرمُ الأصلُ فيه الرحمة ، فالكريم قلبه ملآنٌ من الرحمة ، والرحمة ما تقع إلا من الرحمة ، أقيلوا عثرته ، فإن الله آخذ بيده كلما عثر[3] ، ولسنا نطول ويكفي في وصفه أن الخير كلَه اجتمع في الكرم ، ولـٰكنه يحتاج إلىٰ بصيرة ثاقبة ، فالناس أجناس لا يكن مأكولاً إلا فيما يقرب إلىٰ الله ، إن وقع في الشوك . . حصل لك من ثمره ما يؤذيك ، وإن وقع في نخلة . . جنيت ثمرها ، هـٰكذا الناس[4] .

---

(١) أي : وأنت عالم .

(٢) أي : الجياع والضعفاء والمصابين .

(٣) أي الكريم وهذا اقتباس من حديث أقيلوا السخي الخ . أخرجه الخرائطي .

(٤) هكذا جاءت هذه العبارة في الأصل .

فعليك بالمؤمنين ، وٱحذر ٱلغافلين ، والحب في الله ، والبغض في الله من الإيمان ، وكذا ذكر الصوم ، والأصل فيه ـ لمن عرفه ـ الصبر ، وإن ٱتفق الحج . . فهو النعمة العظمىٰ ، والعطية الكبرىٰ ، والسر في التعبد المحض وأعظمه الوقوف بعرفة ، فقد نقل أن أعظم الذنوب عند الله أن يقف الرجل بجبل عرفة ويظنَ أن الله لا يغفر له ، فإن قدر الله ذلك لمن سبقت له من الله السابقة الحسنىٰ . . فعليه بالرجاء الجميل ، وليثق بالله ، ويعلمْ ويتحققْ أن الله معطيه ما طلبه ، وليخص أهلَه وكلَ من له في قلبه محبة ، فإن الرحمة تغمر الجميع ، فاللهَ اللهَ في الدعاء ، وبذلِ الجُهد ، ولا علىٰ الإنسان إلا الافتقار المحض ، والرجاء الخالص ، فهناك يقول : المتخلف عنهم : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء : ٧٣] .

فهنيئاً لمن أعطاه مولاه وجاد له بما رجاه ، وكذا عند ضريح رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، فعليك بما ذكرناه فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وهٰذه المواسم هي ثمرة النيات والطويات ، ﴿ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٠] ، فإن جاد لك مولاك وأعطاك بغيتك ومناك . . فعليك بكل ما يقربك إلىٰ الله ، فإن الطرق إلىٰ الله أكثر من أنفاس الخلق ، وٱصبر فإن الدنيا قريبة ، كما قيل : الشجاعة صبر ساعة ، والدنيا حقيقتها ساعة ، فطوبىٰ ثم طوبىٰ لمن آثر الآخرةَ علىٰ الدنيا .

وكذا لا بد لكل طالب طريقَ الآخرة أن يتصف بالتوكل ، سيما المسافر ؛ لأنه لا بد له في جميع أحواله من التوكل ، قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] ؛ أي : كافيه ، ومن التوكل استيداع أولادك تستودعهم ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وتطرحهم

تحت بابه ، حتىٰ يتولىٰ أمرك وأمرهم ، ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، والتوكل الثقة بالله سبحانه وتعالىٰ ، فإذا كان التوكل في قلبك . . فأنت بيد الله ؛ أي يده الخاصة ، وكذا الصدق مع الله ، فمن صدق مع الله في أقواله وأفعاله وأموره كلها . . وَرَّثَه الله الحكمةَ ، وفي الصدق أمور : **منها** : صلاح القلب ، **ومنها** : ما دخل صاحبُ الصدق في شيء إلا صلح ؛ لأن الصدق ـ علىٰ ما قيل ـ سيف الله في أرضه .

هـٰذا ما تيسر ونستغفر الله مما تعرضنا فيه من التحريف في كلام أهل الله ، مع أني أعرف من نفسي أني خالٍ عما ذكرته ، وحالي ما قاله الشاعر :

يظـنُ ٱلنـاسُ بـي خيـراً وإنـي لشـرُّ ٱلنـاس إن لـم تَعْـفُ عنـي

اللهم . . كما سترتنا في الدنيا . . فاسترنا في الآخرة ، وارزقنا التوبة الخالصة ، وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمد ، وبجاهه تُمحىٰ الذنوب والأوزار ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

قصيدة مديحة

في صاحب المناقب

من نظم مؤلف المناقب

وهـٰذه القصيدة لسيدنا الشيخ الإمام الحسن بن سيدنا الشيخ سقافِ بن محمد الصافي باعلوي ، نفع الله بهما في الدارين . آمين ، وهي :

لك ٱلحمدُ يا مستوجبَ ٱلحمدِ دائماً ... علىٰ كل حال ليس يحصر بٱلعدِّ
وأشكـرُهُ شكـراً علـىٰ كـل نعمـة ... تباركتَ يا ذا ٱلفضلِ وٱلطَولِ وٱلمجدِ
فسبحانَ ربي مِن إلـٰه وخالق ... تنـزه عـن مثـل وشِبْـه وعـن نِـدِّ
وعن كل قول ليس من شأنِ حقِّه ... فَجَلَّ تعالىٰ ٱللهُ عن قول ذي جَحد
أيا واسعَ ٱلإفضال مِن شأنك ٱلرضا ... فَجُدْ لي بفضل منك يا واسعَ ٱلمَدِّ
أنا عبدُك ٱلجاني علىٰ ٱلباب واقف ... أُمَرِّغُ بٱلأعتاب وجهي مع ٱلخد
وقصدي وسؤلي منك يا سيدي ٱلرضا ... فأنت ٱلذي بٱلخير يا أملي تُسدي
وإنـي إليـك سيـدي متـوسـلٌ ... بجاه رسولِ ٱلله ٱلمصطفىٰ جَدي
كذا سيدُ ٱلساداتِ شيخٌ معظمٌ ... وحيدٌ فريدُ ٱلوقتِ يا لكَ من فرد
إمـامٌ هُمـامٌ حـاز كـلَّ فضيلـة ... وأيـده مـولاه بـٱلنصـر وٱلسعـد
هـو ٱلعـالـمُ ٱلأوّابُ فـردُ زمـانِـه ... فضائله ليستْ تُعَدُّ لذي ٱلعد
وأوصـافـه حِلـمٌ وعفـوٌ ورحمـة ... صبور شكور في ٱلرخاء وفي ٱلشَّد
يُحب ٱليتامىٰ وٱلمساكينَ جملةً ... وكلَّ فقير خاليَ ٱلجيب وَٱلْيَدِ
إذا نظرَ ٱلمسكينَ فاضت عيونُه ... يقبلُـه فـي ٱلـرأس وٱليـدُ وٱلخـد
رؤوف رحيم ذو ٱنبساط ورحمة ... يُبادِر من لاقاه من قَبْل أن يُبْدِي
لقـد جـاءه ٱلإيـذا بضـربِ مُـذَفِّفِ ... فبادرَ بٱلغفران فضلاً علىٰ ٱلمُعْدِي(١)

---

(١) أي : المعتدي ومذفف أي مزهق .

ولا زال يـدعـو لـلإلـه وقـربـه ... ويمنحنا طُرقَ ٱلهداية وٱلرُّشد

فوٱلله ما شَاهَدْتَ في ٱلقطر مثلَه ... ولو طُفْتَ في كل ٱلمغارب وٱلهند

فإن قلتَ من هـٰذا فَسَقَّافُنا ٱلذي ... رَقَىٰ فٱرتقىٰ حتىٰ أتىٰ حضرةَ ٱلعِنْدِ

فيا سادتي جودوا ومنوا بنفحة ... فإني علىٰ عهد ٱلمحبة وٱلود

ولا أنثنـي عـن حبكـم ووداِدكـم ... ولو تَبْتُروني بٱلسيوف وبٱلحد

وقد كان ما قد كان بيني وبينكم ... من ٱلفضل وٱلإحسان وٱلطَوْل وٱلرِفْد

فإنْ قد تَناسَيتم فلستُ بغافل ... وإنْ قد تذكرتم فإني علىٰ ٱلوَعد

رجائي بأن أُدعَىٰ سعيداً بحبكم ... وأني سعيدُ ٱلحظ في سابق ٱلعهد

فحـاشـاكـمُ أَن تـتـركـونـيَ مُبْعَـداً ... فإن حجابَ ٱلصد من أعظم ٱلبعد

بجاه رسولِ ٱلله أعظمِ من به الـ ... ـتوسلُ لِلْمَوْلَىٰ فمُنوا علىٰ ٱلعبد

وصلِّ علىٰ ٱلهادي ٱلنبيِ شفيعِنا ... محمدِ ٱلمحمودْ ٱلْهَادِيِ ٱلمَهدي

وآلٍ وأصحـابٍ ومَـن كـان تـابعـاً ... علىٰ ٱلمِلة ٱلسَمحاءِ وٱلمنهج ٱلْقَصْدِ

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

زاوية العيدروس العلمية

بحوطة آل أبي علوي بتريم